غيّ مُوبَاسَّان

سِيرَة حَيَاة



روائع الروايات العالمية

علي مولا

19500

سيرة حياة

النص كاملاً

ماريان

روائع الروايات العالمية

غي موباسان

سيــرة حيــاة

تعريب

إيلي مارون خليل

عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

سيرة حياة

تقديم
أندريه فرميجيه

حين أصدر ، عام ١٨٨٣ ، رواية « سيرة حياة » ، كان موباسان صار كاتباً معروفاً ، وواحداً في طليعة الكتّاب المتحلّقين حول زولا ، والمركّزين على إنعاش الواقعيّة ، كما حدّدها فلوبير ، وكما قَبِلَها الجمهور . وهو ، أمس كما اليوم ، عنيف بسهولة ، ضخم نوعاً ، قصير قليلاً ، وضيع إلى حدٍّ ، صحفيّ أكثر منه كاتباً . إنما لا جدال في أنّه « أعاد ، إلى فرنسا ، التذوّق الشديد للقصة والأقصوصة » ، كما قال هو نفسه في ما بعد . يخترع ، كان ؟ أبداً . على كلٍّ ، لِمَ ؟ خيال الحياة أوسع من خيال الأدباء . يصغي ، كان ، ينتظر ، يهتمّ ، ويختزن ، بسرعة ، القصص الكائنت تدور في أحاديث العائلات ، في مكاتب الوزارات ، وفي الفنادق حيث ينزل رجال التجارة وموظّفو متاجر الآحاد في « أرْجَنْتُويّ » . ومنذ ١٨٧٤ ، كان كتب إلى أمّه : « حاولي أن تجدي لي مواضيع تصلح للأقاصيص » ، وكتب ، بعد ذلك بقليل : « يمكنني أن أضع كتاباً صغيراً ، مسلّياً وواقعيًّا ، بانتقائي أفضل قصص أهل الزوارق الذين أعرف ، مضيفاً إليها ، ومُزخرفاً فيها . . . » . ولكن ، من هذه القائمة البسيطة لـ « التقليد

المتواتر » ، ومن هذه الحكايات الشعبيّة التي للبورجوازية الصغيرة ، عرف كيف يستفيد ممّا هو الأكثر دلالة بفضل هذا الذكاء الأدبي الطبيعيّ ، إلى حدّ أنّنا ، مرّات ، نشكّ ، في أن التدخّل سرى بين الواقعيّة والسّرد . قال جان پولهان ، بوضوح : « لا أعرف كاتباً آخر يستطيع ، كما موپاسان ، أن يثبّت الشعور في أنّ الأدب أمر سهل وتلقائيّ » .

لكنّ الأمر ، مع الرواية ، يختلف ، مع الرواية الأولى خاصة ، ولا يكون تلقائياً . وإذا سلّمنا بأن فكرة الرواية التي عنها تحدّث موپاسان مع فلوبير في نهاية ١٨٧٧ ، هي نقطة الانطلاق الحقيقية لرواية « سيرة حياة » ، يكون العمل ظلّ حوالى السّنوات الست في الاعداد ، مع أنّ موپاسان لم يعمل فيه بتتابع ، بل ، مرّات ، أهمله ، لأنه كان مأخوذاً بمهمّات أخرى ، أو لأنّه كان خائفاً . واهن العزيمة أحياناً لسعة المشروع وأهميته . وبالرغم من بساطة فكرة الكتاب (الحقيقة المتواضعة) ، وبالرغم من العنوان المذكّر بمناخ إرهاقيّ ، وإنهاك عصبيّ ، وكشف سلبيّ صرف للاحساس الطبيعيّ ، فالمشروع ، واقعياً ، طموح ، إذ أنّ فكرة « سيرة حياة » ، قادت موپاسان الى محاذاة خطرة لحدود فلوبير ، وتقريباً إلى إعادة كتابة « مدام بوڤاري » (وليس « القلب السّاذج » ، كما تسمّى الرواية أحياناً ، ولو لجانّ ، بطلتها ، صفات السذاجة) ، لأن القصد من الرواية ، ليس إخبار نادرة أو قصّة شخصيّة ، إنّما التحليل ، بطريقة عامة ذات دلالة ، للوضع الأخلاقي ، الزوجي ، وحتى الجنسي ، للمرأة ، في مجتمع لا تقدر

أن تكون فيه إلاّ عبدة ، آلة مستسلمة وآنيّة للذة ، ذات حضور تزيينيّ زخرفي ، مخلوق مسلوب مخدوع ، إذا تجرّأنا على استعمال هذه النعوت المبتذلة ، إنما غير المستعملة عشوائياً . هي قصّة زوجين ، بالأحرى قصة منازعاتهما ، طامحة لأن تكون ، أيضاً ، إثباتاً لفشل هذه المؤسّسة الشاذّة ، بنظر موپاسان : الزواج . هذا الزواج يناقض الحب ، الذي هو غير موجود ، أصلاً . يبدو ، كلّ هذا ، « فلوبيريًّا » ، توغّلاً في التشاؤم : الشعور بأن الحياة فجيعة ، وبأنها ، والمراهقة ، أمر لا يمكن أن يتناغم ، أو ينتظم في أواخر العمر ، حين نكون زهدنا بكلّ شيء ، حين نعود لا نأمل شيئاً . « هي الحياة ، ليست فرحاً دائماً » ، تقول جانّ لأبيها ، ببلادة مكرّرة ، يدفع بها ، موپاسان ، بسخرية ، كلّ أحاديثه تقريباً . ويجيب البارون : « ماذا تريدين ، بنيتي ، لا نستطيع شيئاً » ؛ لا شيء أبداً ، بنيتي ، خصوصاً حين نحن بلا مروءة أو أوغاد . هي ، هذه « الحقيقة المتواضعة » التي تصحّح العبارة ، فقط من آخرها . « الحياة ليست ، أبداً ، حسنة ولا سيّئة كما نعتقد » ، وهي حكمة شعبية تختصر ، بصدق ، الكتاب ، ربما لأنّها الوحيدة الحقيقيّة أمام عدميّة الأشياء ، وربما ، كذلك ، لأنها لا تصدم القراء ، وخاصة القارئات . إنّ رواية « سيرة حياة » ، هي كل (الحيوات) ، لكنّ الرجال ، عامّة ، لهم حظّ ، إلى حدّ ، أفضل .

مسكينة جانّ . مسكينة إيمّا . والنساء جميعاً مسكينات . إنما ، مهما كان الأمر ، في نهاية المطاف ، لو كنّ أقلّ غباءً ، لربّما كنّ

أقلّ تعاسة (هو، موپاسان يتحدّث، هنا، لا كاتب هذه المقدمة). جانّ، الأخت الأصغر لإيما، ذات الوضع الأفضل اجتماعياً وعائلياً، هي، إنسانياً، أدنى منها، لأن موپاسان، ودائماً باسم «الحقيقة المتواضعة»، رفض أن يجعل من حياتها شعاراً وقدراً. طبعاً، إيما ليست ذات خبرة، لكنّها، على الأقل، تجرؤ، تعشق، تغامر، تخون زوجها. وهو أمر، سريعاً ما تبادر في تنفيذه، في مثل وضعها. مدهشة الحيويّة، صدر ثائر باصطخاب الآلام، جميلة، شبقة، ضاجّة بالأحلام (بلهاء، لكن ما العمل؟ كلّنا هكذا، حسب فلوبير)، ڤينوس ريفية حقيقيّة وسيبيل نورماندية. بسذاجة، رسخ فيها طبع الأمومة ليكمل عذاب جانّ المسكينة، تحيا وتموت كما بطلة مأساة، أو كما مغنّية ماهرة في أوپرا رومنطيقيّة، لعنات العشق والحشرجة فيها، تفوق، من حيث الغنائية، كلّ ما خلق فرديٍ من مذهل. لا تزهد، هي، بل تتطلّع، دائماً إلى البعيد. تفضّل الموت على الهزيمة. وهو أمر يمتاز بشجاعة نادرة، في زمن كانت النساء فيه، لا ينتحرن إلاّ في الصبر أو في الفساد. عبدة وضحيّة هي، لكنّها تنتمي إلى سلالة جورج صاند، لويز كوليه، ماري داغولت وغيرهنّ من اللواتي كنّ الذعر الرومنطيقي، بخاصة أنّنا نحسّها على شفا النجاة، قريبة من الأرض الموعودة، مستعدّة لقبول ظهور هذه الحريّة التي، منها، تنسلّ، لكن مَثَلها يساعد سواها، من النساء، على الغلبة.

من لا شيء انطلقت إيما: لم تعرف أمّها، والأب الطيّب

رووٌ لم يكن يتجاوز حدود الحواسّ ؛ تكوّنت ثقافتها ، كلّها ، في الدير ، من ثرثرات الراهبات التقيّات ، وبعض روايات غرف المطالعة ، لا تعرف شيئاً ، وليس في رأسها شيء ، تصدف شال وتتزوّجه بهدوء لا مبالٍ كما لو كانت تطرّز شرشفاً ، أو تمدّ عجينة كعكة الفاكهة . كانت جانّ ، على الصعيد العائلي ، تفضل إيما وتنتمي الى وسط محبّب ، نسبيّاً مثقف ، يعرفه موپاسان جيداً ووصفه بلباقة ساخرة وعذبة . الوالد ، البارون سيمون جاك لوبرتوي دي ڤو ، قرويّ طيّب ، ذو أطباع واقتناعات روسويّة ، يعبد ، بـ « حنان العاشق » ، الطبيعة والحرية والحيوانات . أمّا الأم ، السيّدة أدلائيد ، فضخمة ، ضيّقة النفس ، مطرِّزة بإحساس بدين ، من نوع السيّدة دي كمبرمر ، كَلِفَة بعلم الأنساب ، قارئة مدمنة لمدام ده شتال ، بيرنجيه ووالترسكوت . وهما ، الأب والأم ، قلبان طاهران ، روحان بريئتان تماماً ، تساعدهما ثروتهما ، أما عن الأمور « الواقعيّة » ، عن الحياة ، فيجهلان كلّ شيء . وليس فيهما إلاّ خطأ واحد . الطيبة ، طيبة خالق ، مبعثرة ، دون مقاومة ، كما استرخاء شرش الغضب ، سقطة في الطاقة ، تكاد تعتبر عيباً » . هذه الطيبة ، جعلت المال ينضب بين يديهما كما تجفّ مياه المستنقعات في الشمس .

لو كانت العائلة على رغد أوفر ، لما كانت التربية أفضل ، أي أنها معدومة ، قاسية كما على سائر فتيات تلك الحقبة . وضع البارون تصميماً لتربية ابنته ، لكنّ هذا التصميم وصل به إلى سَجْنها في دير « محصّنة ، مجهولة ، وجاهلة الشؤون الانسانيّة » ، ومن

هناك ، أخرجها ، « في السَّابعة عشرة من عمرها ، عفيفة ، ليُدخلها ، هو نفسه ، في جوّ شعري وعقلاني » ، ويعلّمها « الشرائع المشرقة التي للحياة » . إنّ مثل هذه المبادىء ، البريئه إلى هذا الحدّ ، لا يحصل بنتيجتها ، إلاّ كوارث . يتركون الفتاة عزلاء ، في واقع وجوديّ قاسٍ ، حسب رؤيا موباسان الوقحة والمرّة . هذا الواقع ، دائماً ، لا يشغف على اللطفاء ولا على الأنقياء . لكنهم ، أقلّه ، يجعلون منها مخلوقة صحيحة وشريفة ، عجيبة الجمال وخصبة من بلد « الكُو » الذي هو إطار الرواية . جانّ ، جميلة كانت ، كما رسمٌ لفيرونيز ، رياضيّة بامتياز ، سابحة جريئة ، فارسة كاملة كما غريمنتس (شخصية من شخصيّات بروست) ، واثقة من أنّ « أشياء ثلاثة فقط جميلة : النور والمسافة والماء » . هذه ، ليست نقطة انطلاق سيئة بالنسبة لموباسان ، وقد جعل شخصيّته جريئة ، وأضاءها بكلّ حبّه للبحر ، ونزهات المركب ، ورحلات الصيد ، وأشجار موطنه الأصلي ووديانه .

على هذا الصعيد أيضاً ، موباسان ، وهو أديباً ، ابن روارث . لم يتأرجح في أن يقبل التحدّي . وها رواية « سيرة حياة » ، كرواية نورمانديّة ، تقارن بمدام بوفاري ، من حيث الغنى المتمثّل بالسخاء في أوصاف الطبيعة ، وأريحيّتها ، واستحضار الفصول الغائبة والميتة ، وضجيج الأرض وأعمالها ، ولو هي ، أحياناً ، أوصاف غير موافقة ، وكذلك بالغنائيّة السّاذجة ؛ ولكن ، بما أنها مؤثرة بصراحتها ، وبعجيب حنانها المنعش ، وغير المنتظر ، وسط أمراض المذهب الطبيعيّ الحضريّة ، فهي تضفي لمسات من

نور وأمل على هذه القصة الحزينة : « النور والمسافة والماء » . نفكّر ، هنا ، بتورين بلزاك ، في « زنبقة في الوادي » ، بجورج صاند ، وبكلّ تقليد الشّعر الريفي عند موباسان ، الذي ما عاصر الانطباعيّة ، ولو انّه لم يعرف منها شيئاً ، لكنه استخلص وجدّد بفضل معرفته الاستثنائيّة للشارع ، لنفسيّة القرويّين ، للغتهم وعاداتهم . في هذا المجال ، يبدو ، حتى ، متفوّقاً على سابقيه ، فهو أقدر ، أصدق ، ولا شيء أكثر دلالة ، من مجموع أشخاصه الثانويين ، يجعلهم يشاركون ، بخفر، في الدراما ، وبدون أن يفتقد التسلسل في قصّته : الصيّاد الهرم ، الأب لستيك ، المزارعون ، آل كويّار ، آل مارتان ، الكاهن بيكو وهو خيال صورة ممتازة للكاهن القرويّ ، جدير بنظيره خوري بورنيزيان ، الكاهن المشؤوم توليباك ، الأرملة دانتو التي تحضر ، وبالبرودة نفسها ، مخاض النساء الحبالى وحشرجة المنازعين ، ديزيريه لو كوك ، الذي ، بعد تجارة هوميريّة ، قبل الزواج بروزالي ، وبالأخذ ، على عاتقه ، الولد الذي وُلد بفضل نشاطات زوج جانّ ، وروزالي نفسها أخيراً ، غير العادية ، روزالي الرائعة ، أجمل وجه في أدبنا ، القرويّة ، لخادمة ذات قلب كبير ، بين هناءة القلب الساذج وفرنسواز بروست ، روزالي التي ، كما يناسب مجسّدي العبقريّة ، وطيبة الأرض ، هي تجسيد التدخّل الخارق في الخلاصة السّلميّة . يكاد رجال القصور النبلاء ، يكونون أقلّ اقتناعاً (أسماؤهم ، خاصة ، ليست حسنة الابتكار) . لكننا ، في ما بعد ، سوف نتكلّم على نبلاء نورماندي الصغار .

لنعد إلى جانّ الشقية .

هي آية ، من حيث الشكل . إنما ، روحيّاً ، لا شيء . لا شيء مطلقاً ونهائياً . لأنه ، كما يحصل ، مراراً ، للشباب الذين لا يشغلهم درس ، ولا طموح ، فإن كسل الفكر عندهم (ضعف فطري بالنسبة لجانّ) يقابله فوران عاطفي يترجم بـالأحلام المتحمّسة عند التلميذ الداخليّ ، من حيث « الآمال المتعـذّر تحقيقها » و« الارتعاشات الفوق بشـريّة » ، والانتـظار الشارد للحبيب . « منذ ليلتها الأولى في « غيضة الحور » ، حلمت جانّ بمثل هذه الأمسيات ، تحت الضوء الرمادي المتهادي من النجوم ، سوف يتنزّهان . يذهبان اليد باليد ، يغمران بعضهما ، يسمعان نبض قلبيهما ، شاعرين بحرارة كتفيهما ، الخ . . . » بماذا تحلم الصبايا ؟ ما طرحنا ، بعد ، سؤالاً ، بلا معنى ، مثل هذا السؤال . بماذا تريدون أن يحلمن في القرن التاسع عشر ، إلاّ بشارب زوج المستقبل ؟ « الحبّ ! يملؤها ، كان ، منذ سنتين من الضيق المتنامي بسبب اقترابه . حُرّة ، هي ، الآن في أن تحبّ . لم يبق إلاّ أن تلتقي به ، هو كيف يكون ؟ لا تعرف بالتمام ولم تكن ، حتى ، لتتساءل . سيكون هو ، هذا كلّ شيء ! » بشكل آخر ، لم تكن جانّ تنتظر إلاّ المناسبة للارتماء على رأس الآتي الأوّل المتمثّل بشكل جار قدّمه لها الكاهن بيكو ، الڤيكونت جوليان دي لامار ، مدّعي الجمال في المقاطعة ، وطامع في مال زوجة ، صاحب الكلمة المتملّقة والشارب اللّا يقهر ، على طراز رودولف « الصـديق الطيّب » ، أو بالأحرى ، على طراز موباسان نفسه ، لأنه ، هو

ذاته ،، سكب على جوليان ملامحه ومظهره الجسدي : ولا واحد كان رجلاً على امرأة وعدوًا للنساء كما موپاسان . لكن رواية «سيرة حياة» ، تبدو ، من بعض الجوانب ، نوعا من النقد الذاتي ، من حيث الابراز المباشر أو نصف الواعي لعذاب الضمير الممكن أن يعانيه لعنف طبعه ، أو لكثرة مغامراته التي يقلع عنها ، كان ، بالسهولة نفسها التي بها ، يحصل عليها .

سريعاً ما تتيقّن جانّ أنّها أخطأت خطأ العمر ، وأنّ زوجها فظّ ، خشن ، سمج ، وسخ ، بخيل بدناءة ، مدمن على الشراب ، متهالك على النساء . تيقّنها متأخراً ، كان ، ولم يبق أمامها إلاّ أن تبدّل وضعها كامرأة مهمَلة ، بوضع أمّ فاحشة ، وهذا تطوّر تقليديّ تماماً . وحين تعلم ، في المساء نفسه لزيارتها الأولى إلى « غيضة الحور » أنّ جوليان قصد روزالي إلى غرفتها ، وأنّ هذه لم ترفض ، لأنها وجدته « لطيفاً » ، تصرخ : « هي أيضاً وجدته لطيفاً ، لهذا ، فقط ، استسلمت ، متعلّقة بالحياة وكانت زهدت بكلّ أمل فيها ، بكلّ المشاريع المنتَظَرة ، وبكل مجهول الآتي . كانت وقعت في شرك الزواج ، في هذا الثقب البلا،حدود ، لتعود ، من جديد ، إلى هذا البؤس ، هذا الحزن ، هذا اليأس ، لأنها ، هي ، كما روزالي ، كانت وجدته لطيفاً » . وعلينا أن نذهب أبعد من هذا البؤس وهذا الحزن ، لأنه ، وهذا واحد من معاني الكتاب ، حتى ولو لم يكن جوليان فظّاً وزوجاً خائناً ، لَظَلّ الزواج ، مع ذلك ، « الثقب البلا حدود » . تفهم جانّ ذلك منذ عودتها إلى « غيضة الحور » ، بعد رحلة الزواج ، أسابيع في جزيرة

كورسيكا ، وكانت من الوقت الوحيد السعيد في حياتها . « تتيقن ، إذن ، أن ليس بمقدورها شيء . . . أبداً ولا شيء . . . واقع الأيّام الأولى الجميلة انقلب واقعاً يومياً أقفل الباب بوجه الآمال اللامحدودة ، وبوجه كآبات المجهول العذاب . نعم . كان الانتظار يبس . انتهى . إذن ، لا شيء للعمل ، لا اليوم ، لا غداً ولا في أي وقت » . هذا هو وضع المرأة في زمن موباسان : لا شيء للعمل ، الامّحاء الكلّي ، وحدها تستطيع أن تقطعه ، رحلة الزواج والتعاسة . رواية المرأة ، رواية وضع المرأة ، رواية أمانٍ ومطالب نسائيّة ملأت القرن التاسع عشر بكامله ، بضجّتها المفيدة ، تنتهي على العجز .

وممّا يزيد من شقاء جانّ ، أنّها كانت مدلّلة . وبدون توقف أو استراحة ، راح زوجها يخونها . مرضت بحمى الدماغ ، وأنجبت بصعوبة كليّة مميّزة . وتنجب ، ثانية ، ولداً ميتاً ، ليختفي زوجها في ظروف مأساويّة ، ابنها يهرب مع مومس ، ولا يرسل أيّة إشارة تدلّ على أنّه حيّ ، يستدين ، يعرّض بشرف العائلة ، وهذا هو الانهيار بعينه ، ترى كلّ من لها يموت ، ومتصفّحة رسائل أمّها ليلة المأتم ، تكتشف أن كان لها عشيق ، وهكذا تفقد « آخر ثقة لها بآخر من كانت تثق به » . تقرّر ترك المكان وبيعه ، ولو لم تعد روزالي ، بأعجوبة ، لكانت انتهت إلى مأوى . أيّة وجهة ! لو تمالكت نفسها قليلاً ، لسألناها إذا لم يكن كلّ ذلك بسبب خطيئتها ، إذا لم يكن موباسان ، وهو غير زولا ، في مجال تذوّق الكارثة ، وجد لذّة في أن يصبّ على رأس بطلته الذلّ والكوارث ، بمقدار ما يتفاقم غيظه

بفعل ضعف شخصيّتها و « وراثتها للطبع الحالم » ، ويجعلها أحياناً ، شلل إرادتها ، قريبة من بعض شخصيّات الروايات الروسيّة . لكن موباسان لم يكن معجباً بتورغنييف ولا بتشيكوف : إذا كانت جانّ « نورساً » ، فالجمال السّلافي يؤذيها بعمق . ويجب ألّا ننسى أنّ موباسان عاش ما يقارب السّنوات الستّ معها ، أكثر بكثير ممّا عاش مع أيّة واحدة من اللواتي عرفهن ، وهذا أكثر ممّا يلزم لكي يكره امرأة ، بخاصة إذا كانت امرأة شقيّة ، امرأة تبكي . يا لها من قدرة على البكاء عند الشقيّة جانّ هذه . إن سلسلة الاغمات والتلاشيات الطويلة ، ونوبات الأعصاب ، والنحيب المتشنّج ، تتكرّر كثيراً ، طوال الرواية . قد يكون هذا قصد أن يضاعف النجاح (كان يعمل أكثر من أيّ آخر في سبيل البيع) ، وأن يفوز بجمهور آخر غير جمهور كرة الشحم المتراكمة . من هنا أنّ موباسان أراد الرواية تبدأ بوابل من الدمع وتنتهي بشلال . الخاتمة تنقذ كلّ شيء ، وهي بحرارتها ، وطيبتها ، وقوّتها ، تذكّر ، وبدون انتقاص ، بنهايات الروائيّين الروس الكبار . إنما للوصول إلى هذا المستوى ، كم من تعثّر . وبالنسبة لتصرّف جانّ الأمومي ، فهو مهول . بوليه من هنا . بوليه من هناك . ألأنت بردان ؟ ألأنت قائظ ؟ كلا ! لن يذهب إلى المعهد . ألا تحب ، بعد ، أمك الختيارة ، التي طالما آذيتها ؟ الخ . . . لا نُلِحَّنَّ ! إنها للقتل .

هذا الافراط في العواطف ليس من طبيعة موباسان ، لكنه ، ولا شك ، في سبيل تغطية الجرأة في الرواية ، والصراحة التي بها يقتحم قضايا المرأة الحميمة . روائيّو القرن التاسع عشر ، صمتوا

على هذا الصعيد . وحده ، بلزاك ووصف بعض الشذوذ الاستثنائي ، يثيران مسألة الجنس عامة ، كما لو أنها أمر تلقائي ، ربما أكثر أو أقلّ حدّة بين إنسان وآخر ، لكنّها لا تسدّ نقصاً ، لخلل عميق : هي القلوب تتألّم ، لا حياة جنسيّة شقيّة . هو الأوّل ، موباسان ، من كانَ أكثر جرأة (رواية « سيرة حياة » نشرت عام ١٨٨٣ ، سنتين قبل مجيء فرويد باريس ، وسبع عشرة سنة قبل ظهور كتابه « تفسير الأحلام ») . وشدّد على هذا الطابع أيضاً في حياة المرأة : جهل جانّ المربك ، لحظة زواجها ، حديث البارون القصير والمتلبّك ، وهو حاول ، من خلاله ، أن يضعها في الجوّ ، إلى حدٍّ ، ليلة الزواج : واحد من أقوى فصول الرواية ، وهو ، أكيداً ، له قيمة المثل بالنسبة لموباسان : مشهد حقيقيّ لعملية اغتصاب فيه يظهر ، بوضوح ، أن لا حقّ للمرأة باللذة كما للرجل .

لكن هذه كانت ، إلى حدٍّ ، غلطة جانّ : أن تصطكّ أسنانُها هولاً لمجرّد رؤ يتها ساق زوجها الكثيفة الشعر ، ليس ، في الواقع ، أمراً طبيعياً . مع ذلك ، لم تكن وانية الشبق ، كما تظهر حادثة النبع أثناء الرحلة في جزيرة كورسيكا ، والحادثة ذات دلالة واضحة . لكنّ حسّيّتها لا تقاوم الجراح النفسيّة التي نكبها بها زوجها ؛ تلتذّ مذعورة (حتى انقطاع الطمث الذي ، بفضول ، يهدّئها نوعاً) ، تُضْلَب بسبب « الحاجات الجسديّة » ، وتحتمي في ما يبدو لها نوعاً من الهستيريا . أضف إلى ذلك ، أنّ الرواية كلّها ، لكون موباسان صائغاً بالفطرة ، وضعت تحت شعار الجنس ، ودار الأمر على هذا

الشقيّ المهووس الكاهن توليباك ، أو على جوليان (انعكاس شعور الكاتب نفسه بالذنب) أو على الصبيان والبنات الذين يجتمعون ، أزواجاً ، خلف السياج ، أو على فضوليّة شخصيّة كونتيسة فورڤيل ، التي عصبيّتها لا تهدأ ، إلاّ حين تنتقل من ذراعي زوج ظاهر العجز في إروائها ، إلى ذراعي عشيق قادر حاذق . كلّ هذا قاله موپاسان بحفر نسبيّ ، ولكن بالنسبة لبلزاك وفلوبير وزولا (وهو ، في هذا المنطلق ، على سذاجة مُفَخَّمة وبدون فوارق) ، نشعر أنّ الأمر يختلف .

إضافة إلى كونها رواية عن وضع المرأة ، ورواية نورمانديّة ، إنّ رواية « سيرة حياة » ، هي ، أيضاً ، سجل وقائع اجتماعية ، إذ من خلال قصة عائلة ، يصف الوسط النبيل في المقاطعة التي كان يعرفها موپاسان تماماً ، والذي ، لأجله ، لا يبدو أنه أظهر أيّ تعاطف خاص . موباسان لم يكن يسارياً (ولا يمينياً) ، لكنّه روح مستقلّة ، خالية من كلّ حجج سياسيّة أو اجتماعيّة مسبقة . وضوحه ، ونزاهة براهينه ، جعلاه لا يجامل أي نوع من أنواع سلطة أو مؤسّسة ، ولا يغمز من قناة أيّ منها . وكان ، في ١٨٧٧ ، كتب إلى فلوبير يقول : « إني أطلب إلغاء الطبقات المسيطرة من هذه النفاية ذات الأسياد الأغبياء ، مَن يتلهّون كالأطفال بتنورة هذه المرائية الهرمة والبلهاء التي يقودون والتي يسمّونها المجتمع الطيّب : يتشدّقون ان المجتمع في خطر ، وحرية الفكر تهدّدهم . . . إني أجد الآن ان عام ١٧٩٣ كان وديعاً » ، ويقترح « اغراق هؤلاء السّادة القذرين مع السيّدات الجميلات

العاهرات » . مع ذلك وبعد سنوات ، في فترة كان فيها ، موپاسان ، يبدأ المصالحة مع المجتمع ، وفي رسالة منه إلى السيّدة لوكومت دي نويّ يكون تعبيره ألطف ، إنما شعوره يكون هو هو : «سهلة الملاحظة انه ليس بالأفكار تنقرض طبقة النبلاء اليوم كما سابقتها عام ١٧٨٩» . هذه تماماً هي الفكرة التي تتبادر الى الذهن ، حين يواجهنا موباسان بنبلاء الريف الذين يؤلفون خلفيّة الرواية : آل بريزڤيل ، آل كوتوليه ، آل فورفيل ، وحتى آل برتوي دي ڤو انفسهم ، على الرغم من لطفهم الفطريّ وبساطتهم ، جميعاً متساوون في كونهم محافظين حقيقيين على الطبقة النبيلة ، يحيون في عالم من الطقسيّات البالية حيث لا تفكير بشيء ، لا تحدُّث بشيء ، وحيث لا يحصل شيء .

اهتم موباسان للاشارة بدقة متناهية ، إلى تسلسل أحداث الرواية : تبدأ ، هي ، عام ١٨١٩ ، وتنتهي في بداية الأمبراطورية الثانية . والحال أن أيّاً من احداث هذه الحقبة ، يجد صداه في السّرو : علماً أن المادة المغذية محادثات القصور ، لم تكن ناقصة ، من اغتيال دوق دي برّي المدبّر ، إلى وباء الكوليرا ، فالى ثورة شباط . ليست المسألة هنا . في وسط جانّ ، التاريخ غير موجود . لم يعد موجوداً . هم يحيون على هامش كلّ شيء ، (تلزم مناسبات دراماتيكيّة لتنطلق بطلتنا) ، فقط بعض زيارات بروتوكوليّة ، وعلاقات هزيلة ومقنّنة بعناية تؤلّف كلّ نشاط هذه الطبقة النبيلة في مقاطعةٍ أظهرها لنا بلزاك كذلك ، حيّة ، عكرة ، قديرة على العمل والتلذّذ . هكذا آل بريزڤيل الذي تتوجّه إليهم جانّ بالسؤال ، على الرغم من انها متلبّسة بطابع القصر الحزين : ماذا يمكنهم ان يعملوا طوال السنة :

« يتعجّب آل بريزقيل من السؤال ، لأنهم منشغلون دوماً ، يكتبون إلى أقاربهم النبلاء المودّعين في كلّ فرنسا ، يمضون أيّامهم في اعمال ميكروسكوبيّة طقوسية ، الواحد تجاه الآخر ، كما إزاء الغرباء ، ويتحدّثون بعظمة عن أتفه أعمالهم » . عمّ تتحدّث هذه الرسائل الموجّهة كالصدى من اشباح إلى أشباح ؟ عن الزواج والموت ، بلا شك . وعن علم الأنساب خاصة ، وهذا هو الموضوع الوحيد الذي يستطيع ان يوقظ البارونة من سباتها ، ويمكنه ان يعطيها ، من جديد ، ووقتياً ، طاقة فائقة ، حين تعلم - مثلاً - أنّ والد جوليان كان عرف صديقاً حميماً لوالدها السيّد دي كورتو (نتذكّر لابيش) . اكتشاف هذه المعرفة ولد محادثة تحالفات وأزمنة وقرابات لامتناهية . واندفعت البارونة تعمل لتقوية ذاكرتها . معيدة قرابة الاسلاف والأعقاب لمن تبقى من عائلات ، دائرة دون ان تضيع ، أبداً ، في متاهة علم الأنساب المتشابكة . وتتذكّر : « كانوا يتحدّثون عن أناس لم يروهم أبداً ، كما لو كانوا يعرفونهم جيّداً ، وهؤلاء ، بدورهم ، في غير مكان ، يتحدثون عنهم بالطريقة نفسها ؛ كانوا يشعرون ، هكذا ، أنّهم عشراء ، ولو عن بُعد ، أصدقاء تقريباً ، وحلفاء ، فقط لانتمائهم الى الطبقة الاجتماعية نفسها ، ولكونهم من دم متساوٍ » . لم يكونوا ليهتمّوا بثورات العصر وأحداثه . فقط ، أخذتهم قضايا تزاوجهم من بعضهم ، الأمر هذا ، كان يصرف اهتمامهم عن القضايا الشعبيّة الكبيرة » .

كنّا لنظن انّ الرواية تجري احداثها في الربع الأخير من

القرن ، لو لم نُنبَه إلى أنها تبدأ في العام ١٨١٩ . فجميع شخصيّاتها تبدو معاصرة لموپاسان (صحيح أنه ، هذه الفترة ، لم تكن فرنسا الريفية تتغيّر أبداً) ، ويمكننا ان نتساءل : علامَ يدل هذا الانتقال بالتسلسل الزمني للأحداث ؟ يدلّ ، وبدون شكّ ، على أنه كان ضرورياً للدلالة على ما تريد رواية « سيرة حياة » ان تكون : من أفول نجم عائلة وطبقة اجتماعيّة ، وفكرة هذا الأفول هي ، في الوقت عينه ، هوس موپاسان الشخصيّ ، (كما غالبيّة كتّاب عصره ،) وأساس وجهة نظره ، وهي ، ولنقلها ، صراحة ، محدودة وأقل تعمّقاً من التي لبلزاك ، وللتاريخ ، ولتطوّر العادات ، وللثروات ، وللسّلطة الاجتماعيّة .

لانريد أن نحلّ محلّ المؤرّخ ،وهو يبقى أقدر على التمييز ، لكنّنا ، مركّزين على صورة طبقة النبلاء الصغار أو الكبار التاريخيّة ، التي تركتها لنا رواية القرن التاسع عشر ، نستطيع القول إن هذه الصورة هي كما يلي : ثمة أوّلاً النظام القديم ، الذي عرفوه أو عاشوا بعده ، يحيون ببحبوحة ، ينفقون بإفراط وأحياناً بدون حساب ، مهما كانت الموارد التي بها يتصرّفون . واثقون من انهم سيجدون المال في مكانٍ ما ، وراثةً أو معاشاً ، وأنّه لا عيب إطلاقاً ، لرجل شريف النسب ، من ان تتراكم الديون عليه ولا يدفعها . يتفاهمون جيداً ، كانوا ، مع مزارعيهم وخدمهم الذين لا يتصوّرون ، أبداً ، أنهم يستطيعوا أن يأملوا ، واقعاً ولا قانوناً ، في مصير مغاير لمصيرهم . كرماء ، مراراً ، في الجوار ، خيّرون بملء إرادتهم ، هواة للأفكار الجديدة وللاصلاحات ،

يستخفّون بالكهنة ، أصحاب مروءة ، يعرفون كيف يستميلون ، إنسانيّون ، متسامحون ، متحرّرون في حياتهم الخاصة ، وحتّى فاسقون غير مبالين بالأعراف ، لا يهتمّون لما هو محظّر أو يُعتبَر فضيحة .

تقع الثورة ، فيهاجرون أو يموتون (ليس بهذا المقدار) ، أو يتقاتلون (أقلّ أيضاً) ، أو يديرون ظهورهم ، أو يتعلّقون بالأمبراطوريّة . عام ١٨١٥ يعودون دون ان يكونوا نسوا شيئاً ، ولكن ، أقلّه ، حفظوا شيئاً ممّا قيل ، بعامّة . يعرفون ، خصوصاً ، انّ المال والسلطان هما الخير الذي عليهم ألاّ يبدّدوه ، ألاّ يدعوه ينتقل إلى أيدٍ أخرى ، ويعرفون ، كذلك ، أنّ هذا يفترض بعض تضحيات بالنسبة للعبث الغابر . نبلاء المقاطعة اذن يتصرفون ، للمرة الأولى ، بالسلطة السياسيّة : تنتخب ، ومن صفوفها يُختار النوّاب . ولكون السلطة السياسيّة غير مستقلّة عن السلطة الاقتصادية ، صاروا ينفقون أقلّ ، يراقبون الدخل ، ابتدأوا بمضاربات البورصة ، يستميلون رجال المال (كما راستينياك ، دي مارساي ، وكلّ أسود بلزاك) ، وراحوا يهتمّون ، خصوصاً ، للتعويض في استثمار ما كان وبقي وسوف يظلّ طويلاً ، أبعد بكثير من بروست ، أساس قدرة الأرستقراطيّة وحظوتها الاجتماعيّة : الأرض . يؤلّفون أكثريّات ، يفتحون المجالات ، يراقبون ، عن كثب ، المزارعين ، يتماشون ، وراثياً ، التقسيم ؛ أمّا هاجس الطبقة البلزاكيّة النبيلة (السيّدة مورتسوف ، مثلاً) ، فهي إعادة تأسيسٍ وتقييمٍ للارث العقاريّ . كذلك اتخذوا عشيقات ، قامروا

أحياناً في باريس ، ومارسوا الحياة بطلاقة ، ولكن بالاجمال ، الضحك انتهى : يفكرون جيّداً ، يذهبون إلى القدّاس ، يدينون بالعائلة ، ويتحالف العرش والمذبح ، ومع ذلك ، فانّ ماتيلد دي لا مولّ ، ملزمة بالتخفّي قليلاً ، لتقرأ ڤولتير في المكتبة الأبويّة .

ويصل عام ١٨٤٥ ، وها سكك الحديد ، آل روتشيلد ، السّان سيمونيّون ، محدثو الثروة في الامبراطوريّة ، ملاذُ المصرف ، فترة حركات الرساميل الكبرى، فبارك صارت معامل ، بالمضاربات الثابتة والثروات الاستعمارية يغامر بعضهم ، أو لا يترك أراضيه ، وهي ، على كل حالٍ ، تكفيه لقضاء حاجاته ببحبوحة . يدخل آخرون الدائرة ، يتدبّرون أمرهم جيداً ، أحياناً ، يؤسّسون شركات ، يهبون أسماءهم ، أو ، ببساطة أكثر ، يتزوّجون وارثات معامل أورليان ورجالَ مالٍ يهوداً ، في انتظار الأميركيّات غير المقاومات للصلب أو البترول . وبالاجمال ، ثمة ثلاث مراحل توازي ثلاثة أجيال : حلاوة العيش ، الانطواء على الفضيلة ، التديّن ، الانتاج الزراعي ؛ الانتقال إلى الأعمال الكبرى ، المال .

هذه المراحل الثلاث ، واضحة في رواية « سيرة حياة » . وهي إلاّ الأولى ، قاتمة تماماً ، بدون أيّة مجاملة أو ميثولوجية بلزاكيّة . أوّلاً ، أهل جانّ : كرماء ، فرحون ، لا يقول لهم المال شيئاً ، متحرّرون كليا في حياتهم الخاصة ، يعتبرون لديانة فكرة متساهلة بقدر ما هي غامضة ، يمتازون بكلّ الصفات (الواقعيّة والمتوهّمة) التي بها تمتاز طبقة النبلاء القديمة . خطأهم الوحيد هو هدمهم انفسهم باللذة وعدم اكترائهم بأفول العام ١٨١٥ ، كانت

مشاريع البارون الزراعيّة جديّة بمستوى تذبذب طاقة العم الذي في سيريزيه. ثم يأتي جوليان: فظّ وجاهل ومتعجرف، مفتود بالطبقة النبيلة (مشهد شعائر النبالة) ، معاملاً المزارعين وكأنهم حيوانات هو نموذج للرجعي ، بزرة فاشستيّة حقيقيّة (رأينا هذا النموذج ينبثق ، ثانية ، وينجح ، في الثلاثينات من هذا القرن ، في ظل نظام فيشي) ، صليب النار في ما بعد وقارىء الحركةالفرنسية ، يخون زوجته ، لكنه مثال المطبّقين لواجباتهم الدينيّة . وبالرغم من تعصّب الكاهن تولبياك ، فهو يعجبه لأنه « لا يتواطأ » ، يعظ بتحالف الكنيسة والقصر : « يجب ان نكون متّحدين لنكون قادرين ومحترمين . إذا تعاضدت الكنيسة والقصر ، يخشاهما الكوخ ويطيعهما » . لأنه ، في هذه الحقبة ، لم يكن أحد يعابث الدين ، والمركيزة دي كوتوليه لا ترسله ليخبر جانّ التي وهن عزمها بسبب غيظ تولبياك الكريه ، فتهمل تربية إبنها الدينية : « ينقسم المجتمع قسمين : المؤمنين بالله وغير المؤمنين . أولئك ، حتى الأكثرهم بساطة ، هم أصدقاؤنا ويوازوننا . وهؤلاء ليسوا شيئاً بالنسبة لنا . . . يرفع الكاهن علم الكنيسة ، سيّدتي ، من لا يتبع العلم فهو ضدّه وضدّنا ». وتجيب جانّ : « انت تؤمنين ، سيّدتي بإله فريق ، وأؤمن أنا بإله الناس الطيّبين » . مشهد رائع ، يذكّرنا بـ « الصديق الطيّب » ، وجدير ببلزاك الذي كان يرى ، بوضوح ، ما كان يحصل في هذا المجال ، ولو نادراً . متدينٌ أو لا ، هو متخلّف عن سير الأحداث . صيغة الرواية الأولى تظهره لنا مهتماً بالاصلاح . مناقشاً مع أخ زوجته في مشاريع تجديديّة ، وفي تقييم

الوضع . لكنه ، في الصيغة النهائية ، لا يعود إلاّ بخيلاً : موسوساً بالمال ، لا يعرف كيف يجمعه إلاّ من اقتصاده في بقايا الشموع وفي استغلاله المزارعين : أي لا شيء يُذْكَر . تنطلق بسوء هذه العائلة . وهي واحدة من العائلات حيث تسلسل أحداثها المحليّة ، ومحادثات أشخاصها المعمّرين ، تتحدّث ، مراراً ، عن الأفول والاختفاء ، وكانت ، قديماً ، قادرة ومحترمة ، أما الآن ، فهي ليست إلاّ ضريحاً مهملاً في مقبرة الريف .

مع الجيل الأخير ، جيل الأعمال ، حيث پول ، يتمّ الانهيار . لا نرى بول . إنّه الغائب ، الفراغ الذي ينهي تحطيم جانّ . لكنّنا نشعر به ، أيضاً ، ساخراً ، حتى أنّ موباسان لم يتعذّب في أن يظهره لنا ، وفي أن يخبرنا تفاصيل هزيمته التقليديّة ، كإبن عائلة دارت بها الأيّام . يراهن كيفما اتّفق ، يؤسّس شركة ملاحة ، يفلس ، يترك ديوناً كثيرة ، تدفعها العائلة ، ويموت البارون . جانّ ، محطّمة ، يجب أن تبيع « غيضة الحور » العزيزة ، وطبعاً « للسيّد جيوفران ، وهو مكرّر قديم للسُّكّر » : البورجوازيّة ، هذه ، لم تضع وقتها . كل شيء كاد ينتهي لو لم تهتمّ بها روزالي ، التي ، كما يبدو ، ما فتئت تفكّر بسيّدتها القديمة ، فتجمع ما تبقّى من ثروة ، وتعيد إلى نورماندي ابن پول (ثم يعود هو أيضاً ، لكننا لا نحضر رجوعه ، وهذا أفضل بكثير . هذه هي « فكرة » الرواية التي كانت تسرّ فلوبير كثيراً : امرأة ، يخونها زوجها مع خادمتها التي تحضنها في شيخوختها وفقرها . وهذه هي الخلاصة البليغة الأثر والسّمحاء ، هذه الخلاصة التي إليها نعود دائماً . ولا أستطيع

مقاومة الرغبة ، وأتمّناها متبادلة ، في أن أقول ، مرة بعد ، إنها جديرة بكبار الكتّاب الروس ، وإنها المشهد الوحيد الروسيّ حقاً في القرن التاسع عشر ، زمن كان هذا القرن يحاول أن يتخطّى الفلسفة الوضعيّة الباردة وتحليلاتها الجافة . بعدها ، يفقد موپاسان نفسه ، يبدّد موهبته ، لأسباب أقلّها تأثيراً المرض ثم معاشراته السيّئة (پول بورجيه ، المومسات ، الخ . . .) . ومع القليل من الحظ ، كان يمكنه أن يصبح تولستوي فرنسا .

إميل فِرميجيه

I

تقدّمت جانّ إلى النافذة ، بعدما أنهت استعداداتها للذهاب ، لكن المطر لم يكن ليهدأ .

كانت زخّات المطر ، طوال الليل ، طرقت زجاج النوافذ والسّطوح . والسماء المتلبّدة والمثقلة بالمياه ، كأنها شُقّت لتفرغ على الأرض وتحوّلها إلى تراب عجينيّ ، مذيبة إيّاها كما السكّر . هبّات الريح تعصف مشحونة حرارة خانقة . كذلك هدير السّواقي الفائضة كان يملأ الشوارع المقفرة حيث البيوت كما الاسفنج ، تمتص الرطوبة التي اخترقت حتى الداخل ، وجعلت حيطان مخزن الغلال تعرق .

كانت جانّ ، الخارجة ليلة أمس من الدير ، المتحرّرة أخيراً ونهائياً ، المستعدّة لتلقّي كلّ لذائذ الحياة التي كانت تحلم بها من زمان بعيد ، تخشى أن يتلكّأ والدها في المجيء إليها إذا لم يشرق الطقس ؛ وللمرة المئة ، منذ الصباح ، سألت الأفق .

تتنبّه إلى كونها نسيت ضم الرزنامة إلى حقيبة سفرها . فتنزع ، عن الحائط ، الكرتونة الصغيرة المقسّمة إلى أشهر ، والحاملة ، في الوسط رسم ، تاريخ السّنة الجارية (١٨١٩) بأحرف ذهبيّة . ثم تضرب ، بشطحة قلم ، الأعمدة الأربعة الأولى ،

شاطبة كل اسم قدّيس ، حتى الثاني من أيّار ، يوم خروجها من الدير .

خلف الباب صوت نادى : « جانيت ! » .

« أدخل يا أبي » ، أجابت جانّ . وظهر والدها .

كان البارون سيمون ـ جاك لوبرتوي دي فو نبيلاً من القرن الماضي ، أهوس وطيّباً . وبما أنه تلميذ متحمّس لجان ـ جاك روسو ، كان يمتاز بحنان عاشق للطبيعة والحقول والغابات والحيوانات

ارستقراطيّ بالمولد ، كان يكره ، فطريّاً ، العام ١٧٩٣ . ولأنه فيلسوف بالمزاج ، ومتسامح بالتربية ، كان يمارس سلطته بضغينة غير مؤذية وخطابيّة .

قوته الكبيرة ، وكذلك ضعفه ، في طيبته . طيبة لم يكن لها ذراع لتداعب ، ولا لتعطي ، ولا لتحضن ، طيبة خالق ، مبعثرة ، بدون مقاومة ، كما استرخاء شرش الغضب ، سقطة في الطاقة ، تكاد تعتبر عيباً .

هو رجل نظرية . راح يتفكّر في تصميم لتربية ابنته ، راغباً في جعلها سعيدة ، مستقيمة وحنونة .

هي ، لازمت البيت حتى الثانية عشرة من عمرها ، ثم ، وبالرغم من دموع أمّها ، أُدخلت دير القلب الأقدس

جعلها ، هناك ، سجينة بقساوة ، محصّنة ، مجهولة وجاهلة الشؤون الانسانية . أرادها تعود إليه ، في السابعة عشرة ، طاهرة ، ليدخلها ، هو نفسه ، في جوّ شعري عقلاني ؛ وفي الحقول ، في وسط الطبيعة الخصبة ، يوقظ روحها ، ينعش جهلها على جانب الحب السّاذج ، والعطف على الحيوانات ، وعلى شرائع

الحياة السامية .

خرجت الآن من الدير ، نضرة ، ضاجة بنسغ الحياة ، ومتلهفة للسعادة ، مستعدّة لكلّ اللذائذ ، في كلّ المصادفات العذبة التي طافت فيها روحها ، خلال كسل الأيّام وبطء الليالي ووحدة الآمال .

تشبه ، كانت ، رسماً لفيرونيز بشعرها الأشقر اللامع يترك لونه على جسدها ، جسد أرستقراطية بالكاد تميزت بزغب خفيف كأنه مُخْمَل شاحب يلاحَظ ، نوعاً حين تداعبها الشمس . عيناها زرقاوان ، هذه الزرقة الكثيفة التي لعيون بسطاء هولندا المزخرفين .

على طرف أنفها ، من الشمال ، خال صغير ، وآخر إلى اليمين ، على ذقنها ، حيث تتماوج بضع شعيرات تكاد لا تُميّز . كانت طويلة ، ناضجة الصدر ، متماوجة القامة . صوتها صاف ، يبدو أحياناً مرتفعاً ؛ لكنّ ضحكتها الصادقة تنثر الفرح حواليها . مرات ، بحركة مألوفة ، تمدّ يديها إلى صدغيها كما لتمسّد شعرها .

ركضت إلى والدها قبّلته . قالت وهي تضمّه : « نذهب ؟ »

ابتسم ، حكّ شعر رأسه الأبيض ، الطويل إلى حدّ ، ومادّاً يده صوب النافذة :

- « كيف تريدين أن نذهب في مثل هذا الطقس ؟ » .

توسّلت إليه ، غَنجة وحنونة : « لنذهب ، يا أبي ، أرجوك . سوف يصفو الطقس بعد الظهر » .

- لكنّ أمّك لن تقبل .

- بلى ، أعِدُكَ ، أنا أتكفل بها .

- إذا نجحتِ في إقناع أمّك ، لا مانع عندي .
وأسرعت إلى غرفة البارونة . كانت تنتظر هذا النهار بنفاد صبر متزايد .
كانت ، منذ دخولها دير القلب الأقدس ، لم تترك روّان . والدها لم يكن يسمح بأيّ نوع من اللهو ، قبل العمر الذي حدّده . مرتين ،فقط ، أخذوها إلى باريس لخمسة عشر يوماً ، لكنها مدينة ، ولم تكن هي تحلم إلّا بالريف .
ستمضي الصيف ، الآن ، في مُلكهم في غيضة الحور . قصر العائلة القديم ، المزروع على شاطىء صخري قرب إيبور . تعد نفسها ، كانت ، بفرح لامتناهٍ ، بحياة حرة على حدود الموج . وكان متّفقاً على أن تُهدى هذا القُصَير الريفي ستسكنه ، نهائياً ، حين تتزوّج .
أما المطر ، وما توقّف منذ العشيّة حتى المساء ؛ فكان أول حزن كبير في حياتها .
لكنها ، خلال دقائق ثلاث ، خرجت ، راكضة ، من غرفة أمها ، صارخة في البيت كلّه : « أبي . أبي ! أمّي لا تمانع . بالعجلة » .
وما كان الطوفان ليهدأ . حتى ليخيّل أنه تكثّف حين تقدّمت عربة الخيل أمام الباب .
مستعدة ، كانت جانّ ، لتصعد إلى العربة ، حين نزلت البارونة الدرج ، متكئة ، من جهة ، على زوجها ، ومن الأخرى ، على خادمة كبيرة قويّة ومشيقة كما صبيّ . تبدو ، هذه النورماندية من

بلاد « الكو » دون العشرين ، مع أنها أكبر من ذلك بثمانية عشر عاماً . يعاملونها ، في العائلة ، كأنها الابنة الثانية ، لأنها أخت جانّ بالرضاعة . إنها روزالي .

مهمتها الأساسيّة : أن توجّه خطوات سيّدتها ، بعد أن صارت ضخمة ، لبضع سنوات خلت ، على أثر تضخّم في القلب : كانت تشكو منه باستمرار .

بلغت البارونة ، وهي تنهش كثيراً ، مدخل درج الفندق القديم ، نظرت إلى الساحة حيث المياه تسيل وهمهمت : « هذا ، فعلاً ، غير معقول » .

أجاب زوجها ، مبتسماً دائماً : « أنت أردت ذلك ، يا سيّدة أدلائيد » .

وبما أنها تحمل هذا الاسم الطنّان ، جعل يلفظ ، قبله ، « سيّدة » ، بشيء من الاحترام الساخر .

ثم عادت إلى المشي ، وبصعوبة إلى العربة ، التي التوى كلّ زنبرك فيها ، وجلس البارون إلى جانبها . أمّا جانّ وروزالي ، فعلى المقعد الخلفيّ .

بعدها ، حملت لوديفين الطبّاخة ، مجموعة معاطف رتّبوها على ركبهم ؛ وسلّتين أخفيتا تحت السوق . ثم صعدت إلى المؤخرة حذّ سيمون الوالد ، وتلفلفت بغطاء غلّفها كلّها . . . جاء الحاجب وزوجته يودّعان وهما يغلقان البوّابة . فأوصوهما بحقائب السّفر التي تتبعهم في عجلة أخرى ، وانطلقوا .

كان رأس الحوذي محنيّاً ، وظهره مكوّراً تحت المطر ، في حين

كان الوالد سيمون يختفي في معطفه المثلّث الطبقات . أمّا الزوبعة النائمة فكانت تخبط زجاج النوافذ وتغمر قارعة الطريق .

وعلى خبب الحصانين ، انحدرت العربة الكبيرة برشاقة ، إلى الشاطىء ، حاذت خط المراكب الكبيرة ذات الصواري والعوارض والحبال المرفوعة ، بحزن ، في سماء ممطرة ، والتي تشبه الأشجار المعرّاة ، ثم التزمت طول جادّة جبل ريبوديه .

سريعاً ، اجتازوا الحقول ، وبين وقت وآخر ، كانت ترتسم ، برصانة ، من خلال الضباب ، صفصافة غارقة بأغصان متدلية وجثّة متراخية . حدوات الخيل تبقبق ، والأربعة الدواليب ترسم شموساً من وحل .

صامتين ، كانوا . بدت الأرواح نفسها وكأنها ، كما الأرض ، مبلّلة . راحت الأم تسند رأسها ، كلّما مالت ، وتغمض عينيها . بينما البارون يلاحظ ، بنظرة كئيبة ، الريف الرتيب والمبلّل . وروزالي ، واضعة حزمة على ركبتيها ، تحلم بأوهام جماعة غيضة الحور البلهاء . لكنّ جانّ ، تحت هذا المطر الفاتر ، أحسّت نفسها تعيش ، من جديد ، كما نبتة توضع في الهواء بعد تضييق عليها . وكثافة فرحها تحمي قلبها من الحزن ، كما أوراق شجرة . ومع كونها لم تتحدّث ، كان بودّها لو تغنّي ، لو تمدّ يدها خارجاً لتملأها بالماء وتشرب . سرّت كثيراً لكونها ، محمولة على خبب الخيل ، ترى كآبة المناظر ، وتشعر بنفسها في مأمن وسط هذه الغبطة .

وتحت المطر العنيف ، أرداف الحصانين اللامعة ، تصعّد

بخار مياه تفور .

شيئاً فشيئاً ، قدت البارونة . ست خصلات متناسقة من شعرها المتدلّي ، تحيط وجهها الذي التوى رويداً . وجهها هذا ، باسترخاء تسنده ، من عنقها ، موجات كبيرات ثلاث ، آخر تموّجاتها تصيع في صدرها الواسع . رأسها يعلو مع كلّ تنفّس ، ثم يهبط . خدّاها منتفخان ، بينما من بين شفاهها المنفرجة نوعاً ، يتصاعد غطيط رنّان . انحنى زوجها باتجاهها ، ووضع بتمهّل متأنٍّ ، في يديها المستريحتين على وساعة بطنها ، محفظة صغيرة جلديّة .

أيقظتها اللمسة . وتطلّعت إلى هذه المحفظة ، بنظرة عميقة توحي بغباوة النوم المتقطّع . وقعت المحفظة وانفتحت . تناثر المال في العربة . أفاقت كليًّا ، وفَرِحُ جانّ تناثر ضحكات متلاحقات .

لمّ البارون المال ، ووضعه على ركبتيها قائلاً : « هذا ، يا عزيزتي ، كلّ ما تبقّى من مزرعتي في إليتوت . بعتها لأرمّم غيضة الحور حيث سنسكن أكثر الأحيان ، منذ الآن » .

عدّت ستّة آلاف وأربعمائة فرنك ، وبهدوء ، وضعتها في جيبها .

هذه ، كانت ، المزرعة التاسعة ، تباع لهذا الغرض ، من إحدى وثلاثين تركها لهما الأهل . غير أنّهما يملكان أيضاً ، عشرين ألف ليرة من دخل أرض ، لو اعتُني بها جيّداً ، لأعطت ، بسهولة ، ثلاثين ألفاً في السنة .

هذا الدخل كان يمكن أن يكفي ، بما أنهما يعيشان ببساطة ،

لو لم يكن في البيت ، هذا الثقب البلا قرار ، المفتوح دائماً : الطيبة . ينضب المال في أيديهما ، كما تبخّر الشمس مياه المستنقعات . يسيل المال . يهرب . يختفي . كيف ؟ لا أحد يدري . كلّ آن ، واحد منهما يقول : « لا أعرف كيف حصل هذا ، أنفقت ، اليوم ، مئة فرنك ، دون أن أشتري شيئاً مهمّاً » .

في الأخير ، كانت هذه السهولة في العطاء ، واحداً من أهمّ أسباب سعادتهما . يتفقان ، كانا ، على هذه النقطة ، بطريقة رائعة ومؤثرة .

سألت جانّ : « هل قصري جميل الآن ؟ »

فرحاً ، أجاب البارون : « سترين ، بنيّتي » .

وشيئاً فشيئاً ، هدأ عنف زخّات المطر . ثم لم تلبث أن تحوّلت سحابة خفيفة . غبار مطر بسيط متطاير . عقد الغيوم الكثيفة بدأ يرتفع ، وتبيضّ قبة الفلك . وفجأة ، ومن ثقب لا يُرى ، حطّ شعاع شمس منحرف ، على الحقول .

بعدما تناثرت الغيوم ، بدت خلفيّة السماء الزرقاء . ثم اتسعت فتحة الغيوم كما لو أنّ حجاباً يتمزّق . ولفّت العالم سماء عميقة الزرقة الصافية .

وكما نهدة سعيدة للأرض ، مرّ نسيم طريّ وناعم . وكانوا يسمعون ، مرات ، حين يحاذون البساتين والغابات ، أغنية عصفور ، رشيقة ، يكون يجفّف ريشاته .

أتى المساء . كلّهم ، الآن ، ناموا في العربة ، إلّا جانّ . مرتين توقفوا في فنادق ، ليستريح الحصانان ويأكلا بعض الشوفان

ويشربا .

الشمس غابت ، وأجراس ، في البعيد ، تدقّ . أشعلوا قناديل الليل في قرية صغيرة ، وبجمهرةِ نجوم ، أضاءت السّماء . بين مكان وآخر ، ظهرت بيوت مضاءة ، قاطعة الظلمات بنقطة نار . وفجأة ، وراء إحدى الجهات ؛ من خلال أغصان الصنوبر ، انبثق القمر ، أحمر ، عجيباً ، وكما مخدّر من نوم .

الجو ، لطيفاً كان ، حتى انهم تركوا الزجاج مفتوحاً . جانّ ، مترعة بالأحلام ، مشبعة بالرؤى السّعيدة ، ارتاحت . مرات ، خَدَرُ وضعٍ طال ، كان يجعلها تفتح عينيها ، تنظر خارجاً ، ترى في الليلة المنيرة ، مرور أشجار مزرعة ، أو بعض بقرات نائمة ، هنا أو هناك ، في حقل ، رافعة رأسها . ثم تركّز جسدها في وضع جديد ، تحاول أن تلمّ حلماً تناثر ، لكن دوران العربة المستمرّ ، كان يملأ أذنيها ، يُنهك فكرها ، فتغمض عينيها ، شاعرة أنّ الروح منهكة كما الجسد .

ووصلوا . رجال ونساء وقفوا أمام الأبواب حاملين الفوانيس . قفزت جانّ بسرعة ، بعدما استيقظت فجأة . الوالد وروزالي ، حملا البارونة المنهكة كليًّا ، المتأوّهة من ضيق ، والمردِّدة باستمرار وبصوت خافت خافق : « آه ! يا إلهي ! يا أولادي المساكين ! » لم ترد أن تشرب شيئاً ، ولا أن تأكل شيئاً ، نامت ، ثمّ نام كلّ شيء .

جانّ والبارون تعشّيا وجهاً لوجه .

كانا يبتسمان وينظر واحدهما إلى الآخر ، يأخذ واحدهما يد

الآخر عبر الطاولة . ومأخوذين بفرحة طفوليّة ، راحا يتفقدان القُصَير الريفي المرمّم .

كان واحداً من تلك المنازل النورماندية العالية والكبيرة ، المتضمنة المزرعة والقصر ، المبنيّة بحجارة بيضاء ، رماديّة صارت ، ورحبة لتأوي ذريّة .

بهو هائل يفصل البيت إلى قسمين ، ويجتازهما من جانب إلى آخر ، فاتحاً الأبواب الواسعة على الجانبين . كما يبدو درج مزدوج ، وكأنه يحاذي هذا المدخل ، تاركاً الوسط فارغاً ، جامعاً ، إلى الطابق الأوّل ، طلعتيه ، على شاكلة جسر .

إلى اليمين ، في الطابق الأرضي ، ندخل الدار الكبيرة ، المفروشة سجّاداً مزخرفاً برسوم أغصان الشجر حيث يتنزّه عصافير . الأثاث كلّه ، من نُجود موشّاة بنقط صغيرة ، لم تكن إلاّ رسوماً لحكايات لافونتين جعلت جانّ تأخذها رعشة لذّة حين وجدت كرسيّاً كانت تُحبّه وهي ، بعد ، طفلة ، وكان يُمثّل قصة الثعلب واللقلاق .

إلى جانب الدار ، مكتبة ملأى كتباً قديمة ، وغرفتان غير مستعملتين . إلى اليسار ، غرفة الطعام بخشب جديد ، غرفة الغسيل وغرفة المونة والمطبخ مع شقة صغيرة فيها مغطس .

كان يقسم الطابق الأوّل ، طولاً ، ممشى . والعشرة الأبواب للغرف العشر ، كانت تصطفّ على هذا الممرّ . إلى اليمين ، في العمق ، شقة جانّ . يدخلان ، كان البارون جدّدها ، مستعملاً ، ببساطة ، طنافس وأثاثاً كان غير مستعمل وموضوعاً في المخازن .

نسيج مزخرف من أصل فلندريّ ، وعتيق ، بقي في هذا المكان من أشخاص متفرّدي الذوق .

حين تنتبه الصبيّة لسريرها ، تصرخ فرحاً . في الأربع الزوايا ، عصافير أربعة كبيرة ، سوداء ولامعة ، تحمل المضجع كأنها تحرسه . ويظهر ، على الجوانب ، شريطا زينة عريضين منقوشين زهوراً وثماراً ، وأعمدة أربعة مضلّعة ، بذوق ، تنتهي بتيجان كورنثيّة ، وتحمل إفريزاً مرسومة عليه زهور وأوضاع حبّ .

كان ، هذا السرير ، ينتصب بفخامة ، رشيقاً ، بالرغم من قسوة الخشب الذي اسمرّ على الأيام .

غطاء السرير وبساط سمائه المرسومين ، لامعين كانا كسماءين صافيتين . كانا من حرير قديم بأزرق غامق ، تزيّنهما زنابق كبيرة مطرّزة بالذهب .

جانّ ، مأخوذة بالعجب ، أضاءت وتفحّصت الزخارف لتفهم موضوعها .

سيّد شاب وصَبيّة بالأخضر والأحمر والأصفر ، على الطريقة الأغرب ، يتحدّثان تحت شجرة زرقاء فيها ثمار بيضاء تنضج . وأرنب صغير ، باللون نفسه ، يرعى بعض العشب الرمادي .

فوق الأشخاص ، تماماً ، نلمح في البعيد خمسة بيوت صغيرة مدوّرة ، ذات سطوح مسنّنة ، وفوق ، في السماء ، تقريباً ، طاحونة هواء ، حمراء كلّها .

تلفّ كل هذه ، شجيرات كبيرة ، بينها صور زهور .

اللوحتان الأخريان تشبهان ، كثيراً ، الأولى ، إلا بأنّنا نرى

يخرج ، من البيوت ، رجال صغار بسطاء مرتدين على الطريقة الفلندريَّة ، ورافعين الأذرع نحو السَّماء ، علامة تعجُّب وغضب شديدين .

لكن البساط الأخير ، كان يمثّل مأساة . فحدّ الأرانب ، وهو يرعى دائماً ، يتمدّد الشاب كأنه ميت . والصبية ، ناظرة إليه ، تطعن صدرها بسيف . أما الثمار فبدت سوداء .

أنكرت جانّ الفهم ، حين اكتشفت ، في زاوية ، حيواناً صغيراً جداً ، لو أن الأرنب بقي حياً ، لكان أكله ، كما لو أنه القليل من العشب . ومع هذا ، كان أسداً .

هكذا ، تعرّفت تعاسات بيرام وتيسبيه . ومهما تبسّمت لسذاجة الرسوم ، أحسّت بنفسها سعيدة ، لكونها سجينة مع مغامرة الحبّ هذه ، وهي تتحدّث ، باستمرار ، إلى ذاتها ، عن الآمال الحبيبة ، وتجعل يحلّق ، كلّ ليلة فوق رقادها ، هذا الحنان القديم والأسطوريّ .

كان الباقي من الأثاث ، يوحّد الأنماط الأكثر تنوّعاً . هي من مخلّفات الأجيال المتعاقبة على هذا البيت ، انها تجعل منه ومن مثيلاته البيوت القديمة ، أنواعاً من المتاحف ، حيث يتمازج كلّ شيء . صُوان من طراز لويس الرابع عشر ، بديع ، مدرّع بنحاس لامع ، يحيط به مقعدان مريحان من طراز لويس الخامس عشر ، ما يزالان بحريرهما ذي باقات الزهور . مكتب من خشب الورد ، يقابل المدفأة التي تقدّم ، بشكل كرة مستديرة ، ساعة من طراز الامبراطوريّة .

خليَّة هي ، برونزيَّة ،معلَّقة بأعمدة أربعة مرمريّة ، فوق مرج زهور ذهبيّة . يخرج من الخليّة ، بواسطة ثقب مستطيل ، رقّاص نحيف يتنزّه ، أبديّاً ، في هذا المرج ، كنحلة صغيرة ، أجنحتها زخارف مرصَّعة .

ميناء هذه الساعة موشّى بزخارف ، ومحاط بحضن الخليّة .

دقت الحادية عشرة . قبّل البارون ابنته وانسحب .

حينها ، وبأسف ، نامت جانّ .

وبنظرة أخيرة ، أجالت عينيها في أرجاء غرفتها ، ثم أطفأت شمعتها . لكنّ السرير ، ورأسه فقط ألى الحائط ، كانت له نافذة إلى شماله ، منها تدخل دفقة ضوء من القمر ترسم على الأرض بركة ضوء .

تنعكس على الحيطان ظلال باهتة مدغدغة ، بوهن ، غراميّات بيرام وتيسبيه الجامدة .

من النافذة الأخرى المواجهة لقدميها ، كانت جانّ ترى شجرة كبيرة تسبح في ضياء ناعم . استدارت على جنبها ، أغمضت عينيها ، وفي لحظات ، عادت ففتحتهما . كان ارتجاج العجلة يتتابع في رأسها . جمدت فترة لعلها ترتاح فتنام ؛ لكنّ قلق روحها تفجّر في كلّ جسدها .

كانت تعاني من تشنّجات في ساقيها ، وترتفع حرارتها . قامت حينها ، حافية ، عارية الذراعين ، بغلالتها الطويلة تكاد تجعل منها شبحاً ، فاجتازت بحيرة الضوء المنتشرة في أرض الغرفة ، وفتحت نافذتها وراحت تنظر .

الليلة صافية ، كانت ، تستطيع ان ترى كما لو في النهار . وراحت تتعرّف كلٍّ هذه المنطقة الأحبّتها وهي طفلة .

يقابلها ، أوّلاً ، منبسط معشب فسيح أصفر،كأنه زبدة تحت الضوء الليليّ . شجرتان عملاقتان تنتصبان أمام القصر ، دلبة إلى الشمال ، إلى اليمين زيزفونة .

في آخر هذا المنبسط ، غيضة صغيرة تنهي هذا المكان المحروس من أعاصير عرض البحر ، بصفوف خمسة من دردار عتيق ، ملوّي ، مقروض ، مشذّب في انحدار، كما سقف في هواء البحر الغاضب باستمرار .

هذا النوع من المنتزه ، محاط ، يميناً وشمالاً ، بجادّتين طويلتين من شجر الحور اللايقاس ، تفصلان مقرّ اسياد المزرعتين المجاورتين ، آل كويّار من هنا ، ومن هناك آل مارتان .

هذا الحور ، كان أعطى اسمه للقصر . يمتدّ ، خارج الأسوار ، سهل فسيح غير مستصلح ، مليء شوكاً ، حيث النسيم يصفر ويقفز نهاراً وليلاً . ثم، فجأة يتحوّل الشاطىء إلى شاطىء صخريّ من مئة متر ، أبيض مستقيم ، غاسلاً أقدامه بالأمواج .

كانت جانّ ترى في البعيد ، المسافة المتموّجة كأنها تنام تحت النجوم .

في هذه الهدأة ، والشمس غائبة ، تنتشر كلّ روائح الأرض ، الياسمين الطالع حول النوافذ ينثر ، باستمرار ، نفسه العميق ، وهو يمتزج برائحة الأوراق المتولّدة جديداً . تمرّ زخّات متمهّلة حاملة طعم الهواء المالح وعَرَق نباتات البحر اللزج .

استسلمت الصبيّة ، أوّل الأمر ، لسعادة الاستنشاق ؛ راحة الريف ، هدّأتها كبعد استحمام منعش .

الحيوانات كلّها تستيقظ ، حين يأتي المساء ، وتخفي وجودها المعتّم ، في سكون الليالي ، تملأ النصف ظلمات تحرّكاً صامتاً . عصافير كبيرة صامتة تهرب في الهواء كبُقع ، كظلال . هينمات الحشرات غير المرئية تخدش الأذن . سباقات خرساء تجتاز العشب المملوء ندى ، أو تراب الطرقات المقفرة .

فقط بعض ضفادع تعيسة ترسل ، الى القمر ، نغمها القصير والرتيب .

كان يبدو لجانّ انّ قلبها يتّسع ، مليئاً بالوشوشات كهذه الليلة الصافية ، حافلاً ، فجأة ، بألف لذّة شبيهة بهذه الحيوانات الليلية التي غمغمتها تحيط بها . أحسّت ان تجاذباً يوحّدها مع هذا الجو الشعريّ الحيّ . وكانت تشعر ، في استرخاء بياض هذه الليلة ، بتدفّق وارتعاشات سحريّة ، بارتعاش آمال لامتناهية ، شيء كما هبوب السّعادة .

وراحت تحلم بالحبّ .

الحبّ : يملأها ، كان ، منذ سنتين وهي تتلهّف ، بتزايد ، اليه . هي ، الآن ، حرة في أن تحبّ . ليس عليها ، بعده إلاّ ان تلتقي به ، هو !

كيف سيكون ؟ لا تعرف بالتمام ، ولم تكن ، حتى ، لتتساءل سيكون هو . هذا كل شيء .

كانت تعرف ، فقط ، انها ستعبده بكلّ روحها ، وأنه

سيحبّها بكلّ قوّته . سوف يتنزّهان في مثل هذه الأمنيات ، في الضوء الرماديّ المتهادي من النجوم . سوف يذهبان يداً بيدٍ ، غامرَين بعضهما البعض ، مستمعين إلى نبضات قلبيهما ، شاعرين بحرارة كتفيهما ، مازجين حبّهما بصفاء ليالي الصيف العذب ، متّحدين إلى حدّ ان يلجا هانئين ، بقدرة حنانهما ، إلى أعماق أفكارهما الخفيّة .

وهذا يتتابع إلى ما لانهاية ، بصفاء عاطفتهما ،اللاّ إلى زوال .

وفجأة ، تراءى لها انها تشعر به هنا ، قدّامها . تعتريها موجة اختلاج حسيّة ، من أخمص قدميها إلى رأسها . شدّت يديها على صدرها ، بحركة لا واعية ، كما لو لتضمّ حلمها . وعلى شفتها الممتدّة صوب المجهول ، مرّ شيء جعلها تخور ، كما لو ان نفس الربيع لثمها قبلة حبّ .

ولا تدري كيف ، هناك ، خلف القصر ، في الطريق ، سمعت وقع أقدام في الليل . وفي انطلاقة روحها المذهولة ، في نقلة إلى الايمان بالمستحيل ، بصدف القدر ، بالحدس الالهي ، بتنظيم الحظّ الوهميّ ، فكّرت : « وإذا كان هو ؟ » وصارت تستمع ، بلهفة قلقة ، إلى وقع اقدام السّاري ، متيقّنة ، كانت ، من أنه سيتوقف عند السّور ليطلب مأوى .

وحين تجاوز المكان ، أحسّت نفسها حزينة ، خابت . لكنها فهمت هَوَس أملها ، وتبسّمت لبلاهتها .

جعلت ذهنها يهيم ، بعدما هدأت نوعاً ، بأحلام أكثر تعقُّلاً ، باحثة لاختراق المستقبل ، مركّزة عليه .

ستعيش معه ، هنا ، في هذا القصر الهادىء المسيطر على

البحر . سيكون لها ، بلا شك ، ولدان : صبي له ، ولها ابنة . وابتدأت تراهما راكضين على العشب بين الدلبة والزيزفونة ، بينما هي وزوجها يراقبانهما ، قريري العين ، متبادلي النظرات الملأى بالهيام .

ظلت طويلاً ، تحلم ، طويلاً ، بينما راح القمر يتدبّر أمر مغيبه في البحر ، بعدما أنهى رحلته في السماء . صار الهواء منعشاً أكثر . وصوب الشرق ، شحب الافق . صاح ديك في المزرعة الإلى اليمين . جاوب آخر من المزرعة الإلى الشمال . بدت أصواتها المبحوحة آتية من بعيد ، عبر فاصل الخُمّ ، وابتدأت النجوم تختفي في قبّة السماء الواسعة اذ ابيضّت رويداً رويداً .

استيقظت ، في مكان ، صرخة عصفور صغيرة ، زقزقات ، خجولة أوّل الأمر ، خرجت من الأوراق . تتجرّأ ، تصبح مترجرجة ، سعيدة ، تتنقل من غصن إلى غصن ، ومن شجرة إلى شجرة .

أحسّت ، جانّ ، نفسها في صفاء . أغمضت عينيها ، مبهورةً بانبلاج الفجر ، بعد أن رفعت رأسها الكانت خبّأته في يديها .

وكان جبل من الغيوم الأرجوانيّة ، مختبئة ، بقسمها الأكبر ، وراء ممر الحور الكبير ، يُرسل بوارق ، بلون الدم ، إلى الأرض المستيقظة .

وقليلاً قليلاً انشقّت سحابات ساطعة ، مخترقة الأشجار بلون

النار ، وهكذا السهول والمحيط وكل الأفق ، وبدت الكرة الهائلة مشعّة بالضوء .

وشعرت جانّ أنها ، مجنونة بالسعادة ،صارت . وغرق قلبها الخائر في فرحة جنونية ، وعطفٍ لامتناهٍ أمام رونق الأشياء . كانت شمسها ! فجرها ! بدء حياتها ! تفجُّر آمالها ! مدّت يديها نحو المسافة المشعّة ، وبها رغبة أن تقبِّل الشمس . كانت تريد أن تتكلم ، أن تصرخ بكلام إلهي مثل تفتُّق هذا النهار . لكنها بقيت مشلولة في حماس عاجز . حينها ، وضعت جبينها في يديها ، أحسَّت عينيها مليئتين دموعاً ، وبلذّة ، بكت .

حين رفعت رأسها ، كانت الزينة المدهشة ، للنهار الجديد ، زالت . شعرت أنها ساكنة ، مرهقة قليلاً ، كأنها بردانة . وبدون أن تغلق شبّاكها ، ذهبت إلى سريرها ، وتمدّدت . حلمت بضع دقائق ثم غفت عميقاً ، حتى انها ، في الثامنة ، لم تسمع أبداً نداءات والدها ؛ استيقظت ، فقط ، حين دخل غرفتها .

كان يريد أن يريها تحسينات القصر ، قصرها .

الواجهة المشرفة على داخل الأراضي ، تفصلها عن الطريق ساحة واسعة مزروعة تفّاحاً . الطريق القروي الراكض بين أراضي الفلاحين المسوَّرة ، يصل ، على مسافة نصف فرسخ ، طريق هافر إلى فيكام الكبيرة .

من حدود الغابة حتى درج المدخل ، يمتدّ ممرّ مستقيم . وعلى جانبي الساحة ، على طول حُفَر المزرعتين ، بيوت متشابهة ، من حصى البحر ، سقوفها من قصب .

الأغطية كانت مجدَّدة . منجور الخشب مرمَّم . الحيطان مصلّحة . الغرف مفروشة من جديد . كلّ الداخل مطليّ ثانية . والقُصَير الريفيّ الكان صورة مكدَّرة ، كما بُقع ، مصاريعه مدهونة حديثاً ، هو الآن ، بأبيض فضيّ ، وجصِّه مجدّد فوق واجهته الرمادية الكبيرة .

الواجهة الأخرى ، فيها ينفتح شبّاك لجانّ ، تشارف البحر من بعيد ، من فوق الغيضة وسور الدردار .

جانّ والبارون زارا كل مطرح دون أن يتركا ولو زاوية . ثم تنزّها ، علىٰ مهل ، في ممّرات الحور الطويلة ، وكانت تضم ما يسمّونه المنتزه . كان العشب بدأ ينمو تحت الأشجار ، فارشاً سجّادته الخضراء . في الطرف ، كانت الغيضة ، لطيفة ، تختلط دروبها الملتوية ، المفصولة بفواصل من الأوراق . أرنب برّي ظهر ، فجأة ، أخاف الفتاة ، ثم قفز فوق المنحدر وأسرع بين الأسلات البحرية إلى الشاطىء الصخري .

بعد الغداء ، قرّرت السيدة أدلائيد أن ترتاح ، إذ ما تزال منهكة . فاقترح البارون أن ينزل ، مع جانّ ، إلى إيبور .

ذهبا قاطعين ، أولاً ، كَفْر إتوفان ، حيث غيضة الحور . حيّاهما ثلاثة مزارعين كما لو كانوا يعرفونهما من زمان بعيد .

دخلا الغابة المنحدرة المؤدية إلى البحر ، تابعَين وادياً ملتوياً .

وسرعان ما ظهرت قرية إيبور : نساء جالسات على عتبة

مساكنهن ، نظرن إليهما يمرّان ، وهنّ يرتقن ربط الكلاب . فاحت رائحة الملاّحات من الشارع المنحني وفي وسطه ساقية وكومة رجال مسنّين يتسكّعون أمام الأبواب . الشباك السُّمر حيث بقايا حراشف لامعة تشبه قطع نقود صغيرة ، متروكة لتجف أمام أبواب أكواخ قذرة تعبق منها روائح عائلات متعدّدة تزخر بها غرفة واحدة .

بعض حَمَامات تتنزّه على حدود الساقية ، مفتّشة عن قوتها .

كانت جانّ ترى كل هذا ، ويبدو لها عجيباً وجديداً كما ديكور مسرح .

والتفتت ، فلاحظت البحر بزرقة كثيفة ومالسة ، ممتدًا إلى ما بعد النظر . توقّفا ، بمواجهة الشاطىء ، لينظرا . كانت تمرّ ، في العرض ، أشرعة بيضاء كأجنحة عصافير . ويمتدّ ، إلى اليمين والشمال معاً ، الشاطىء الصخري الهائل . من جهة ، شكل رأس يحجب النظر ، بينما ، في الجهة الأخرى ، يتواصل الشاطىء لانهائيًّا حتى لا يعود إلاّ خطًّا لا يدرك .

كان يبدو مرفأ وبيوت من خلال واحدة من الفجوات القريبة ، وكذلك بعض موجات صغيرات، ترسم في البحر حدًّا من الزبد غامضاً ، تتقلّب على الحصى محدثة ضجة خفيفة .

مراكب القطر ، مشدودات بالحبال إلى منحدر ذي حصى مدوّر ، تستريح على الجانب ، مادّة خدودها المطلية بالزفت إلى الشمس . وبعض الصيّادين يتحضّرون لحركة المدّ والجزر ليلاً .

تقدّم بحّار لبيع السمك ، فاشترت جانّ سمكة كبيرة تأخذها معها إلى غيضة الحور .

عرض الرجل خدماته لنزهات في البحر ، مردِّداً اسمه بلا انقطاع ليُحْفَظ جيّداً : « لستيك ، جوزِفان لستيك . »

وعد البارون بأنه لن ينساه .

استعادا طريق القصر .

وبما أن السمكة الكبيرة أتعبت جانّ ، مرّرت ، في خياشيمها ، عصاة والدها ، وأخذ كلٌّ منهما بطرف منها . وعادا ، فرحَين ، صاعدَين من الشاطىء ، متحدّثين كما ولدان ، الجبين للهواء والعيون مشرقة ، في حين كانت السمكة تتراخى شيئاً فشيئاً ، وتكنس العشب بذنبها الضخم .

II

صارت ، لجانّ ، حياة لطيفة وحرّة . تقرأ ، تحلم ، تشرد ، وحيدة ، في الجوار . تهيم على وجهها بطيئة ، في الطرقات ، والأحلام تدغدغها ؛ أو تنزل ، وَثْباً ، الوديان الملتوية ، ذات الجانبين الحاملين زهور شوك ، كغطاء ذهبي . تُثملها رائحتها القوية والطيبة ، المثارة من حرارة ، كأنها خمر مطيَّب ؛ وتهدهد روحها تموّجات بعيدة لموج يترامى على الشاطىء .

أحياناً ، يعتريها خدر ، فتستلقي على عشب منحدر كثيف . وأحياناً ، يجيش في قلبها فرح عارم كبير ، كما حين اقتراب عجيب لسعادات محوّمة عليها . تكون رأت ، من عطفة الوادي ، من مكان كثيف العشب الأخضر ، زاوية من بحر أزرق متلألىء في الشمس ، وفيه شراع عند الأفق .

صار يجتاحها حب الوحدة ، في حلاوة هذا القفر المنعشة ، وفي سكينة الآفاق المدوَّرة . ولطالما راحت تجلس على قمة التلال ، فتمرّ صغار أرانب وحشيّة قافزة عند قدميها .

وكثيراً ما كانت تركض على الشاطىء الصخري ، ملفوحة بهوائه الخفيف، مرتعشة من لذة شهيّة للتحرّك ، ولا تعب ؛ كما ،

في المياه ، السمك ، أو كما ، في الهواء ، السنونوات .

وراحت تزرع ذكريات ، حيثما كان ، كما نرمي البذار في الأرض . هذه الذكريات الجذورها ترسخ حتى الموت . يبدو لها أنها إنّما تنثر شيئاً من قلبها ، في ثنايا هذه الوديان الصغيرة .

تكرج بلهفة ، إلى البحر ، لتستحمّ . تسبح حتى زيغان البصر ، إذ أنها قويّة ونشطة وغير واعية للخطر . تشعر براحة في هذه المياه البـاردة ، الصافيـة والزرقـاء ، والتي تحملها وهي تمرجحها . تصير بعيدة عن الشاطىء ؟ يا للفرح . ها هي تترك نفسها على ظهرها ، ذراعاها مشبوكتان على صدرها ، عيناها ضائعتان في زرقة السماء العميقة اليخترقها ، بسرعة ، طيران سنونوة ، أو شبح أبيض لطير بحر . تعود لا تسمع إلا وشوشة للموج ، بعيدة ، لحصاة ملساء ، أو ضوضاء ، للأرض ، مبهَمة ، تزلق مع حركات الأمواج ، لكن غير واضحة ، تكاد لا تسمع . ثم تنهض ، جانّ ، وبفرح مجنون ، تصرخ عالياً ، وتخبط المياه بيديها .

وحين ، مرات ، تغامر وتبتعد أكثر ، يلحق بها زورق ليُرجعها .

تعود إلى القصر ، شاحبة من جوع ، إنما خفيفة ، رشيقة ، بسمة على شفتيها ، وفي ملء عينيها سعادة .

من جهته ، كان البارون يفكر بمشاريع زراعية كبيرة . أراد يختبر تجارب ، ينظّم النموّ ، يجرّب معدّات جديدة ،يؤ قلم أجناساً غريبة . وكان إلى ذلك ، يمضي قسماً من أيامه ، في المحادثة مع

المزارعين : يهزّون رؤوسهم شاكّين بمحاولاته .

وكثيراً ما كان يذهب إلى البحر مع بحّاري إيبور . وحين تتسنى له زيارة المغاور والينابيع وقمم الأماكن القريبة منها ، كان يريد يصطاد السمك كبحري بسيط .

أيّام النسيم ، يمتلىء الشراع بالهواء ، فيجعل مقدمة المركب الممتلىء الوجه ، تركض على الأمواج . وحين ، على جانبي المركب ، تغيب ، حتى عمق البحر ، صنّارة كبيرة تلاحق حشد الطراخور[1] الفوضوي ، يحمل بيده المرتجفة قَلَقاً ، قصبة الصنّارة فنسمعها ترتجّ حين تؤخذ سمكة فتحاول الافلات .

كان يذهب ، على ضوء القمر ، لينتشل الشباك التي وُضعت في العشية . يحب سماع اصطفاق السارية ، وتنفُّس هبّات هواء الليل المنعشة . وبعد أن يسير ، طويلاً ، بعكس الريح ، ليجد الطوّافات ، بالاستناد إلى رأس صخرة ، أو إلى طرف قبة ، أو إلى منارة فيكام ، كان يُسرّ بأن يبقى ثابتاً ، معرّضاً لأشعة الشمس الأولى اللامعة على جسد القارب اللزج ظهره ، لخطوط عريضة مروحيّة الشكل ، والبطنه كبير لكثرة سمك التِّرس [2] فيه .

كان يخبر ، بحماسة ، نزهاته هذه ، على كل غداء . وبدورها ، الأم ، تقول له كم من مرة اجتازت ممرّ الحور الطويل ، العلى اليمين ، بمواجهة مزرعة آل كويّار ، لأن الممر الآخر لا تصل إليه الشمس بشكل كاف .

---

(١) (٢) نوع من السمك .

وبما أنها نُصِحَت بالحركة ، تمسَّكت بالمشي . كانت تنزل مستندة إلى ذراع روزالي ، فور تبدُّد رطوبة الليل ، ملتفَّة بعباءة وبشالين صوفيين ، ورأسها غارق بغطاء أسود ؛ وفوقها ، بعد ، كنزة حمراء .

كانت تعيد ، بغير ما نهاية ، نزهة لامتناهية في خط مستقيم ، من زاوية القصر إلى أوائل شجيرات الغيضة . تجرّ رجلها اليمنى ، وهي الأثقل إلى حدٍّ،والكانت رسمت ، على طول الممر ، خطّين من غبار حيث العشب ميت : خط في المجيء ، والآخر في العودة . وكانت أمرت بوضع مقعد خشبي عند كل نهاية في هذه الحلبة . وبعد كل دقائق خمس ، تتوقّف قائلة للخادمة المسكينة الصبورة ، وهي تتوكأ عليها : « لنجلس ، يا ابنتي ، إني متعبة قليلاً . »

ومع كل توقُّف ، تترك ، على واحد من المقاعد ، مرة كنزة كانت تغطي رأسها ، مرة شالاً ، ثم الشال الآخر ، ثم غطاء الرأس ، وأخيراً العباءة . كلُّ هذا يشكِّل ، في طرفي الممرّ ، حزمتين كبيرتين من ثياب ، تحملهما روزالي بيدها الحرة حين العودة إلى الغداء .

وبعد الظهر ، تعيد البارونة إنما بمظهر متثاقل ، نزهتها ، وتتخلّلها -الآن- فترات استراحة أطول ، النوم حتى الساعة بين وقتٍ وآخر ، على كرسي طويلة يجرّونها إلى الخارج .

اعتبرت التمرين ، كما ترفُّخ القلب ، جزءاً من جسدها .

منذ عشر سنوات ، إذ كانت تعاني من ضيق نفَس ،

استشارت طبيباً قال انه ترفُّخ في القلب . من حينها ، ترسَّخت هذه الكلمة في رأسها ، وهي لا تفقه لها معنى . صارت تلحّ على البارون ، وعلى جانّ كما على روزالي ، بأن يجسّوا قلبها ، وما استطاعوا . كان مدفوناً تحت انتفاخ صدرها . لكنها كانت ترفض ، بقوة ، أن تستشير طبيباً آخر ، خوفاً من اكتشاف أمراض أخرى كثيراً ما كان يتراءى لها ، أنّ هذا هو داء خاص بها ، وحدها ، تمتلكه كما لو أنه شيء نادر ، ليس ، للآخرين ، أيُّ حقٍّ فيه .

كان البارون يقول : « ترفُّخ قلب امرأتي » وجانّ : « ترفُّخ قلب أمي » ، كما لو كانا يقولان : « الثوب ، القبّعة ، أو الشمسيّة » .

جميلة ، كانت ، في صباها ، وأكثر نحافة من قصبة . وبعد أن تهادت على أذرع كل العسكريين ، في رقصات الڤالس ، قرأت « كورين » لمدام دي شتال وأبكتها ؛ ثم صارت مدموغة بهذه الرواية .

بمقدار ما راحت قامتها تسمن ، راحت روحها تنطلق في أجواء الشعر . وحينما البدانة سمّرتها في كرسيّها ، راح فكرها يشرد عبر مغامرات حنونة تحسب نفسها بطلتها . وكان لها ما تفضله من هذه . تعود إلى أحلامها ، كما لو هي آلة موسيقى ، فور وضعها في العمل ، ترسل ، إلى ما لانهاية ، النغم ذاته . كلّ الأغاني العاطفية المنحطّة ، الفيها كلام عن أسيرات وسنونوات ، كانت تبلّل ، بلا شك ، عينيها . وكانت تحبُّ بعض أغنيات فاحشة ، حتى ، لبيرنجيه ، بسبب كآبات تعبِّر عنها .

تسرح في أحلامها وحيدة ، لا تتحرّك ، لساعات . وسكناها غيضة الحور ، يسرُّها كثيراً ، لأنها تعير منها ديكوراً لروايات ذهنها ، تذكّرها ، من حيث غابات الجوار ، أو الصحراء القاحلة ، أو من حيث جيرة البحر ، بكتب « والترسكوت » التي تقرأها منذ شهور .

أيام المطر، تبقى في غرفتها«تفلفش»« بقاياهاالثمينة». هي كل رسائلها القديمة ، رسائل أبيها وأمها ، رسائل البارون حين كانت خطيبته ، ورسائل أخرى .

كانت أقفلت عليها في مكتب من خشب الأكاجو ، في زواياه تماثيل نحاسية . وكانت تقول بنبرة خاصة : « روزالي ، يا ابنتي ، هاتي لي دُرج الذكريات » .

تفتح الخادمة الخزانة ، تتناول الدُّرج ، تضعه على كرسي إلى جانب سيِّدتها . وتأخذ هذه في قراءتها ، بتمهُّل ، واحدة واحدة ، هذه الرسائل ، تاركة دمعة ، بين وقتٍ وآخر ، تنزل عليها .

كانت جانّ تحلّ أحياناً مكان روزالي ، وتأخذ أمها في نزهة . فتخبرها أمها ذكريات طفوليّة ، تجد فيها ، الابنة ، ذاتها ، وتعجب لتقارب أفكارهما ، لقربى رغباتهما ، لأنَّ كلَّ قلب يتصوَّر ، هكذا ، أنّه اختلج قبل أيّ قلبٍ سواه ، بمثل هذه الأحاسيس التي خالجت أولى المخلوقات ، وتبقى تخالج أيضاً آخر الرجال وآخر النساء .

مشيتهما المتمهّلة تتبع تمهّل الحكاية التي يقطعها ، أحياناً ، لبضع ثوان ، ضيق النفَس . آنذاك ، يَنطلق فكر جانّ ، طافراً من فوق المغامرات البادئة ، صوب المستقبل المسكون بالفرح ، دائراً في الآمال .

وبعد ظهر ذات يوم ، إذ كانتا تستريحان على مقعد ، لاحظتا ، فجأة ، في طرف الممرّ ، كاهناً بديناً يتقدّم نحوهما .

حيّى من بعيد ، ارتدى بسمة ، ومن جديد ، حيّى حين صار على خطوات ثلاث وهتف : « وبعد ، يا سيّدتي البارونة كيف حالنا ؟ » كان هذا خوري القُطر .

لم تكن الأم تتخلف إلى الكنيسة ، مع أنها تحبّ الكهنة بفطرة التديُّن النسائية . ذلك لأنها ، وهي المولودة في عصر الفلاسفة ، ربيت ، أيام الثورة ، على والد كاد لا يكون مؤمناً .

كانت نسيت تماماً الكاهن بيكو ، واحمرّت حين رأته . اعتذرت لكونها لم تكن تتوقّع مجيئه . لكنّ الرجل الطيّب لم يبدُ عليه الانزعاج . نظر إلى جانّ وامتدحها لإشراقة وجهها . جلس ، وضع قبّعته الثلاثية القرون على ركبتيه ، ومسح جبينه . كان ضخماً ، شديد الاحمرار ، ويعرق بغزارة . يُخرج من جيبه ، كان ، كلّ لحظة ، محرمة عجيبة الكِبَر ، مقطّعة ، مشبعَة بالعرق ، ويمرّرها على وجهه وعنقه . إنما ، بالكاد تكون المحرمة الرطبة غاصت في أعماق ثوبه السوداء ، حتى تكون نقاط جديدة نزّت من جلده ، ووقعت على عباءته المنتفخة البطن ، وحدّدت ، ببقع صغيرة مدوّرة ، غبار الطرقات المتطاير .

كان فرحاً ، كاهناً قروياً حقيقياً ، متسامحاً ، ثرثاراً ، ورجلاً طيِّباً . أخبر قصصاً ، تكلّم على أبناء القطر . لم يكن يبدو انه متنبّه إلى كون بِنْتَي رعيّته هاتين ، لم تذهبا ، بعد ، لممارسة واجباتهما الدينية : البارونة ، رابطة لامبالاتها بإيمانها المضطرب ، وجانّ

سعيدة جدًّا ، لكونها تحرّرت من الدير حيث كانت متخمةبالاحتفالات التقيّة .

يظهر البارون . إيمانه بالحلوليّة كان يجعله لامباليًا تجاه الشرائع . رأى الكاهن . عرفه لطيفاً ، فدعاه إلى العشاء .

عرف الكاهن كيف يجتذبهم ، بفضل هذه الوسيلة ، غير الواعية يهبها تدبير النفوس ، لأغبى الرجال يدعوهم قدر الأحداث لممارسة السُّلطان على أمثالهم .

جاملته البارونة ، إذ ربما اجتذبها ، بواحدة من هذه الانجذابات الجامعة للطبائع المتشابهة ، وبوجهه الدمويّ ، وبالنَفس القصير الذي لرجل ضخم فرح تجاه بدانته المدهشة .

وقريباً من وقت التحلية ، أصابته قريحة الخورى، السكران ، هذا النوع من التهامل العائليّ في نهايات الموائد السعيدة .

فجأة ، كما لو أن فكرة سعيدة عنّت له ، هتف : « ولكن . . . عندي ابن رعيّة جديد يجب أن أعرّفه بكم ، السيّد الڤيكونت دي لامار ! » .

سألت البارونة ، وكانت تعرف جيداً كل شعائر النبالة في المقاطعة : « من سلالة دي لامار من أور ؟ » .

انحنى الكاهن . أجاب : « نعم ، سيّدتي ، هو ابن الڤيكونت جان دي لامار المتوفى في العام المنصرم » . حينها، سألت السيّدة أدلائيد حزمة أسئلة ، وكانت تحب ، فوق أيّ شيء ، طبقة الأشراف ؛ وعرفت أنّ ديون الأب سُدّدت ، وأنّ الرجل الشابّ ، بعد بيعه قصر العائلة ، ثبّت أقدامه في واحدة من مزارع أبيه الثلاث

يمتلكها في بلدة إيتوڤان . كانت أملاكه تغلّ له ، فقط ، من خمس إلى ست آلاف ليرة . لكنّ الڤيكونت ، صاحب مزاج مقتصد وحكيم وكان يحسب أن يعيش ببساطة ، خلال سنتين أو ثلاث ، في هذا الجناح المتواضع ، ليتسنى له جمع ما به يُثبِت لنفسه قيمة ومقاماً بين الناس ، فيتزوّج زواجاً باذخاً بدون اقتراض أو رهن لمزارعه .

أضاف الخوري : « شاب لطيف جداً ، ومنظّم ، وهادىء . لكنه لا يلهو أبداً ، في القُطر » .

أجاب البارون : « تِ به إلينا ، سيّدي الكاهن . هذا يمكن أن يرفّه عنه بين وقت وآخر » .

ثم تحدّثوا في أمور أخرى .

بعد ارتشاف القهوة ، انتقلوا إلى قاعة الاستقبال ، فطلب الكاهن أن يتجوّل في الحديقة ، لأنّه اعتاد على شيء من التمارين بعد وجبات طعامه . رافقه البارون ، متمهّلين ، تنزّها ، على امتداد واجهة القصر البيضاء ، ثم عادا أدراجهما . ظلّاهما ، الواحد ضعيف ، الآخر مدوّر ومعتمر قُطراً ، يروحان ويجيئان ، مرة أمامهما ، وخلفهما مرة ، حسب سيرهما صوب القمر أو تاركينه خلف ظهرهما . كان الكاهن يمضغ سيكارة أخذها من جيبه . شرح فائدتها بصراحة رجال الريف : « هي لتسهيل المعدة ، لأنني أعاني من عسر الهضم » .

وبعد أن رفع نظره إلى السماء ، حيث يتنقّل الكوكب المضيء ، قال : « لن نضجر أبداً من هذا المنظر » .

ثمّ دخل ليستأذن السيّدتين ، وينصرف .

III

يوم الأحد التالي ، ذهبت البارونة وجانّ إلى القداس ، مدفوعتين بشعور رهيف من الاحترام تجاه الخوري .

انتظرتاه بعد الذبيحة لتدعواه إلى الغداء ، الخميس . خرج من السكرستيّا مع شاب طويل أنيق ، أخذ بيده في دالّة . سُرّ كثيراً ، للمفاجأة ، حين رأى المرأتين ، وهتف : « يا للصدفة ! اسمحا لي ، سيّدتي البارونة ، وآنستي جانّ ، بأن أقدّم لكما جاركما السيّد الڤيكونت دي لامار » .

انحنى الڤيكونت ، وأظهر شوقه القديم لأن يتعرّف إليهما ، وراح يتحدّث كما يليق برجل . كان يمتاز بواحد من هذه الوجوه التي تحلم بها النساء ، ويعتبرها الرجال فظّة كريهة . يظلّل جبينه الناعم المسْمَرّ ، شَعر أسود مجعّد . حاجباه الكبيران المتناسقان ، كما لو كانا اصطناعيينّ ، جعلا عينيه ، اليمازج بياضهما قليل من الزرقة ، عميقتين حنونتين .

هدباه المتراصّان والطويلان ، عمّقا أناقةً لهفى ، في نظرته ، تُبَلبِل السيّدة الجميلة المتعالية في الصالونات ، وتجعل للفتاة حاملة السلّة في الشوارع ، تلتفت إليه .

عذوبة متدفّقة في نظرته ، تجعله يبدو عميق الفكر ، ذا أهمية لأقل كلمة يقولها .

لحية كثيفة ، برّاقة ودقيقة ، تخفي فكًّا صلباً .

وبعد مجاملات ، افترقوا .

بعد يومين ، قام السيّد دي لامار بزيارته الأولى .

كانوا يجرّبون مقعداً بسيطاً ، وُضع ، صباح اليوم ذاته ، تحت الدلبة الكبيرة تجاه نوافذ البهو ، حين وصل . كان يريد البارون وضع مقعد آخر ، ليوازي بينهما ، تحت الزيزفونة . لكن الأم لم توافق . هي معادية للتناسق . حين استشير الڤيكونت ، كان من رأي البارونة .

ثم تحدّث عن القُطر ورآه مثيراً للاعجاب . كان اكتشف ، عبر نزهات له متوحّدة ، مواقع مدهشة . وكما مصادفة ، راحت عيناه تلتقيان ، بين لحظة وأخرى ، عيني جانّ . وكانت هي تحسّ شعوراً خاصاً ، هذه النظرة المباغتة الفيها إعجاب مدغدغ وتعاطف حذر .

السيّد دي لامار الأب ، المتوفى السنة الماضية ، عرف ، كان ، صديقاً حميماً لوالد البارونة ، السيّد دي كولتو . اكتشاف هذه المعرفة ، ولّد محادثات زواج ، وتاريخ ، وقرابات لامتناهية . وراحت البارونة تستحثّ ذاكرتها ، مستعيدة قرابة الأسلاف والأعقاب للعائلات الباقية ، دائرةً ، دون أن تضيع ، أبداً ، في متاهة الأنساب المتشابكة .

قل لي ، فيكونت ، هل سمعت بسونوي دي ڤارفلور ؟ ابنه

البكر ، غونتران ، كان تزوّج فتاة من كورسيل ، هي كورسيل - كورڤيل ، أمّا الابن الأصغر ، فواحدة من قريباتي ، الآنسة دي لاروش - أوبير ، الكانت نسيبة آل كريزانج ، علماً أن السيّد كريزانج ، كان صديق والدي الحميم وقد يكون عرف والدك أيضاً .

- نعم ، سيّدتي . أليس هو كريزانج الذي هاجر وانهار ابنه ؟ .

- هو نفسه . كان تقدم للزواج من خالتي ، بعد موت زوجها ، الكونت إرتْري . رفضته . كان يستنشق سعوطاً ، هل تعلم ، بالمناسبة ، ماذا حلّ بآل ڤيلواز ؟ تركوا تورين حوالي ١٨١٣ بعد تعثّر ماليّ ، ليستقروا في أوڤرن ، وما عدت سمعت عنهم شيئاً .

- أظنّ ، سيّدتي ، أنّ المركيز المتقدّم ، بالسنّ ، مات من جرّاء سقطة عن الحصان ، تاركاً ابنة متزوّجة من انكليزيّ ، وأخرى من أحد آل باسول ، تاجر ، وكان ، قال ، أغواها .

وعادت إلى الذاكرة أسماء من الطفولة ، من محادثات الأقرباء الكبار السّنّ . كانوا يعتبرون الزواج ، في هذه العائلات المتساوية ، بأهمية الأحداث الشعبية الكبرى . يتحدّثون ، كانـوا ، عن أشخاص لم يروهم قطّ ، كما لو انهم يعرفونهم جيّداً . وهؤلاء الأشخاص ، في غير بقعة ، يتكلمون على أولئك بالطريقة ذاتها ؛ هكذا كانوا يشعرون بأنهم عُشراء عن بُعد ، أصدقاء تقريباً ، وحلفاء ، فقط لانتمائهم للطبقة الاجتماعية نفسها ، ولكونهم من

دمٍ متساوٍ.

أمّا البارون ، وهو ذو طبع متوحّد وتربية لا تتوافق أبداً ، مع اعتقادات أهل زمنه وأفكارهم المسبقة ، فكان لا يعرف أحداً من العائلات ، في الجوار ، لذلك سأل الڤيكونت .

أجاب السيد دي لامار : « ليس ، في القضاء ، نبلاء كثيرون » بلهجة ، هي ذاتها ، كما لو يقول لا أرانب كثيرة في هذه الجهات ، وتوسَّع في التفاصيل : ثلاث عائلات فقط ، موجودة في دائرة متقاربة : المركيز دي كوتوليه ، نوع من زعيم الارستقراطية النورماندية . الفيكونت دي بريزڤيل والڤيكونتيسّة ، أشخاص من سلالة ممتازة ، إنما يبقون منعزلين . أخيراً الكونت دي فورڤيل ، نوع من غول يحاول أن تموت امرأته حزناً ، يحيا حياة صيّاد في قصره في ڤريّات ، المبنيّ فوق مستنقع .

لم يكن الڤيكونت يعرف الطارئين الذين اختلطوا بهم ، وهم اشتروا أملاكاً واسعة هنا وهناك .

انصرف . نظرته الأخيرة لجانّ ، كانت ، كما لو أراد أن يودّعها بشكل خاصّ ، أكثر حرارة وألطف .

وجدته البارونة لطيفاً ، وكما يجب أن يكون .

أجاب البارون : « نعم ، بالتأكيد ، هو شاب ذو تربية صالحة » .

دعوه إلى العشاء ، الأسبوع اللاحق . وصار يأتي بانتظام .

غالباً ما كان يصل حوالي الرابعة بعد الظهر ، يلحق بالأم في « ممرِّها » ، ويعطيها ذراعه لتقوم بـ « تمرينها » . وتمسك جانّ

بالبارونة ، من الجهة الأخرى ، ويمشون ، ببطء ، من طرف إلى آخر ، في الطريق الطويل المستقيم ، بلا انقطاع . لم يكن يحدّث ، مطلقاً ، الفتاة . لكن عينه ، وكأنها من مخمل أسود ، كثيراً ما تلتقي بعين جانّ وكأنها عقيق أزرق .

نزلا ، مع البارون ، مراراً ، إلى إيبور .

اقترب منهم ، ذات مساء على الشاطىء ، لستيك ، وبدون أن يترك غليونه الغيابه يثير العجب ، ربما أكثر من اختفاء أنفه ، قال : « بهذا الهواء ، حضرة البارون ، يمكننا الذهاب ، غداً ، إلى إتْرتا ، والعودة ، دون تعب » .

قالت جانّ ، بعدما ضمّت يديها : « آه يا أبي ، تريد ؟ » استدار البارون نحو السيّد دي لامار قال :

ـ « هل تكون معنا ؟ نذهب نتغدّى هناك » .

وبسرعة ، اتّفقوا .

فجراً ، نهضت جانّ . انتظرت والدها وهو أبطأ منها في ارتداء ملابسه . ابتدآ يمشيان في الندى ، مجتازين ، أوّلاً ، السّهل ، ثم الغابة المترنمة بغناء العصافير . الڤيكونت ولستيك البحّار ، كانا جالسين على رافعة رحوية [1] .

بحّاران آخران ساعدا في الانطلاق . وضع الرجال أكتافهم ، جنباً إلى جنب ، وشدّوا بكلّ قواهم . بصعوبة تقدّموا

---

(١) أداة آلية بشكل بكرة عمودية ضخمة تشدّ بها الأثقال وتكون في السفن والمرافىء

على الرصيف . مرر لستيك ، تحت الصالك [1] ، دواليب خشبيّة طُليت شحماً ، ثمّ استعاد مكانه ، وعدّل ، بصوت مجلجل : « أوي . . . هوب ! » غير المتناهية ، هي تنسق المجهود المشترك .

حين وصل الزورق إلى المنحدر ، هبط بسرعة على الحصى المدوّرة بضجّة كبيرة تشبه التي لثوب تمزّق . توقف على زبد موجات صغيرات ، وأخذ كلّ مكانه . البحاران الباقيان على الأرض ، دفعاه صوب الموج .

كانت نسمات صباحيّات ، منعشة ومستمرّة ، تأتي من عرض البحر ، تلامس سطح المياه وتغضّنها . رُفع الشراع ، تكوّر قليلاً ، وتهادى الزورق مطمئناً ، يكاد لا يؤرجحه البحر .

ابتعدوا . في الأفق تمتزج السماء بالمحيط . وصوب الأرض كانت صخور الشاطىء المرتفعة ، تؤلّف نوعاً من ظلٍّ كبير ، على أقدامه ، وبعض مساحاتٍ كثيفة العشبِ الأخضر ، المتلألئة ، في الشمس ، تجعل ، فيه ، فجوات كبيرة . هناك ، في الخلف ، كانت أشرعة سمراء تخرج من رصيف فيكان الأبيض ، وتبدو في الأمام ، صخرة ذات شكل غريب ، دائرية ومثقوبة ، وكأنها ، تكاد تكون فيلاً ضخماً مغرّقاً خرطومه في الأمواج . إنها بوّابة إتريتات الصغيرة .

راحت جانّ ، تنظر إلى البعيد ، طرف ثوبها بيدها ، وضائعة ، نوعاً ، لتأرجح الزورق . تراءى لها أنّ أشياء ثلاثة

---

(١) عارضة رئيسة تمتد على طول قعر المركب .

فقط ، في الوجود هي ، فعلاً ، جميلة : النور والمسافة والماء .

لا أحد يتكلم . لستيك ، وبيده قضيب الدفّة وحبل الشراع ، كان ، من وقت لآخر ، يشرب جرعة من قنينة مخبّأة تحت مقعده . يدخّن ، ولا انقطاع ، غليونه اليبدو لا يرتوي . كان يخرج منه ، باستمرار ، خيط رفيع من دخان أزرق ، في حين أن خيطاً مشابهاً ، يخرج من فمه . ولم يشاهد البحار ، مرة ، يعيد إشعال محرق التبغ ، في غليونه ، هو الأكثر سواداً من الآبنوس ، مرات ، كان يأخذه في يده ، يرفعه عن شفتيه ، ويبصق في البحر ، تماماً من حيث كان الدخان يخرج ، دفعة طويلة من رضاب أسمر .

أخذ البارون مكان الرجل ، في المقدمة ، وراح يراقب الشراع . جانّ والڤيكونت وجدا أنفسهما متلاصقين ، وإلى حدٍّ مختلجين . قوة مجهولة جعلت عيونهما تلتقي كما لو أنّ جاذباً خفيّاً يدفعها لذلك ، إذ انّ حناناً لطيفاً وغامضاً ، هذا اليتولّد بين شابين جميلين ، راح يتموّج بينهما شعرا بأنفسهما سعيدين : واحدهما حدّ الآخر ، ربما لأن الواحد منهما ، يفكّر بمثل ما يفكّر به الآخر .

راحت الشمس تصعّد ، كما لو تريد أن تراقب ، من عل ، البحر الواسع الممتد تحتها . وكمن بها شيء من دلال ، غلّت في ضبابة رقيقة لا تستطيع أن تحجب أشعّتها . كان هذا ، ضباباً شفّافاً ، واطئاً ، ذهبيّاً ، لا يحجب شيئاً ، لكنه يجمّل المساحات البعيدة . كان الكوكب ينثر أنواره . تذيب هذه السحابة اللامعة . وحين اكتملت قوّته ، تبخّر الضباب ، اختفى . والبحر ، مالساً ، كما صفحة مرآة ، راح يلمع في النور .

جانّ المدهوشة ، همست : « كم هذا جميل ! » أجاب القيكونت : « نعم ، إنه لمنظر جميل » . صفاء هذا الصباح المشرق ، راح يتفتّق كما الصدى في قلبيهما .

وفجأة ، أطلّت قناطر إتريتات الكبيرة ، شبيهة بساقي الشاطىء الصخري السائر في البحر ، عالية ، تستطيع أن تكون عقد جسد للمراكب ، بينما قمة صخرة بيضاء ومسنّنة كانت تقوم في الأمام .

وصلوا،وإذ كان البارون وهو نزل الأوّل ، يجر الزورق إلى الشاطىء بحبل ، أخذ القيكونت جانّ بذراعيه لينزلها إلى الأرض دون أن تتبلّل قدماها . ثم صعدا رجمة الحصى المالسة والصعبة ، جنباً إلى جنب ، مأخوذين بهذا التوافق السَّريع ، وسمعا لستيك يقول للبارون : « يمكنهما أن يكونا زوجين سعيدَين » .

كان غداء لطيفاً ، في فندق صغير على الشاطىء . المحيط الخافت الصوت ، جعلهم صامتين . المائدة ، جعلتهم ثرثارين كما تلاميذ في عطلة .

يفرحون ، كانوا ، فرحاً لا محدوداً ، حتى من أبسط الأشياء .

حين جلسوا إلى المائدة ؛ أخفى لستيك غليونه الكان ما يزال يدخّن ، بعناية ، في البيريه ، فضحكوا . ذبابة ، جذبها ، بدون شك ، أنفهُ الأحمر ، تحوّم وتغطّ مرات متتابعة عليه . وحين طردها ببطء شديد ، محاولاً التقاطها ، راحت فحطت على ستار موسّلين ، لطّخته أخوات لها كثيرات . بدت ترصد ، بشراهة ، أنف البحّار

اللامع ، لأنها حاولت ، من جديد ، العودة لتحطّ عليه .

في كل رحلة للذبابة ، كان يتفجّر ضحك مجنون . ولما ضاق الختيار ذرعاً بهذه المداعبة ، هَمْهَمَ : « إنها وقحةُ العناد » ، ضحك جانّ والڤيكونت ، حتى الدموع ، وكانا يضعان الفوطة على الفم لئلّا يصرخا .

قالت جانّ ، بعد أن شربوا القهوة : « لو نذهب في نزهة » . نهض القيكونت ، أمّا البارون ففضّل حماماً شمسيّاً : « اذهبا أنتما ، يا ولديّ ، تجدانني هنا ، خلال ساعة » .

اجتازا ، في خطّ مستقيم ، البضعة أكواخ القشّ ، وبعد أن تجاوزا قصراً صغيراً يشبه مزرعة كبيرة ، وجدا نفسيهما في وادٍ يمتد أمامهما .

كانت أتعبتهما حركة البحر ، أخلّت باتّزانهما ؛ والهواء القويّ الملوحة ، جعلهما يجوعان ؛ ثم إنّ الغداء أزعجهما ، والفرح أهاج أعصابهما . لذلك ، شعرا ، الآن ، برغبة مجنونة للركض ، على غير هدى ، في الحقول . سمعت ، جانّ ، أذنيها تدندنان ، وهي مقلقلة بأحاسيس جديدة وسريعة .

شمس حارقة تهبط عليهما . من على جانب الطريق ، المحاصيل الناضجة تنحني ، مطوية بفعل الحرّ . الجنادب تئزّ ، كثيرةً ، كما ذرارات العشب ، ناثرة صراخها الضعيف المصِمّ ، أينما كان ، في القمح ، في الشيلم ، في أسلات الشاطىء البحرية .

ولا صوت كان يتصاعد تحت السّماء المحرقة ، بأزرق لامع ومصغّر ، كما لو كان ، فجأة ، سيحمر ، كما المعادن القريبة جدّاً

من نار الجمر .

لما اكتشفا غابة صغيرة ، أبعد قليلاً ، إلى اليمين ، توجّها إليها .

وبين منحدرين ، كان يمتدّ ممّران ، تحت أشجار كبيرة لا تخترقها الشّمس . نوع من الرطوبة العفنة سيطر عليهما ، وهما يدخلان ، هذه الرطوبة اليرتعد لها الجلد وتخترق الرئتين . كان العشب اختفى ، بسبب الشمس والهواء الطلق ، لكن الطحلب يغطي الأرض .

وهما يتقدمان ، قالت : « هه ، يمكننا هناك أن نجلس قليلاً » . كانت هناك شجرتان يابستان ، ومستفيدة من ثقب في الاخضرار ، زخّة من النور كانت تحطّ هنا ، تدفىء الأرض ، أيقظت نباتات صغيرة خضراء ، من هندباء بريّة ونباتات معربشة ، وجعلت بعض زهور بيضاء صغيرة تتفتّح ، رقيقة كما الضباب ، وقمعيّات [1] شبيهة بالأسهم الناريّة . تسكن هذه البئر المشعّة والحارّة ، المثقوبة في الظل البارد لأغصان كثيفة الأوراق ، فراشات ، ونحل ، وزنابير قصيرة سمينة ، وبعوض لا يُعدّ يشبه مومياءات ذباب ، وألف نوع لحشرات طائرة ، ودعسوقات [2] زهريّة مبقّعة ، وحيوانات جهنّميّة ذات بريق مخضّر ، وأخرى سوداء بقرون .

---

(١) جنس من الزهور .

(٢) نوع من الحشرات الصغيرة .

جلسا ، الرأس في الظل ، والقدمان في الشمس . كانا يتأمّلان كلّ هذه الحياة الزاخرة والصغيرة ، وشعاع بسيط يظهرها . ردّدت جانّ متأثرة : « يا للراحة ! ما أجمل الريف ! ثمة لحظات أتمنّى فيها ان أكون ذبابة أو فراشة لأختفي في الأزهار » .

تحدّثا عن نفسيهما . عن عاداتهما . أذواقهما . بلهجة خفيفة ، حنونة ، هي لهجة البوح . أعلنا قرفهما من العالم ، وتعبهما من الحياة الباطلة . دائماً الأمور نفسها . لا شيء حقيقياً ، ولا شيء صادقاً .

العالم ! كانت أرادت ، فعلا ، معرفته . لكنها كانت مقتنعة ، مسبقاً ، انّه لا يوازي الريف .

وكلّما تقرّب قلباهما ، كانا يتناديان بفخامة : « سيّد وآنسة » ، وبالقدر ذاته أيضاً نظراتهما تتبسّم ، تمتزج . تراءى لهما ان طيبة جديدة تدخلهما ، انّ تعاطفاً أكثر اتساعاً يلفّهما ، انّ اهتماماً بألف أمر لم يكونا تنبّها اليه ، يوحّد بينهما .

عادا . لكنّ البارون كان ذهب إلى « غرفة الآنسات » ، وهي مغارة معلّقة في ذروة شاطىء صخري . انتظراه في الفندق .

لم يظهر إلاّ في الخامسة مساء ، بعد نزهة طويلة على الشواطىء .

ومن جديد إلى الزورق . تهادى بهدوء ، الهواء من ورائه ، بدون أدنى تمرجح ، بدون أن يبدو عليه انه يتقدّم . كان النسيم يصل نفحات متمهّلة وفاترة تنفخ الشراع هنيهة ، ثم تتركه واهياً ، على امتداد السارية . يبدو الموج الكثيف ميتاً . والشمس النافذة

الحدّة ، متابعة طريقها المدوّر ، تقترب على مهل .

استرخاء البحر ، من جديد ، جعل الجميع يصمتون .

قالت جانّ أخيراً : « كم أحبُّ السَّفر ! » .

أكمل الفيكونت : « أجل ، لكنه حزين ان يسافر الانسان وحده ، أقله اثنان لتبادل الانطباعات » .

فكّرت : « هذا صحيح . . . مع ذلك ، أحبُّ التنزُّه وحدي . . . نشعر براحة حين نحلم لوحدنا . . . » .

نظر اليها طويلاً : « نستطيع ان نحلم أيضاً حين نكون اثنين » .

أحنت نظرها : علامة، هذه ؟ ربما اعتبرت الأفق لاكتشاف الأبعدِ . ثمّ ، بصوت متمهّل : « اتمنّى الذهاب إلى إيطاليا . . . وإلى اليونان . . . آه أجل ، اليونان . . . وإلى جزيرة كورسيكا ! يجب أن تكون متفرِّدة وجميلة ! » .

هو ، كان يفضّل سويسرا لشاليهاتها وبحيراتها .

قالت : « لا ، أحبُّ البلدان الجديدة كليّاً ، كما جزيرة كورسيكا ، أو البلدان القديمة والملأى ذكرياتٍ ، كما اليونان . جميل ان نستعيد آثار الشعوب التي نعرف تاريخها منذ طفولتنا ،أن نرى الأماكن حيث جرت الأمور الكبيرة » .

الفيكونت ، أقلّ حماسةً ، أعلن : « انا ، تجذبني إنكلترا كثيراً . هي بلاد توسّع الاطّلاع » .

طافا، هكذا، العالم ، مناقشين متع كل بلد ، من القطبين إلى خطّ الاستواء ، منجذبين بمناظر خياليّة وعادات متوهمة لبعض

الشعوب ، كما الهنود ، مثلاً . وتوصّلا إلى أنّ أجمل بلد في العالم ، هو فرنسا ، بمناخها المعتدل ، المنعش صيفاً ، اللطيف شتاءً ، بأريافها الغنيّة ، بغاباتها الخضراء ، بأنهارها الكبيرة الهادئة ، وبعظمة فنونها الجميلة غير الموجودة ولا في ايّ مكان ، منذ عصور أثينا الكبيرة .

ثم صمتا .

بدت الشمس تنزّ ، وصارت أدنى . نثار نوراني عريض ، كطريق مشعّ ، على المياه ، من حدود المحيط حتى محور الزورق .

سقطت آخر نفحات الهواء . تسطّحت كلّ ثنيّة . احمّر الشراع الجامد . هدوء لا محدود يبدو يبتلع المساحة ، يجعل الصمت يلفّ لقاء العناصر ، بينما ينتظر البحر ، وهو الخطيبة الهائلة ، وصول حبيبه النّاريّ الهابط اليه . كان يستعجل هبوطها ، محمرّة كما من لذة إلى المعانقة . ضمّها اليه ، وشيئاً فشيئاً ، ابتلعها .

حينها ، تهادت ، من الأفق برودة ؛ ارتعاشة غضّنت صدر البحر ، كما لو انّ الكوكب الذي التهم ،رمى على العالم نهدة السكينة .

مرّ الغروب سريعاً . الليلة مليئةً بالنجوم . تناول لستيك المجذافين ، فلاحظوا انّ البحر كان متألّقاً . راحت جانّ ، كما الڤيكونت ، ينظران ، جنباً إلى جنب ، يتأمّلان هذه الأضواء المتحرّكة الكان يخلّفها الزورق وراءه . لم يعودا يحلمان ، بغموض يتأمّلان ، مستنشقَين الظلام بهناء لذيذ ؛ وربما ان يداً ، لجانّ ، كانت متراخية على المقعد ، لامستها ، كما صدفة ، يد جارها . واذ

فوجئت ، سعيدة ، مرتبكة لهذه اللمسة الناعمة بهذا القدر ، لم تتحرّك

أحسّت نفسها ، بعد العودة ، مضطربة بغرابة ، ورقيقة إلى حدّ كبير ، يحرّكها حنين إلى البكاء . تطلعت إلى ساعة الحائط ، فحسبت انّ النحلة تنبض كما قلب ، كما قلب صديق ؛ تكون شاهدةً عليه طوال العمر ، تقاسمه أفراحه وأحزانه ، من خلال هذه التكتكة الحيّة والمنتظمة ، وأوقفت الذبابة المذهّبة لتطبع قبلة على جناحيها . كانت لتقبّل أيّ شيء . تذكّرت انها كانت أخفت لعبة قديمة في دُرج ، بحثت عنها ، أحيتها بفرح من تلاقي صديقات معبودات ، وضامّة إياها إلى صدرها ، أمطرتها قبلات حارّة ، على خدّيها الملوّنين وشعرها المجعّد .

ثم راحت تنظر إليها ، في يديها ، وتهدس .

أهو ، « هو » ، الزوج الموعود ، دفعه في طريقها قَدَر طيِّب ؟ أهو ، فعلاً ، الكائن الذي لأجلها خُلِقَ ، والذي إليه تهدي وجودها ؟ أكانا المرمودَين المحبّتهما تلاقت ، والعليهما التعانق والامتزاج اللا إلى انفكاك ، وإحداث الحبّ ؟ .

لم تعرف ، بعد ، الانطلاقات الصاخبة في كيانها كلّه ، ولا الارتعاشات المجنونة ، ولا الهيجان العميق ، ظنّتها ، جميعاً ، تكون الهوى . مع ذلك ، تراءى لها أنها بدأت تحبّه ، فهي تشعر بوهن القوى حين تفكّر به ، وكانت تفكّر بلا انقطاع . حضوره يثير قلبها . تحمرّ ويمتقع لونها حين ترى نظرته ، وترتعش حين سماع صوته .

تلك الليلة ، لم تعرف النوم كما من قبل .

ويوماً بعد يوم ، راحت لهفة الحب المثيرة ، تسكنها أكثر فأكثر . تتساءل دوماً ، تسأل كذلك الشقائق ، الغيوم ، قطع النقود المرمية في الهواء .

وذات مساء ، قال لها والدها : « تجمّلي غداً صباحاً . » سألت : « لماذا يا أبي ؟ » أجاب : « سرّ » .

وفي الغد ، حين نزلت ، نديانةً ، بزينة مشرقة ، رأت طاولة البهو مغطاة بعلب الملبّس ، وباقة زهور هائلة على كرسيّ .

مركبة دخلت الساحة . قُرىء عليها : « ليرا ، حلوانيّ في فيكام . ولائم أعراس » .وراحت لوديڤين ، يعاونها مساعد طبّاخ ، تسحب من باب قلّاب مفتوح وراء العربة ، أطباقاً كبيرة ، رائحتها طيّبة .

ظهرالڤيكونت دي لامار . بنطاله طويل ومحفوظ تحت جزمة صغيرة وظريفة تدلّ على صغر قدمه . سترته الطويلة المخصورة ، يطلع من تقويرة الصدر فيها ، تخريم صدرته . وربطة عنق ناعمة ، بدوائر متعدّدة ، تدفع به ليرفع رأسه الأسمر الجميل ، الموسوم بطابع مميّز كليًّا . كان على غير عادته ، يبدو ذا طابع خاص ، تطبع به الزينة الوجوه المعروفة جيّداً ، فتجمّلها . جانْ ، مشدوهة ، تنظر إليه كما لو لم تره بعد ، ولا مرة رأته في غاية الكياسة ، سيّداً عظيماً من رأسه حتى قدميه .

انحنى بابتسام : « هل أنتِ مستعدّة يا عرّابتي ؟ »

تلعثمت : « ماذا ؟ ماذا في الأمر ؟ »

-« ستعرفين بعد لحظة » قال البارون .

تقدّمت العربة المقطورة . نزلت السيدة أدلائيد من غرفتها ، بأبّهة عظيمة ، مستندة إلى ذراع روزالي البادية مشدوهة بأناقة السيّد دي لامار . فتمتمت السيّدة : « قل يا ڤيكونت ، أرى خادمتنا تجدك على مشتهاها . » احمرّ حتى الأذنين ، حاول أن يومي بأنه لم يسمع ، ومتناولاً باقة الزهور الكبيرة ، قدّمها لجانّ . قبلتها ، متعجّبة أكثر . وصعد الأربعة إلى المركبة . لوديڤين الطبّاخة ، الكانت حملت إلى البارونـة مياهـاً باردة لتغيثهـا ، أعلنت : « بالحقيقة ، سيِّدتي ، كأنها حفلة زواج » .

ترجّلوا حين دخولهم إيبور . وبمقدار ما راحوا يتقدّمون ، كان البحّارة يخرجون من بيوتهم بثيابهم الجديدة الواضحة ثناياها ، يحيّون ، يشدّون على يد البارون ، ويتبعونهم كما في تطواف .

كان الڤيكونت أعطى ذراعه لجانّ ومشى ملاصقاً لها .

توقفوا حين وصولهم أمام الكنيسة . وبدا الصليب الفضي الكبير ، كان يحمله ، باستقامة ، ولد من الجوقة يتقدّم صبيّاً آخر ، أحمر على أبيض ، يحمل جرن المياه المباركة حيث مرشة مستعدّة .

ثمّ مرّ ثلاثة مرتّلين مسنّين ، واحد منهم يعرج ، ثمّ نافخ السربان [1] ، ثم الخوري وعلى بطنه المروّس ، بطرشيل مذهّب شبك يديه فوقه . حيّى بابتسامة وانحناءة رأس ، ثم تبع رهطه متوجّهاً صوب البحر ، عيناه نصف مغمضتين ، شفتاه تتحرّكان

---

(١) آلة موسيقية كنسية (هوائية) .

بصلاة ، وقلنسوته غارقة حتى أنفه .

على الشاطىء ، كان جمهور ينتظر حول زورق جديد مزيّن بشريط ملوّن . ساريته ، شراعه ، حباله ، ملفوفة كلها بشريط طويل يتطاير في النسيم . ويبدو ، في الخلف ، بأحرف ذهبيّة اسمها : جانّ .

لستيك ، قائد هذا الزورق . المبنيّ لحساب البارون ، تقدّم من أمام الموكب . كلّ الرجال ، وبحركة واحدة ، نزعوا معاً ما يعتمرون . وركع ، في دائرة على شكل صليب ، صفّ من المتديّنات ، مغطيات الرؤوس تحت عباءات سوداءطويلة بثنيات كثيرة ، نازلة من الأكتاف .

تقدّم الخوري ، بين صبيًّ الجوقة ، إلى طرف من الزورق ، بينها ، في الطرف ، الآخر ، المرتّلون قذرو الثياب البيضاء ، غير حليقي الذقون ، عينهم على كتاب التراتيل ، ينشزون ، بفم ملآن ، في صفاء هذا الصباح .

كل مرة يرتاحون ، يكمل السربان ، وحده ، عجيجه ، فتختفي عينا النافخ الرماديتان الصغيرتان ، في انتفاخ خدّيه المليئين هواء . حتى إن جلد جبينه ، ذاته ، وكذلك جلد عنقه ، يبدو مفصولاً عن لحمه طالما هو ينفخ بجهد .

كان البحر ، الهادىء والشفّاف ، يبدو يحضر ، متجمّعاً على ذاته ، حفل عماد زورقه ، الكارج ، بتمهّل مدروس ، بضجة خفيفة ، لمشاط يحتك بالحصى المالس ، ولمويجات عالية كما الإصبع . والنورس الأبيض الكبير ، بجوانحه المنبسطة ، يمرّ خاطًا

أزياحاً منحنية في السماء الزرقاء ، يبتعد ، يعود بطيران دائري ، فوق الجماعة الراكعة ، كما لو كان يريد معرفة ما يفعلون هنا .

لكن الإنشاد انتهى بـ « آمين » مجلجلة لخمس دقائق . ونقَّ الكاهن ، بصوت أبحّ ، بعض كلمات لاتينية ، لم يميِّزوا منها سوى نهاياتها الطنّانة .

دار حول المركب يرشّه ماءً مباركاً ، ثم ابتدأ يتمتم صلاة ، وهو يلمّ حاشية ثوبه بمواجهة العرّاب والعرّابة البقيا جامدين ، واليد في اليد .

حافظ الشاب على هيئته الوقورة ، لكنّ الفتاة ، المخنوقة بانفعال مفاجىء ، الخائرة القوى ، بدأت ترتجف إلى حدّ أنَّ أسنانها أخذت تصطك . فالحلم الراوَدَها كثيراً ها هو ، بنوع من التخيُّل ، يتخذ مظاهر الواقع . كانوا يتحدّثون عن زواج ، وموجود كاهن يبارك ، ورجال بدروع كاهن يرتّلون صلوات ؛ ألم تكن هي التي تُزَفّ ؟

أحصلت في أصابعها صدمة عصبية ، أم وسواس قلبها ، اخترق عروقها ، ألى قلب جارها ؟ هل فهم ؟ هل حزر ؟ هل كان مثلها ، مسكوناً بنوع من سكرة الحب ؟ أم كان يعرف ، بالتجربة ، أنَّ أيّة امرأة لا تقاومه ؟ لاحظت ، فجأة بعد ذلك ، أنه ضغط على يدها ، بنعومة أولاً ، ثم أقوى ، أقوى بعد ، حتى ليكاد يحطّمها . وبدون أنْ تتغيّر هيئته ، وبدون أن يلاحظ أحد ، قال ، أكيداً قال ، بوضوح : « آهِ ، جانّ ، لو أردتِ لكان هذا حفل زواجنا » .

خفضت رأسها ، بحركة بطيئة جداً ، قد تعني ، ربما ، أن « نعم » . والكاهن ، الما يزال يرشّ المياه المباركة ، أرسل نقاطاً منها على أصابعهما .

وانتهى الاحتفال . نهضت النساء . العودة كانت متشتّتة . فَقَدَ الصليب ، في يدي ولد الجوقة ، هيبته : كان يتمايل بسرعة ، يميناً وشمالاً ، أو ينحني إلى الأمام ، يكاد يقع . أسرع الخوري ، في الخلف ، وهو لم يعدْ يصلّي . اختفى المرتّلون ونافخ السربان ، في شارع صغير كان شبه مقفر . البحّارة ، بجموعهم ، يتعجّلون . تدور في رؤ وسهم ، فكرة واحدة ، تشبه رائحة مطبخ ، جعلت الأرجل تمتدّ ، والأفواه يسيل لعابها ، نزلت حتى عمق البطون ، حيث جعلت الأمعاء تتحرّك تحرُّقاً .

كان ينتظرهم الغداء الطيِّب ، في غيضة الحور .

ممدودة ، كانت ، المائدة الطويلة ، في الساحة ، تحت شجرات التفّاح . جلس إليها ستّون شخصاً ؛ بحّارة وقرويّون . البارونة، في الوسط ، وعلى جانبيها الكاهنان : كاهن إيپور ، وكاهن غيضة الحور . يقابلها البارون ، وحدّه المختار وزوجته ، ريفيّة ضعيفة صارت مسنّة ، توزّع ، في كلّ اتّجاه ، تحيّات قصيرة كثيرة . كان لها وجه ضيِّق مشدود بقبّعة نورمانديّة كبيرة ، فعلاً رأس دجاجة بيضاء شبيهة بالهدهد ، ذات عين مدوّرة كليًّا ، ومتعجّبة دائماً . كانت تأكل ، بسرعة ، لقمات صغيرة ، كما لو هي تنقر صحنها بأنفها .

جانّ ، إلى جانب العرّاب ، تسبح في السعادة . لم تكن ترى

شيئاً ، لم تكن تعرف شيئاً ، صمتت ورأسها يدغدغه الفرح .

سألته : « ما هو اسمك الصغير؟ »

قال : « جوليان . لم تكوني تعرفينه ؟ »

لم تجب . فكّرت : « كم سأردّد هذا الاسم ! »

حين انتهى الغداء ، تركوا الساحة للبحّارة ، وانتقلوا إلى جهة القصر الأخرى . راحت البارونة تقوم بتمرينها ، مستندة إلى البارون ، مواكبة بكاهنيها . جانّ وجوليان ذهبا إلى الغيضة ، دخلا في طرقات ضيقة كثيفة . وفجأة ، أخذ يديها : « قولي ، تريدين أن تكوني زوجتي ؟ » .

خفضت رأسها أيضاً ، مرة بعد . ولأنه راح يهمس : « أرجوكِ ، أجيبي ! » ، رفعت عينيها إليه ، بعذوبة متناهية . وقرأ الجواب في نظرتها .

IV

ذات صباح ، دخل البارون غرفة جانّ ، قبل أن تنهض ، ثم ، وهو يجلس على حافة سريرها : « طلب الڤيكونت دي لامار يدك ».

أرادت تخفي وجهها تحت اللحاف .

تابع والدها : « أجّلنا جوابنا لما بعد » . كانت بُهرت ، يكاد يخنقها التأثر . وبعد لحظة ، تابع البارون ، وكان يبتسم : « لم نقرّر شيئاً بدون ان نتحدّث إليك . لم نواجه ، أمّك وأنا ، هذا الزواج . بدون أن نعرف رأيك . أنت أغنى منه بكثير ، لكن يجب ألاّ نهتمّ للمال ، حين يتعلّق الأمر بسعادة حياة . لم يبقَ له أيٌّ من أهله . فاذا اقترنت به ، سيكون ابناً يضاف إلى العائلة ، بينما ، إذا اقترنت بآخر ، تكونين انت ، يا ابنتي ، تذهبين إلى غرباء . يعجبنا الشاب ، فهل يعجبك . . . أنتِ ؟ ».

ومحمّرة خجلاً حتى اطراف شعرها ، تمتمت : « نعم يا أبي » .

نظر والدها في أعماق عينيها ، ومبتسماً دائماً ، همس : « كنت أشكّ قليلاً ، يا آنستي » .

ظلت ، إلى المساء ، كما المنتشية ، دون ان تكون تعرف ماذا تفعل ، آخذة حاجيات بدل أخرى ، ساقاها ضعيفتان من تعب ، بدون ان تكون مشت .

حوالي السادسة ، وصل الڤيكونت ، وكانت جالسة ، مع أمها ، تحت الدلبة .

بدأ قلب جانّ ينبض جنونيّاً . كان الشاب يتقدّم ولا يبدو عليه الارتباك ، حين وصل ، تناول أصابع البارونة وقبّلها . ثم ، وبكل شفتيه ، طبع قبلة طويلة حنونة ومقدِّرة ، على يدٍ مرتعشةٍ للفتاة .

وابتدأ فصل الخطوبة المشعّ . كانا يتحدثان ، وحدهما في زوايا البهو ،أو جالسين على المنحدر ، في عمق الغيضة.أمام الأرض البائرة المنفردة . أحياناً ، يتنزّهان في ممرّ الأم ، هو ، يحدّثها عن المستقبل ، وهي ، عيناها منخفضتان على أثر أقدام البارونة .

بعد ان تقرّر الأمر ، أرادوا يعجّلون . وتعينّ الاحتفال خلال أسابيع ستّة ، في الخامس عشر من آب . بعده يسافر العروسان ، مباشرة ، في رحلة الزواج . وحين سئلت جانّ ، أيّ بلد تريد أن تزور ، قرّرت : جزيرة كورسيكا حيث يمكن ان يكونا وحيدين أكثر مما في مدن ايطاليا . راحا ينتظران الموعد المحدّد لاتحادهما بغير نفاذ صبر ، إنما مغلّفين بحنان عذب ، متذوّقين السحر اللذيذ لمداعبات الأصابع المضغوطة ، والنظرات اللهفى الطويلة إلى حدّ تبدو الروحان تمتزجان ، ومضطربين للذة العناق الكبير المتردّدة .

قرّروا ان لا يدعوا أحداً إلى الزواج ، باستثناء ، الخالة

ليزون ، أخت البارونة ، كانت تعيش كما سيّدة داخليّة لدى دير في فرساي .

أردات البارونة الاحتفاظ بأختها ، بعد موت الوالد . لكن العانس ، مطاردة بفكرة أنها تزعج الجميع ، وأنها غير نافعة ، ومتعبة ، انسحبت إلى واحد من تلك البيوت الدينيّة ، حيث أناس حزانى ومنفيّون في الوجود ، يستأجرون شققاً صغيرة .

بين وقت وآخر ، كانت تمضي شهراً أو شهرين مع عائلتها .

هي امرأة صغيرة تتحدّث قليلاً ، تنمحي دائماً ، تظهر ، فقط ، في ساعات الطعام ، وتنسحب ، في ما بعد ، إلى غرفتها ، وتبقى مقفلة على ذاتها بلا انقطاع .

مظهرها كان طيّباً وشيخاً ، بالرغم من أنها ، فقط ، في الثانية والأربعين ، نظرتها حنونة وحزينة . لم تكن تحسب شيئاً في عائلتها . وهي صغيرة ، لم يكونوا يقبّلونها أبداً ، لكونها ليست جميلة ولا صاخبة ؛ تبقى هادئة وناعمة في الزوايا . من حينها بقيت مهملة ، مضحّى بها . وصبيّة ، لم يهتم بها أحد .

كانت أثاثاً حياً اعتدنا ان نراه كلّ يوم ، إنما لا نقلق عليه .

أختها ، بفعل العادة في البيت الوالدي ، كانت تعتبرها كما الشيء الناقص ، لا ضرورة له . عاملوها بدالّة مزعجة تخفي نوعاً من الطيبة المحقَّرة . كان اسمها ليز ، وتبدو منزعجة بهذا الاسم الأنيق والفتيّ . وحين تيقّنوا من انها لن تتزوّج ، من انها أكيداً لن تتزوّج ، حوّلوا اسمها إلى ليزون . ومنذ مولد جانّ ، صارت «الخالة ليزون» قريبة متواضعة ، نظيفة ، خجولة بشكل رهيب ، حتى

مع أختها وصهرها ، اليحبّانها ، إنّما بعطف غامض يخالطه حنان لا مبالٍ ، وشفقة لا واعية ، ورفق طبيعيّ .

كانت البارونة ، مرات ، لتحدّد أشياء بعيدة من صباها ، تقول : « حدث ذلك حين ركبت ليزون رأسها » . ولا يضيفون شيئاً على هذا . ويبقى الأمر ضبابيّاً .

ذات مساء ، وعمرها عشرون ، رمت بنفسها في الماء ، دون ان يعرفوا لماذا . لا شيء في حياتها ، لا شيء في عاداتها ، كان يمكن ان يضوّىء على هذا الجنون . انتشلوها من المياه ، نصف ميتة ، وأهلها ، رافعي أيدٍ ساخطة ، بدلاً من ان يبحثوا عن السبّب السرّي لهذه الفعلة ، اكتفوا بأن تحدّثوا عن « ركوبها رأسها » كما لو كانوا يتحدّثون عن حادثة الحصان كوكو ، الكان كسر ساقه قبل ذلك بقليل ، في أخدودٍ ، واضطّروا إلى قطعها .

من حينها ، اعتُبرت ليز ، بالأحرى ليزون ، انها روح ضعيفة تسلّل ، الاحتقار البسيط الكانت أوحته إلى أقربائها ، إلى قلب كلّ من كان يحيط بها . والصغيرة ، جانّ نفسها ، بحدْس الاطفال الطبيعي ،لم تكن تهتمّ بها ، لم تكن تصعد ، أبداً ، لتقبّلها في سريرها ، ولم تكن ، كذلك ، أبداً ، تدخل غرفتها . وحدها ، روزالي الخادمة ، الكانت تعتني بضروريّات هذه الغرفة ، كانت تعرف عنها أين تقيم .

حين تدخل العمّة ليزون غرفة الطعام ، وقت الغداء ، كانت « الصغيرة » تأتي ، لأنها تعوّدت ذلك ، تقدّم لها جبينها ؛ هذا كلّ شيء .

إذا أراد أحد التحدُّث اليها ، أرسلوا خادماً يطلبها ؛ وحين هي غير موجودة ، لا يهتمّون بها ، لا يفكّرون فيها ، لا يتبادر إلى ذهنهم أيّ قلق ، أو سؤال : « لم نرَ ليزون هذا الصباح ! أينها؟» .

لم تكن تُشغل مكاناً . كانت واحداً من هذه الكائنات التبقى غير معروفة حتى للأقرباء ، كما المجهولين ، والموتُهم لا يُحدث أيَّ فراغ في البيت . واحداً من هذه الكائنات الهي لا تعرف الدخول في الوجود ، ولا في العادات ، ولا في حبِّ مَن يحيون إلى جانبهم .

حين كانوا يتلفّظون باسم « الخالة ليزون » لم تكن هاتان الكلمتان لتثيرا أيّ تعلّق في ذهن أيّ إنسان . كما لو قالوا : « ركوة القهوة أو السكريّة » .

تمشي دوماً بخطى حثيثة وخرساء ؛ لا تحدث ضجّة مطلقاً ، لا تصطدم بشيء ، تشيع في الأشياء ميزة ان لا تُصْدِر أيّ صوت . تبدو يداها مصنوعتين بنوع من القطن المندوف ، طالما تمسّ بخفّة ولباقة ، كلّ ما تلمس .

وصلت في منتصف تموز ، مفاجأة بفكرة هذا الزواج . أتت بكثير من الهدايا . بقيت غير مرئيّة ، لأنها منها .

منذ صباح اليوم التالي لوصولها ، لم يعد يلاحَظ أنها موجودة .

انما ، يخامرها إحساس غريب ، ما كانت عيناها تفارقان الخطيبين . اهتمّت بجهاز العروس ، بحيويّة فريدة ، ونشاط متدفّق ، عاملة في غرفتها ، حيث لا يأتي أحد لرؤ يتها ، كما خيّاطة بسيطة .

كانت تقدّم ، بلا انقطاع ، للبارونة ، محارم من صنعها

هي ، فُوطاً طرّزت عليها الأحرف ، وتسألها : « هل هذا جيّد ، يا ادلائيد ؟ » وتجيب هذه ، وهي تقلّب ، بلا مبالاة ، الغرض : - « لا تتعبي نفسك بهذا القدر ، عزيزتي ليزون » .

وفي أحد مساءات آخر الشهر ، بعد يوم كثير الحرارة ، ثقيلها ، أطلّ القمر . كانت تلك واحدة من الليالي الصافية والفاترة ، تُقلق وتعطف وتحمّس ، توحي بايقاظ الشاعريّة في النفس ، كانت نفثات الحقول الجميلة تدخل البهو هادئة ، حيث البارونة والبارون يلعبان ، بضجر ، الورق ، على ضوء دائريّ يرسمه عاكس النور على الطاولة ، والخالة ليز معهما ، تحوك . أمّا الشابان ، فمتكئان الى النافذة المفتوحة على البستان المليء نوراً .

الزيزفونة والدلبة كانتا تظلّلان المساحة الكثيفة العشب الأخضر التي امتدّت في ما بعد ، باهتة ولامعة ، حتى الغيضة الكليّة السواد .

سحر هذه الليلة الناعم ، بضوء الشجر البخاريّ والكثيف اجتذب جانّ ، فاستدارت ناحية أهلها وخاطبت أمّها . « سندور ، يا أمَيمة ، هنا ، على العشب ، أمام القصر» . قال البارون ، وهو لم يفارق لعبه : «اذهبا يا ولديّ »، وتابع لعبه .

خرجا ومشيا ، متمهّلين ، في المرج الوسيع والأبيض ، حتى انتهيا إلى الغابة الصغيرة في العمق .

راحت الساعة تتقدم، دون أن ينتبها للرجوع . ومتعبةً أرادت البارونة الصعود إلى غرفتها : « يجب تذكير العاشقين » ، قالت .

اجتاز البارون ، برفّة عين ، الحديقة الواسعة المشعة ، حيث

الظلّان يتهاديان على مهل .

«اتركهما إذن، الطقس جميل في الخارج. ليزون تنتظرهما، أليس كذلك ، يا ليزون ؟ » .

«طبعاً أنتظرهما » ، قالت العانس بصوت خجول ، رافعة عينين حزينتين .

ساعد البارون امرأته في النهوض ، ولأنه متعب ، هو الآخر ، بسبب حرارة النهار ، قال : « سأذهب أنا أيضاً لأنام . . . » وذهب مع البارونة .

نهضت الخالة ليزون بدورها ، تاركة « شغلها » ، صوفها والصنارة الكبيرة ، وأتت تتكىء الى النافذة وراحت تتأمل الليلة السحريّة .

كان الخطيبان يمشيان بدون نهاية ، عبر العشب الأخضر ، من الغيضة إلى درج المدخل ، ومن درج المدخل إلى الغيضة . يضغطان أصابع بعضهما البعض ولا يتكلّمان ، منخطفين ممتزجين بالشاعريّة المرئية المتضوّعة من الأرض .

فجأة، لحظت جانّ، في النافذة، شبح العانس يرسمه نور اللمبة .

« هه ، قالت ، هي الخالة ليزون تنظر الينا » .

رفع الفيكونت رأسه ، وبصوته اللامبالي المتحدّث بدون تفكير ، ردّد :

« نعم ، الخالة ليزون تنظر الينا » .

وأكملا الأحلام ، والسير على مهل ، وتبادل الحب .

لكنّ الندى اعتلى الاعشاب ، فاعرتهما رعشة رطوبة .

« لنعد الآن » ، قالت
وعادا .
حين دخلا البهو ، كانت الخالة ليزون عادت إلى حياكة الصوف ؛ كان جبينها محنيّاً على عملها ؛ وأصابعها الضعيفة ترتجف قليلاً ، كما لو انها متعبة جداً .
اقتربت منها جانّ :
نذهب إلى النوم الآن ، ياخالة » .
أدارت الخالة عينيها . كانتا حمراوين ، كما من بكاء. لم ينتبه، لذلك ، العاشقان . لكنّ الشاب ، لاحظ حذاء الفتاة مبتلاً بالماء . اعتراه غمٌّ ، وبحنان سأل : « ألا تشعرين بالبرد ، في قدميك العزيزتين الصغيرتين ؟ »
فجأة ، ارتجفت أصابع الخالة بقوّة ، حتى كاد يفلت منها ما تحوك ، تدحرج مكبّ الصوف بعيداً في أرض المكان ؛ وخافيةً وجهها بيديها ، ابتدأت تبكي بشهقات كبيرة متشنّجة .
التفت إليها الخطيبان مشدوهين ، جامدين . وانحنت جانّ على ركبتيها ، وفاتحة ذراعيها مضطربة ، ردّدت :
- « ما بك ، ما بك ، خالتي ليزون ؟ »
حينها ، وبصوت مبلّلٍ دموعاً ، وجسم متقلّصٍ همّاً ، تمتمت مجيبةً :
- « إنّه حين سألك . . . ألا تشعرين بالبرد في . . . في . . . في قدميك العزيزتين الصغيرتين . . . لم يقل لي أحد مثل هذه الأقوال . . . أنا . . . . أبداً . . . أبداً . . . » .

مفاجأة ، ومشفقةً ، كادت جانّ تضحك ، لفكرة ان يسكب عاشق كلمات غزل في أذني ليزون ؛ وتراجع الفيكونت ليخفي بسمته .

لكنّ الخالة نهضت فوراً ، تركت صوفها على الأرض ، وكنزتها على الكرسيّ ، وغلّت في القمة ، نازلة درجاً مظلماً ، باحثة عن غرفتها .

لوحدهما ، راح الشابان ينظر واحدهما إلى الآخر سعيدَين ، متفقَين . همست جانّ : « الخالة المسكينة ! . . . » فأردف جوليان : « مجنونة نوعاً ، هذا المساء » .

أخذا يدي بعضهما البعض بدون ان يقرّرا الافتراق ، وعلى مهل ، على مهل مرتجف ، تبادلا أوّلى قبلاتهما ، في فراغ المكان الكانت فيه الخالة ليزون .

في الغد ، لم يفتكرا ، أبداً ، بدموع العانس .

الأسبوعان اللذان تقدّما الزواج، جعلا جانّ هادئة كما لو كانت متعبة من أحاسيس جميلة .

لم يكن لديها الوقت حتى للتفكير ، صباح اليوم المحدّد . كانت تعاني احساس فراغ كبيراً في كلّ جسدها ، كما لو ان لحمها ، دمها ، عظامها ، ذابت كلّها تحت جلدها ، ولاحظت ارتجاف أصابعها ، في تلمّسها الأشياء .

لم تتملّك ذاتها إلاّ في الكنيسة اثناء الاحتفال .

تزوّجت ! هكذا ، اذن ، تزوّجت ! تتابع الأشياء ، الحركات ، الأحداث المكتملة منذ الفجر ، بدت لها حلماً ، حلماً

حقيقيًّا. انّه من هذه اللحظات ، حيث كلّ شيء يبدو متغيّراً حولنا . حتى الحركات ، لها معنى جديد . والساعات المترائية في غير مكانها المعتاد .

أحسّت نفسها ضائعة ، متعجّبة بخاصّة . في مساء أمس ، لم يكن شيء تحوّل في وجودها . أمل حياتها الراسخ ، صار أقرب ، يكاد يُلمَس . نامت فتاة . وهي ، الآن ، امرأة .

كانت تخطّت اذن ، هذه الحدود التبدو تخفي المستقبل بكلّ أفراحه ، وبكلّ سعاداته الحلمت بها . شعرت كأن باباً مفتوحاً أمامها ، سوف تدخل في الموعود .

انتهى الاحتفال ، فانتقلوا إلى السكرستيّا شبه الفارغة ، لم يدعوا أحداً . ثم خرجا .

حين ظهرا على باب الكنيسة ، ضجّة قويّة جعلت العروس تقفز وتصرخ صرخة كبيرة للبارونة : كانت رشقة من بواريد المزارعين ، وحتى غيضة الحور ، لم تهدأ الفرقعات .

ثم دارا إلى الحديقة في انتظار العشاء . البارون ، والبارونة ، والخالة ليزون ، والمختار والكاهن بيكو راحوا يتمشّون في ممرّ الأمّ . بينما ، في الممرّ المقابل ، كان الكاهن الآخر ، وبخطوات كبيرة يصلّي .

في الجهة الأخرى للقصر ، كان يُسمع سرور المزارعين الصاخب ، الكانوا يشربون خمر التفّاح تحت أشجاره ، كلّ القطر ، في عطلة الأحد ، ملأ الساحة . الصبيان والفتيات كانوا يتتابعون .

اجتاز جانّ وجوليان الغيضة ، ثم صعدا المنحدر، وراحا

ينظران إلى البحر صامتين . كان الطقس منعشاً إلى حدٍّ ، مع أنهما كانا ، في منتصف آب . هواء الشمال يصفر ، والشمس الكبيرة ، قاسية تلمع في سماء كلُّها زرقاء .

والشابان ، ليجدا ملجأ ، اجتازا الأرض البور ، دائرين يميناً ، للوصول إلى الوادي المتموّجة والمشجَّرة المؤدِّية إلى إيبور . وبوصولهما إلى منسغة ، ولا نسمة عادت تلفحهما ، تركا الطريق ليأخذا ناحية ضيِّقة تغلّ تحت الأوراق . بالكاد كانا يستطيعان السير رافعي الرأس . حينها شعرت بذراع تحيط ، ببطء ، جسدها .

لم تقل شيئاً ، متقطّعة النفَس ، القلب سريع النبْض ، التنفُّس مقطوع . دغدغت شعرهما أغصان متدلِّية . قطفت ورقة ، يعسوبان شبيهان بصدفتين حمراوين سريعتي العطب ، كانا ملتصقين بها .

بريئة ومتملّكة نفسها نوعاً ، قالت : « خذ هذه ، لأثاث البيت » .

قرّب جوليان فمه إلى أذنها ، همس : « هذا المساء ستصبحين زوجتي » .

مهما تعلّمت من أشياء خلال إقامتها في الحقول ، لم تكن فكّرت إلا بشاعريّة الحبّ ، وفوجئت . زوجته ؟ أليست الآن زوجته ؟

راح يقبّلها قبلات سريعة ، على صدغها وعنقها ، حيث تتجعّد الشعرات الأولى . فصارت تلوي رأسها إلى الجهة الأخرى

لتتحاشى مداعباتٍ تعجبها وتسرُّها ، لم تكن معتادة على قبلات الرجال .

وفجأة ، وجدا نفسيهما على حدود الغابة .

توقّفت ، مرتبكة لبُعدهما هذا . ما عساهم يفكّرون ؟ « لنعد » ، قالت .

سحب يده الكانت تلفّ خصرها . وهما عائدان ، وجدا نفسيهما وجهاً لوجه ، قريبين إلى حدّ أن كانا يشعران بأنفاسهما على وجهيهما ، وتأمّلا بعضهما البعض . تأمّلا بعضهما البعض بنظرة من تلك النظرات الثابتة ، العميقة ، المخترقة ، حيث الروحان تحسبان أنهما اختلطتا . يفتّشان في عيني بعضهما ، بعد عيني بعضهما البعض ، في هذا المجهول اللايُخْرَق ، للكائن . سبرا غور نفسيهما بتساؤ ل أخرس وعنيد : ما عساه يكون الواحد للآخر ؟ ما عساها تكون هذه الحياة يبدآنها ؟ ماذا يخبّىء واحدهما للآخر من أفراح ، وسعادات ، أو من خيبات في طول هذه المواجهة اللافكاك منها : الزواج ؟ وتراءى لهما ، لكلٍ منهما ، كأنهما ، بعد ، لم يرَ واحدهما الآخر .

وفجأة ، طوّق جوليان امرأته ، وقبّلها ، على شفتيها ، قبلة عميقة كما لم تحظَ بعد . نزلت ، هذه القبلة ، اخترقت عروقها ، وخالجتها دغدغة خفيّة ، فأبعدت بدله ، جوليان ، بجماع يديها ، حتى كاد يقع .

ـ « لنذهب من هنا . لنذهب من هنا » تمتمت .

ما أجاب ، لكنّه أخذ يديها واحتفظ بهما في يديه .

لم يتبادلا أيّة كلمة حتى البيت . ما تبقّى ، من بعد الظهر ، بدا طويلاً .

ومع هبوط الليل ، جلسوا إلى المائدة .

كان العشاء بسيطاً وقصيراً ، على نقيض العادات النورماندية . نوع من الضيق شلّ المدعوّين . الكاهنان ، فقط ، والمختار والأربعة مزارعين ، أبدوا نوعاً من فرح كبير ، يرافق احتفالات الزواج .

بدا الضحك ميتا . كلمة ، من المختار ، أحيته . كانت التاسعة ، تقريباً ؛ يتحضّرون لارتشاف القهوة . ابتدأت ، في الخارج ، تحت أشجار التفّاح ، حفلة الرقص الريفيّة . من النافذة ، يلاحَظ كلّ العيد . مصابيح خفيفة النور ، متدلّاة من الأغصان ، كانت تُكسب الأوراق فارقاً لونياً دقيقاً بين الأخضر والرماديّ . بعض أفظاظ وخشنين ، راحوا يقفزون بشكل دائري وهم يزأرون نغم رقص وحشيّ ، يرافقه ، بضعف ، كمانان وقيثارة جاثمين على طاولة مطبخ كبيرة ذات منصّة . غناء المزارعين الصاخب كان يطغى كليّاً ، أحياناً ، على نغم الآلات . وكان يبدو صوت الموسيقى الخافت ، الممزَّق بالأصوات المتنافرة ، هابطاً من السَّماء ، ممزَّقاً ، بمقتطفات صغيرة في بعض علامات متناثرة .

برميلان كبيران ، محاطان بحزمات قش مشتعلة ، يصبّان شراباً للجماعة . وخادمتان كانتا مهتمّتين ، دوماً ، بشطف الكؤوس في دلو ، لتمدّاها ، والماء يقطر منها ، تحت حنفيّات منها يسيل خُيَيْط خمر أحمر أو خُييط ذهبيّ صاف من خمر التفّاح .

والراقصون العطاش ، والمسنّون الهادئون ، والفتيات ، في عَرَقهنّ ، يتدافعون ، يمدّون الأذرع ليلتقطوا ، بدورهم ، كأساً من شراب يفضّلون ، يصبّونه ، دفعات كبيرة في الحلق ، وهم يلوون رؤوسهم .

على طاولة ، موجود الخبز ، والزبدة ، والجبن ، والمقانق . يبتلع كلٌّ لقمة ، بين وقت وآخر ، وتحت سقف الأوراق المنارة ، كان هذا العيد الصحيح والصاخب ، يعطي المدعوّين المقطّبين في الغرفة . شهوة الرقص أيضاً ، والشرب من بطن هذه البراميل الضخمة ، وأكل قطعة خبز بالزبدة وبصلة نيّئة .

صرخ المختار ، وهو يعيّن الايقاع بسكّينة : « لعنكم الله ! هكذا يفرحون . كمن يتحدّث عن أعراس « غاناش » .

عمّت موجة ضحك خانقة . لكن الكاهن بيكو ، وهو عدوّ طبيعي للسلطة المدنيّة ، احتجّ : « تريد القول أعراس « قانا » . لم يقبل الآخر : « لا ، سيّدي الخوري ، أعرف . حين أقول : غاناش ، أعني غاناش » .

نهضوا وانتقلوا إلى البهو . راحوا يختلطون بالجموع المنشرحة . ثم بدأ المدعوون ينصرفون .

تخاصم البارون والبارونة على صوت منخفض . تبدو السيّده أدلائيد ، وهي ضيّقة النَفس أكثر من أيّ وقت ، رافضة ما يطلب إليها زوجها . قالت أخيراً ، بصوت أعلى : « لا ، يا صديقي ، لا أستطيع ، لا أدري كيف سأتصرّف » .

حينها ، تركها الوالد فجأة ، واقترب من جانّ : « تخرجين

معي ، في نزهة ، يا ابنتي ؟ » أجابت مضطربة : « كما تريد ، يا أبي » وخرجا .

منذ وصولهما أمام الباب ، إلى جهة البحر ، لفحهما هواء ناشف . نوعٌ من هواء الصيف البارد يذكّر بالخريف .

غيوم تسرع ، في السَّماء ، تحجب النجوم ، ثم تفرج عنها .

أمسك البارون بيد ابنته ، شدّ عليها بحنان . مشيا بضع دقائق . يبدو غير مستقرّ ، مضطرباً . أخيراً قرّر .

« عزيزتي ، سأقوم بدور صعب كان على أمّك أن تقوم به . ولكن ، بما أنّها ترفض ، يجب ، تماماً ، أن أحلّ مكانها . أجهل أنا ما تعرفين من أمور الوجود . ثمة أسرار نخفيها ، بعناية ، عن الأولاد ، خاصة عن الفتيات ، الفتيات اليجب أن يبقين طاهرات بلا أيّ لوم حتى ساعة نضعهنّ بين يدي الرجل ، وهو يعتني ، في ما بعد ، بسعادتهنّ . عليه ، هو ، أن يزيل هذا الحجاب المرميّ على سرّ الحياة الجميل . لكنهن ، إذا لم يكن ، بعد ، شكّ خدشهنّ ، يثرن ، أكثر المرات ، أمام الحقيقة العنيفة ، إلى حدٌ ، المختبئة خلف الأحلام . جريحات الروح ، وحتى جريحات الجسد ، ترفض للزوج ما كرّسته حقاً له ، الشريعة الانسانيّة والشريعة الطبيعيّة . عزيزتي ، لا أقدر أن أقول لك أكثر . ولا تنسي ، أبداً ، أنّكِ ، بجملتكِ ، لزوجك » .

ماذا كانت تعرف بالضبط ؟ ماذا حزرت ؟ راحت ترتجف ، مشحونة الصدر بحزن ثقيل مؤلم .

عادا . أوقفتهما ، في باب البهو ، مفاجأة . كانت السيّدة

أدلائيد ، تشهق على صدر جوليان . دموعها الصاخبة كما منفاخ في كور الحداد ، تبدو تخرج ، من أنفها وفمها وعينيها معاً . والشاب ، متلبّك ، متردّد ، كان يحمل المرأة الضخمة المتراخية بين يديه لتوصيه بحبيبتها ، بظريفتها الصغيرة ، بابنتها المعبودة .

اندفع البارون ، قال : « بلا حركات ، بلا انسحاقات ، أرجوك » . وآخذاً امرأته ، أجلسها على كنبة ، في حين كانت تنشف وجهها . استدار إلى جانّ : « يلّلا ، ابنتي ، قبّلي أمّك بسرعة ، واذهبي نامي » .

وعلى شفير البكاء ، هي الأخرى ، قبّلت أبويها بسرعة واختفت .

كانت الخالة ليزون انسحبت إلى غرفتها . بقي البارون وامرأته وحدهما مع جوليان . كانوا متضايقين إلى حدّ أن لم يتفوّهوا بكلمة . الرجلان بثياب السهرة ، واقفان والعينان زائغتان . السيّدة أدلائيد متهالكة على كرسيّها ، مع بقايا شهقات وزفرات في الحلق . صارت حيرتهم لا تُحتمل ،فابتدأ البارون يتحدّث عن الرحلة المزمع أن يباشر بها الزوجان خلال أيام .

في غرفتها ، جانّ ، تركت روزالي الباكية كما نبع ، تجرّدها من ثيابها . اليدان شاردتان بلا تبصّر ، لم تكن تجد الشرائط ولا الدبابيس ، وتبدو ، أكيداً ، أكثر اضطراباً من سيّدتها . لكنّ جانّ ، فكّرت ، مطلقاً ، بدموع خادمتها . كان يخيّل إليها أنها دخلت عالماً آخر ، ذهبت إلى غير أرض ، انفصلت عن كلّ ما كانت عرفته ، عن كلّ ما كانت أحبّته . بدا لها كلُّ شيء مشوَّشاً في

حياتها ، وفي فكرها . حتى إن فكرة كهذه راودتها : « هل تحبّ زوجها ؟ » فها هو ، فجأة ، ظهر كغريب بالكاد تعرفه . لثلاثة شهور خلت ، لم تكن تعرف أنه موجود ، والآن هي امرأته ، لماذا ؟ لماذا الوقوع بهذه السرعة في الزواج ، كما في ثقب مفتوح تحت الأقدام ؟..

غلّت في سريرها ، بعد أن صارت في زيّ الليل . أغطيتها الباردة نوعاً ، جعلت جلدها يرتجف ، زادت إحساسها بالبرودة ، بالوحدة ، بالحزن ، وكانت هذه تثقل على روحها منذ ساعتين .

توارت روزالي ، شاهقة باستمرار . وجانّ ، راحت تنتظر . انتظرت ، قلقة ، منقبضة القلب ، هذا الشيء ، الأعلنه لها والدها بطريقة غامضة ، هذا الكشف السحريّ عمّا هو سرّ الحبّ الكبير .

سمعت طرقات ثلاث خفيفة على بابها ، بدون أن تسمع صعود درج . ارتجفت بخوف ولم تجب . الباب ، من جديد ، يُطرق ، ثم صرّ القفل . أخفت رأسها تحت أغطيتها كما لو أنّ لصًّا دخل عليها . بتمهّل قرعت جزمة أرض الغرفة ، وفجأة لُمس سريرها .

بعصبيّة قفزت ، وصرخت صوتاً صغيراً ، ومخرجة رأسها ، رأت جوليان واقفاً أمامها ، يبتسم وهو ينظر إليها . « أخفتَني ! » قالت .

قال : « لم تكوني تنتظريني ، إذن ؟ » لم تجب . كان بأناقة تامة ، بمظهر الشاب الرصين الجميل . أحسّت بخجل فظيع لكونها نائمة هكذا ، أمام هذا الرجل الأنيق الرصين .

لم يعرفا ما يقولان ، ولا ما يفعلان ، وحتى لم يكونا يجرؤان على أن ينظر كلٌ منهما إلى الآخر ، في هذه الساعة الجدِّيَّة والفاصلة ، وعليها يتعلّق مصير سعادة الحياة كلّها .

كان يعرف ، بغموض ربما ، أيّ خطر تقدّمه هذه المواجهة ، وأيَّ امتلاكٍ للذات ، أيّة حيلة لطيفة ، يلزم ، كي لا يؤذي الخفر اللطيف ، ولا العذوبة غير المتناهية ، لنفس عذراء تغذّت بالأحلام .

حينها ، وبلطف ، أخذ يدها وقبّلها ، همس ، بصوت ناعم كما نفَس ، وهو راكع قرب سريرها كما أمام مذبح : « تريدين أن تحبّيني ؟ » هي ، متملّكة نفسها ، فجأة ، رفعت رأسها الغائم بالتخريم ، على الوسادة ، وابتسمت قائلة : « أنا أحبّك ، يا صديقي . . . »

فأخذ ، بفمه ، أصابع امرأته النحيلة ، وبصوت متردد ، كبت شهوته وقال : « تريدين أن تبرهني لي عن حبك ؟ » ، فأجابت مضطربة من جديد : « أنا لك ، يا صديقي » .

فغطّى معصمها بالقبلات الرطبة ، وناهضاً ، على مهل ، تقدّم إلى وجهها إذ بدأت تخفيه .

وبحركة فجائيّة ، مدّ يده من فوق السرير ، احتضن امرأته عبر غطاء السرير ، بينما ، مرَّر ذراعه الأخرى تحت الوسادة ، حملها ورأس جانّ ، وبصوت خفيض ، خفيض جداً ، سألها : « هل تريدين أن توسّعي لي مكاناً حدّك ؟ » .

خافت ، خوفاً فطريًّا ، وتلعثمت : « ليس الآن ،

أرجوك » .

بدا له أنه أخفق . غضب قليلاً ، وبصوت مبتهل دائماً ، إنما حازم ، أردف : « لماذا في ما بعد ، طالما أننا سننتهي دائماً إلى هذا ؟ » .

رأته أساء إليها ؟ إنما خاضعة ومستسلمة ، كرّرت قولها : « أنا لك ، يا صديقي » .

فاختفى بسرعة ، إلى غرفة الملابس ، وسمعت ، بوضوح ، حركاته واحتكاك ثيابه يخلعها ، ضجّة نقود في جيبه ، وقوع جزمته .

وفجأة اجتاز الغرفة بثيابه الداخليّة ، ليضع ساعة يده على المدفأة . ثم ، راكضاً إلى الغرفة المجاورة ، عاد ، تشاغل وقتاً قصيراً ، وحين شعرت جانّ بوصوله ، استدارت إلى الجهة الأخرى ، مغمضة عينيها .

انتفضت كما لترتمي على الأرض ، حين دسّ ، بحيويّة ، قرب ساقها ، ساقاً باردة وذات شعر . وجهها بين يديها ، تائهةً ، مستعدةً لتصرخ خوفاً ورعباً ، تجمّدت ، تماماً ، في آخر السرير .

أخذها ، في الحال ، بين ذراعيه ، مع أنها أدارت له ظهرها ، وراح يقبّل عنقها ، بنهم ، والتخاريم المعلّقة في تصفيفة شعرها الليليّة ، وقبّة قميصها المطرّزة .

ما عادت تحرّكت ، متوتّرة في قلق هائل ، أحسّت يداً قوية تبحث عن صدرها المخبّأ بين مرفقيها . راحت تلهث مُبَلْبَلَة لهذه المداعبة الخشنة . وكانت ، خاصة ، تودّ أن تنجو بنفسها ، أن

تهرب من البيت ، أن تسجن نفسها في مكانٍ ، بعيداً عن هذا الرجل .

ما عاد تحرّك . راحت حرارته تلفح ظهرها . هدأ هَلَعُها ، وفكّرت بنزق أن ليس عليها إلاّ أن تستدير لتقبّله .

نفد ، في الأخير ، صبره ، وبصوت حزين ، قال : « إذن أنتِ لا تريدين ، أبداً ، أن تكوني زوجتي الصغيرة ؟ » تمتمت من خلال أصابعها : « ألست زوجتك ؟ » أجاب بنوع من مزاج منزعج : « لا ، يا عزيزتي ، لا تهزئي بي » .

اضطربت لصوته ذي الرنّة الحزينة ، واستدارت نحوه لتعتذر .

أخذها ، بجملتها ، بغضب شديد ، نهماً إليها . وغطّى ، بقبلات سريعة ، قبلات عاضّةً ، قبلات مجنونة ، كلّ وجهها وأعلى عنقها ، جعلها سكرانة بمداعباته وملاطفاته . ألقت يديها ، مفتوحتين ، وجمدت تحت ضغطه وجهده ، غير مدركة ما تقوم به ، ولا ما يعمله هو ، وسط اضطراب فكريّ لم يكن يدعها تفهم شيئاً . لكن ألماً حادًّا مزّقها فجأة ؟ وراحت تنتحب متلوّية بين ذراعيه ، بينما كان يمتلكها بعنف .

ماذا حصل في ما بعد ؟ ما عادت ذكرت شيئاً ، لأنها فقدت صوابها . فقط ، بدا لها مندفعاً على شفتيها بوابل من القبلات القصيرة الشّاكرة .

وبعد ، رأى من واجبه أن يحدّثها ، كما رأت من واجبها أن تردّ عليه . وقام بمحاولات أخرى صدّتها بذعر ، ثم ، وهي تخبّط ،

وجدت على صدرها ، هذا الشعر الكثيف الكانت شعرت به على فخذها وتراجعت متأثِّرة مرتعشة .

متعباً من محاولات إغرائها التي لم تنجح ، استلقى ، جامداً ، على ظهره .

راحت تحلم حينها ، خائبة الأمل حتى أعماق الذات ، لانتظار حبيب تحطَّم ، لسعادةٍ تصدّعت ، فحدّثت نفسها : « هو إذن ما يقصد بالقول أن أكون زوجته . هو هذا ! هو هذا ! » .

وبقيت طويلاً ، منعزلة ، شاردة العين في زخارف الحيطان ، في أسطورة الحبّ الكانت تلفّ غرفتها .

وبما أنّ جوليان لم يعد يتكلّم ، أو يتحرّك ، التفتت إليه ، بتأنٍّ ، فتبيّنت أنّه كان ينام ! كان ينام ، فمه نصف مفتوح ، جبينه هادىء ! كان ينام !

ما كان باستطاعتها أن تصدّق ، أحسّت نفسها ، ناقمة ، مهانة بنومه أكثر منها بعنفه ، معاملةً كالقادمة الأولى . كان يستطيع أن ينام ليلة كهذه ؟ ألم يكن في ما حدث بينهما ، عنده ، شيءٌ مفاجىء ؟ آه ! كانت فضّلت أن تكون ضُربت ، عُنفت أكثر ، رُضّت من مداعبات مقيتة حتى تضيّع رشدها .

بقيت جامدة ، مستندة على مرفقها ، منحنية صوبه ، مستمعة ، بين شفتيه ، نفَسه الخفيف الكان ، مرات ، يتحوّل إلى غطيط .

ظهر النهار ، شاحباً أولاً ، ففاتحاً ، فوردياً ، فساطعاً . فتح

جوليان عينيه ، تثاءب ، بسط ذراعيه ، تطلع إلى امرأته ، تبسّم وسأل : « هل نمت جيّداً ، يا حبيبتي ؟ » .

تنبّهت ، الآن ، إلى أمر : خاطبها بصيغة التحبّب بلا كلفة بينهما . أجابت مندهشة :

ـ « نعم ، وأنت ؟ » قال : « وأنا جيداً جدًّا » . وقبّلها وهو يستدير نحوها ، ثم بدأ يتحدّث بهدوء . تبسّط في شرح مشاريع الحياة بأفكار اقتصادية . وهذه الكلمة ، ردّدها كثيراً ، أدهشت جانّ . استمعت إليه بدون أن تنتبه جيّداً إلى معنى الكلمات . تنظر إليه ، تحلم بألف أمر سريع يمرّ ، بالكاد ، ملامساً ذهنها .

دقّت السّاعة الثامنة : « هيّا ، يجب أن ننهض ، قال ، سنكون مثيرين للضحك إن بقينا أكثر في السّرير » ، ونهض أوّلاً ، بعد أن أكمل زينته ، ساعد ، برفق ، امرأته في كلّ التفاصيل الدقيقة ، غير قابل أن يناديا روزالي .

استوقفها قبل الخروج ، قال : « تعرفين ؟ نستطيع ، في ما بيننا ، أن نخاطب بعضنا بصيغة التحبّب ، إنما ، في حضور أهلك ، علينا أن ننتظر بعد . سيكون طبيعياً ذلك بعد عودتنا من رحلة الزفاف » .

لم تظهر إلاّ في وقت الغداء . ومرّ النهار ، عاديّاً ، كأنما لم يحدث أيّ جديد ، سوى أنه صار ، في البيت ، رجل آخر .

V

وصلت ، بعد أربعة أيام ، المركبة الكانت ستقلّهما إلى مرسيليا .

بعد قلق المساء الأوّل ، اعتادت جانّ على الاتصال بجوليان ، على قبلاته ، على مداعباته الحنونة ، بالرغم من أن نفورها من العلاقات الحميمة لم ينقص .

كانت تراه جميلاً ، فكانت تحبّه . من جديد ، تشعر نفسها سعيدة ونشوى .

وداعهما ، قصيراً ، كان ، وبدون حزن . بدت البارونة شديدة التأثّر ، ووضعت في يد ابنتها ، لحظة بدأت المركبة تستعدّ للرحيل ، صرّة نقود ، كبيرة ، وقالت لها : « هذه لمصاريفك القليلة كامرأة حديثة العهد » .

رمتها جانّ في جيبها ، وأسرع الحصانان في الانسحاب .

قال لها جوليان قبيل المساء : « كم أعطتك أمّك ؟ » لم تكن فكّرت بالأمر ، وأفرغتها على ركبتيها . تناثرت قطع كالذهب : ألفا فرنك . ضربت كفاً بكفّ « سأصنع المعجزات » ، وأعادت المال .

بعد ثمانية أيّام في الطريق ، في شمس مجنونة اللهب ، وصلا مرسيليا .

وفي الغد ، حملهما المركب الصغير الاسمه الملك لويس ، إلى جزيرة كورسيكا ، وكانت وجهته ناپولي مروراً بأجاكيو .

جزيرة كورسيكا ، رجال المقاومة ! قطّاع الطرق ! الجبال ! بلد نابوليون ! كان يبدو لجانّ أنّها تخرج من الواقع لتدخل ، بكامل وعيها ، في حلم .

شاهدا ، جنباً إلى جنب ، ركض شواطىء پروڤانس الصخريّة . البحر الجامد ، بزرقة عميقة ،كأنها مسمّرة ،أو قاسية في النور الدافىء المنسكب من الشمس ، كان يمتد تحت السّماء اللامتناهية ، بزرقة تكاد تكون فعالية .

قالت : « تذكر نزهتنا على مركب لستيك ؟ »

بدلاً من أن يجيب ، رماها ، سريعاً ، بقبلة في أذنها .

دواليب البخار تخترق الماء ، قاطعة نومها الثقيل . ومن الخلف ، خطّ زبد طويل ، سحابة شاحبة كبيرة حيث الموج المتحرّك يرغي كما الشمبانيا ، يمدّ ، حتى ضياع النّظر ، مخوراً مستقيماً لمركب ـ بناء .

وفجأة ، ونحو المقدّمة ، على امتداد بعض أذرع قليلة فقط ، سمكة هائلة ، دلفين ، خبط خارج الماء ، ثم غطس ، رأسه أوّلاً ، واختفى . رأته ، جانّ ، وخافت ، صرخت وارتمت على صدر جوليان . ثم راحت تضحك من خوفها ، وراقبت ، قلقة ، إذا ما كان الدلفين سيعود للظهور . وفي خلال بضع ثوانٍ ، ظهر فجأة ، من جديد ، كما لعبة آليّة كبيرة ، ثمّ اختفى وعاد فظهر . صار اثنين ، فثلاثة ، فستّة ، بدت تثب حول المركب الثقيل ، تواكب

أخاها الهائل ، السمكة الخشبيّة ذات الزعانف الحديديّة . كانت تمرّ إلى شمال ، ثم إلى يمين المركب ، مرّة معاً ، مرّة الواحد بعد الآخر ، كما في لعب ، في تتابع مرح ،تتجه في الهواء بقفزات ترسم دوائر ، ثم تغطس متقاطرة .

تصفّق جانّ ، ترتعش ، مسرورة ، مع كلّ ظهور للسّابحين الضخام ذوي الليونة . وقلبها كان ينبض ، كما قفز الدلافين ، بفرحة مجنونة وطفوليّة .

وفجأة ، اختفت هذه الحيوانات . رأوها ، مرّة بعد ، بعيداً ، في عمق البحر ، بعدها أحسّت جانّ ، لبضع ثوانٍ ، حزناً لذهابها .

أتى المساء ، هادئاً ، لطيفاً ، مشعاً ، ممتلئاً بالضوء ، بالسّلام السّعيد . لا ارتعاشة في الهواء أو على الماء . راحة البحر والسماء اللاّمحدودة ، تصل إلى النفوس المخدَّرة ، حيث كذلك ، لا ارتعاشة .

ابتدأت الشمس تنحدر ، على مهلٍ ، هناك ، ناحية أفريقيا غير المرئية ، أفريقيا الأرض المشتعلة . من كنّا نشعر بحدّتها ، إنما نوع من الملاطفة النديّة ، التي لم تكن ، حتى ، لتُحسب مظهر نسيم ، لامست الأوجه حين غاب الكوكب .

ما أرادا الدخول إلى غرفتهما حيث يشمّان كلٍ روائح المراكب المزعجة . تمدّدا ، جنباً إلى جنب ، على الجسر ملتفّين بمعطفيهما . نام جوليان مباشرة . لكنّ جانّ بقيت مفتّحة العينين ، مبلبَلة بمجهول الرحلة . ضجيج الدواليب الرتيب يهدهدها ، وتنظر

فوقها ، إلى جيوش النجوم المضيئة بنور ساطع ، المتلألئة كأنها مبتلّة ، في السماء الصافية .

نامت قبيل الصباح . أيقظتها ضجة وأصوات . كان البحارة ينظّفون المركب مغنّين . هزّت زوجها ، الساكن في نومه ، ونهضا .

راحت تشرب ، بحماس ، طعم الضباب المالح يخترقها حتى أطراف الأصابع . البحر في كلّ مكان . مع ذلك ، صوب الامام ، شيء رماديّ ، غير متبينّ ، بعد ، في الصباح الطالع ، نوع من تراكم الغيوم الفريدة ، المسنّنة ، الممزّقة ، يبدو يحطّ على الأمواج .

توضّح الأمر . تبدو هذه الأشكال ، أكثر ، في السماء المنوَّرة . بَرَزَ خَطّ كبير لجبال قرنيّة وعجيبة : جزيرة كورسيكا ، مغلّفة بنوع من حجاب لطيف .

وأشرقت الشمس راسمة كلّ نتوءات ذروات.الموج بظلال سوداء ، ثم توهّجت كل القمم ، في حين أن ما بقي من الجزيرة ظلّ ملتفّاً بضباب البخار .

الربّان ، وهو شيخ دبغت وجهه الشمس ، يابس ، قصير ، صلب ، متقلّص بالهواء القاسي والمالح ، بدا على الجسر : وبصوت أجشّ ، لأوامر ثلاثين سنة ، ولكثرة استعماله للصراخ في الزوابع ، قال لجانّ :

-« تشمّينه أنتِ ، هذا المعطف الصوفي ؟ »

كانت تشمّ ، فعلاً ، رائحة النباتات القوية والفريدة ، هي رائحة وحشيّة .

تابع الربّان :

« هي جزيرة كورسيكا ، سيّدتي ، تزهر هكذا . هذه رائحتها ، هي ، كامرأة جميلة . بعد غياب عشرين سنة ، أبقى أعرفها عن بعد خمسة أميال . أكون فيها . يكون هو ، هناك ، في جزيرة القديسة هيلانة ، يبدو أنّه يتحدّث كثيراً ، عن شذا بلده . إنّه من عائلتي » .

ونزع الربّان قبّعته ، وحيّى الجزيرة ، وحيّى عبر المحيط هناك ، الامبراطور الكبير الأسير الكان من عائلته .

كادت جانّ تبكي لفرط تأثّرها .

ثمّ مدّ البحار ذراعه صوب الأفق ، قال : « السفّاحون ! » .

جوليان ، واقفاً إلى جانب امرأته ، خاصرها ، وتطلّعا في البعيد ، ليكتشفا النقطة المحدّدة .

رأيا ، أخيراً ، بضعة صخور على شكل أهرام ، دار حولها المركب ليدخل في خليج هائل وهادىء ، محاط بجمع من القمم العالية ، منحدراتها المنخفضة تبدو مغطّاة بالطحلب .

أشار الربّان إلى هذه الخضرة : « مقام رجال المقاومة » .

وبقدر تقدّمهم ، كانت تبدو لهم دائرة الجبال تضيق وراء المركب السابح ، متمهّلاً ، في بحيرة زرقتها شفّافة إلى حدّ رؤ ية عمقها أحياناً .

وبدت المدينة ، فجأة ، بيضاء كلّها ، في عمق الخليج ، على حدود الموج ، على أقدام الجبال .

بعض البواخر الايطالية الصغيرة ، كانت راسية في المرفأ . أربعة أو خمسة زوارق أتت تطوف حول « الملك لويس » لتنزل

المسافرين .

جوليان ، الكان يجمع الحوائج ، سأل ، همساً ، زوجته : « عشرون فلساً تكفي حامل الحقائب ، أليس كذلك ؟ » .

منذ ثمانية أيام ، وهو يسأل ، كل مرة ، السؤال ذاته ، وكل مرّة تتألّم . أجابت بشيء من نفاذ الصبر : « حين لا نكون واثقين من أننا نعطي ما يكفي ، نعطي الكثير » .

كان باستمرار ، يجادل مدير الخدم ، في الفندق ، والصبيان ، ويجادل أصحاب العربات ، والبائعين في أيّ أمر . وحين يحظى بحسم ما ، لفرط المماحكات ، يقول لجانّ ، فاركاً يديه : « لا أحبّ أنّ أكون مسروقاً » .

ترتجف ، كانت ، حين ترى ، آتية ، ورقة الحساب ، متأكّدة ، سلفاً ، من ملاحظاته حول كل أمر ، خجولة لمساوماته ، محمرّة حتى الشّعر ، تحت نظرات الخدم المحتقرة الكانت تلاحق زوجها ، حاطة ، في عمق كفه ، على بخشيشه غير الكافي .

تجادل أيضاً مع النوتّي الذي أوصلهما إلى اليابسة .

أول شجرة رأت ، كانت نخلة .

نزلا في فندق كبير فارغ ، في زاوية من ساحة واسعة ، وتغدّيا.

بعد انتهائهما من التحلية ، وإذ كانت جانّ تستعد للتجوال في المدينة ، أخذها جوليان من ذراعها ، وهمس ، بعذوبة ، في أذنها : « لو ننام قليلاً ، يا قطتي ! »

فوجئت : « ننام ؟ لا أحسّني متعبة » .

احتضنها : « بي رغبة إليكِ . تفهمين ؟ منذ يومين ! . . . »

احمرت ، خجولة ، مردّدة : « أف ! الآن ! ما عساهم يقولون ويفكّرون ؟ كيف تجرؤ على طلب غرفة في وضح النهار ؟ أف ! أرجوك يا جوليان » .

لكنّه قاطعها : « أهزأ أنا بكل ما يمكن ان يقوله أناس الفندق ، أو يفكّروا به . سترين كيف يزعجني الأمر » .

ودقّ الجرس .

ما عادت تقول شيئاً . عيناها مخفضتان ، ثائرة الروح والجسد أمام شهوة الزوج التي لا تهدأ ، غير قابلة إلّا بقرف ، مستسلمة إنما ذليلة ، معتبرة الأمر حيوانياً ، منحطّاً ، وساخة ، في الأخير .

كانت حواسها ما تزال خامدة ، ويعاملها زوجها وكأنها تقاسمه أشواقه .

حين وصل الخادم ، طلب اليه جوليان أن يدلّهما الى غرفتهما . ما فهم الرجل ، وكان كورسيكيّاً حقيقياً ، مشعراً حتى العينين ، وأكّد ان الشقة الصغيرة تتحضّر للّيل .

شرح له جوليان ، بنافد صبر : « كلا ، بل الآن . نحن متعبان من الرحلة . نريد نرتاح » .

زلقت ، حينها ، في لحية الخادم بسمةٌ ، ورغبت جانّ في الخلاص .

حين نزلا ، بعد ساعة ، ما كانت تجرؤ على المرور أمام الناس الكائنت تراهم ، تظنّهم سوف يضحكون ويتوشوشون خلف ظهرها . كانت تريد ألا يفهم جوليان هذا ، ألّا يكون عنده ،

أبداً ، هذا الخفَر الرفيع ، هذه الرهافة الفطريّة . وأحسّت ، بينها وبينه ، شيئاً كالحجاب ، كالحاجز ، ملاحظةً لأول مرة ، أنه لا يمكن ان يتوحّد شخصان حتى الروح ، حتى عمق الأفكار ، يمشيان ، جنباً إلى جنب ، متعانقين أحياناً ، إنما غير ممتزجين . كما لاحظت أن خصوصيّة أيّ كائن ، تبقى ، أبداً ، وحيدة .

ظلا ثلاثة أيّام في هذه المدينة المختبئة في طرف خليجها الأزرق ، الحارّة كما أتون ، خلف ستار من جبال ، لا تترك الهواء يصل ، عاصفاً ، إليها .

ثم حصل أمر يوقف رحلتهما، وكي لا يتراجعا أمامأيّ عائق قرّرا استئجار خيل . أخذا جوادَين كورسيكيّين صغيرين بعين ساخطة ، ضعيفَين ولا يتعبان ، وسارا ، ذات صباح ، مع الفجر . رافقهما ، على بغلة ، دليل يحمل الضروريّات ، لأنّ النُزُل مفقودة في هذه البلاد المتوحّدة .

أوّل الأمر ، كانت الطريق تتبع الخليج ، لتغرق في واد قليل العمق ، ذاهبة صوب الجبال الكبيرة . كثيراً ما كانا يجتازان شلّالات تكاد تكون جافّة ، اشكال سواقٍ ، ما تزال تتحرّك تحت الحجارة ، كما حيوان مخفيّ ، تصدر عنه نقنقة خجولة .

بدا البلد البائر عارياً كليّاً . جوانب الشواطىء كانت مغطّاة بأعشابٍ عاليةٍ ، صفراء في هذا الفصل الملتهب . يلتقيان ، أحياناً ، بجَبَليٍّ ، ماشياً ، إمّا على حصانه الصغير ، إمّا مفرشحاً على حمار ضخم ككلب . وكلّهم على أكتافهم البارودة المحشوّة ، وهي سلاح قديم صدىء ، لكنها ، في أيديهم ، تخيف .

يبدو عطر النباتات العطريّة النفاذ ، المغلّف الجزيرة ، يكثّف الهواء ؛ والطريق ، تذهب صعداً ، على مهل ، وسط ثنايا الجبال الطويلة .

قمم الصوّان الزهريّ أو الأزرق تضفي على المنظر أجواء سحريّة . وغابات الكستناء الشاسعة ، على المنحدرات ، كانت تبدو خضراء فتيّة الأشجار ، لشدّة ما تلك الأرض المرتفعة كانت تموجاتها عالية .

مرات ، كان الدليل يشير بيده إلى المرتفعات المنحدرة ويسمّيها . جانّ وجوليان ينظران ، لا يريان ، ثم يكتشفان أخيراً ، شيئاً رمادياً ، يشبه كومة حجار واقعة من القمة . يكوّن قرية صوّانيّة صغيرة معلّقة ، ثابتة كما عش عصافير حقيقيّ ، يكاد لا يُرى في وساعة الجبل .

هذه الرحلة الطويلة والبطيئة ، أثارت جانّ . « لنركض قليلاً » ، قالت . وهمزت حصانها . وحين لم تسمع قفز زوجها قربها ، التفتت إلى الوراء ، وراحت تضحك ضحكاً مجنوناً : شاحباً ، يسرع ، آخذاً بعُرف الحيوان ، قافزاً بغرابة جماله ، ومظهره كـ « فارس جميل » ، جعلا عدم مهارته ، وخوفه أكثر طرافةً .

ابتدآ ، حينها ، يخبّان متمهّلين . والطريق امتدّت بين حُرجين يغطّيان كلّ الشاطيء ، كما معطف .

كان الدغل ، وهو لا يُخرق ، يتألّف من سنديانات خضر ، من عرعار ، من قطلب ، من مُصْطَكَا ، من خَلْنَج ، من غار ، من

آس ، ومن بقس ، يربط ما بينها ، يمزجها كالشّعر ، الياسمين البرّي الخنشار الهائل ، زهور العسل ، الخزامى ، العلّيق ، جاعلة على الجبال ، جزّة متشابكة معقّدة .

حين جاءا ، لحق بهما الدليل وقادهما بالقرب من واحد من هذه الينابيع اللطيفة والكثيرة هناك : خيط نحيف ودائري من الماء المثلّج ، يخرج من ثقب في الصخرة ، ويسيل على ورقة كستناء ، جعلها أحد المارّة طريقاً تؤمّن الماء إلى الفم .

شعرت جانّ أنها سعيدة ، حتى ليصعب عليها الأمر في ان لا تصرخ صرخات حبور .

عادا وابتدآ ينزلان وهما يدوران حول خليج ساغون .

وقبيل المساء اجتازا كارغيز ، القرية اليونانية ، كان أسسها ، من زمان ، هنا ، جالية من الهاربين المطرودين من وطنهم . كانت متحلّقة حول نبع ، جماعة من فتيات كبيرات وجميلات ، طوال الأيدي ، نحيفات ، فريدات الرشاقة . صرخ لهن جوليان « مساء الخير » ، أجبن بصوت شادٍ ، بلغة البلد المتروك الرخيمة .

في الوصول إلى بيانا ، كان يجب طلب الاستقبال كما في الأزمنة القديمة ، وفي البقاع الضائعة.كانت جانّ ترتعش فرحاً ،منتظرة أن يُفتح الباب حيث طرق جوليان.آه ! حقاً رحلةٌ كهذه ، مع كل ما فيها من مفاجآت الطرقات المجهولة .

استدلاّ إلى عائلة شابة . استُقبلا كما البطاركة ضيفاً من الله ، وناما على فراشِ قشِ ذرةٍ صفراء ، في بيت قديم منخور ، هيكله ، كلُّه ، وهو منقور بالدّود ، تجول في قَتَعَة السفن الآكلة

العوارض ، يلغط ، يبدو يحيا ويتنفّس .

ومع الشمس الطالعة ، ذهبا، وسريعاً ما توقّفا قبالة الغابة ، غابة حقيقيّة من الصوّان الأرجوانيّ ، كانت قمم جبال ، أعمدة ، قباب أجراس صغيرةً ، أشكالاً أخّاذة صنعها الزمن والهواء الناخر وضباب البحر .

مرتفعة حتى الثلاثمائة متر ، ضعيفة ، دائريّة ، معقوفة ، ذات اشكال مختلفة غير منتظرة ؛ رائعة هي ، هذه الصخور الأخّاذة الشبيهة بالأشجار ، بالنباتات ، بالحيوانات ، بالنُصُب ، بالرجال ، بالرهبان ، بالشياطين ذوي القرون ، بالعصافير . . . مجموعة هائلة ، مزيج كوابيس متحجّرة بارادة إلهٍ ما ، خارقٍ شاذّ .

ومنقبضة القلب ، جانّ ، ما عادت تكلّمت . أخذت يد جوليان ، ضمّتها مُجتَاحَةً بالحاجة للحب أمام هذا الجمال .

اكتشفا فجأة ، وهما خارجان من هذه الفوضى ، خليجاً محاطاً كلّه بسورٍ أحمر كالدم من الصوّان الأحمر . هذه الصخور القرمزيّة ، كانت تنعكس في البحر الأزرق .

همست ، جانّ : « آه جوليان » ! » بدون ان تجد كلمات أخرى ، جعلها الاعجاب حنونة ، رقيقة ، مخنوقة الحلق ، وسالت من عينيها ، دمعتان . رآها ، عجب ، فسألها : « ما بك ، يا قطتي » ؟•

مسحت خديها ، ابتسمت ، وبصوت مرتجف « لا شيء . . . أمر عصبّي . . . لا أدري . . . كنت متّخذة . سعيدة أنا حتى ان أقلّ أمر يبلبل قلبي » .

لم يفهم ثورة أعصابها كامرأة ، صدمات هذه الكائنات المرتجّة المرتعبة للا شيء ، يزعزعها ، كما كارثة ، حماس بسيط ، وإحساس ، لا يُدرك ، يثيرها ، يجعلها تطير من فرح أو يأس .

بدت له دموعها مضحكة ، ومنصرفاً كليّاً إلى وعورة الطريق ، قال : « يكون أفضل لو تعتنين بحصانك » .

نزلا في طريق وعر ، يكاد لا يستطاع السير فيه إلى عمق هذا الخليج ، ثم استدارا يميناً ليتسلّقا وادي أوتا الظليل .

بدا الممر صعباً ومزعجاً . اقترح جوليان : « نصعد سيراً على الأقدام » ؟ لم تكن تطلب أفضل . سعيدة ان تمشي ، في ان تكون وحيدة معه ، بعد انفعالها ذاك ، للحظات خاليات .

انفتح الجبل المغلق من فوق إلى اسفل . غاصت الطريق في الركام المسنن . تتبع ، هي ، العمق ، بين سورين عظيمين ، وها شلّال كبير يجتاز هذا الصدع . الهواء بارد جداً ، الصوان أسود ، وإن ما نراه من السماء ، في عل ، يدهش ويذهل .

ارتعدت جانّ لضجّة مفاجئة . رفعت عينيها ، فاذا طير عجيب يطير من ثقب : انه نسر . جناحاه المفتوحتان بديا يبحثان عن فريستي البئر ، وصعّد عالياً جداً ، إلى زرقة السماء البعيدة ، حيث اختفى .

أبعد ، ازدوج شقّ الجبل . يصعد الدرب بين الواديين ، متعرّجاً . مشت جانّ الأولى ، رشيقة ومجنونة ، مدحرجةً الحصى تحت قدميها ، عنيدة ، منحنية على السّحيقات الهاويات . كان يتبعها ، متعباً إلى حدّ ما ، عيناه إلى الأرض خوف الدوّار .

سريعاً ، غمرتهما الشمس ، حسبا نفسيهما يخرجان من الجحيم . عطشانان ، أرشدهما أثر رطب ، عبر ركام متناثر الأحجار ، إلى نبع شحيح مقنّن في خطّ منحرف محفور يستعمله رعاة الماعز . تغطي أرضه سجّادة من طحلب . ركعت جانّ لتشرب وحذا جوليان حذوها .

وفيما تتذوّق عذوبة المياه ، أخذها جوليان ، من قامتها ، وحاول اختلاس مكانها في طرف القناة الخشبية . قاومت . شفاههما تصطرع . تتلاقى . تفترق . وفي مصادفات الصراع ، تناولا ، كل بدوره ، طرف القسطل الناعم ، وعضّاه لا يتركانه . وخيط المياه الباردة ، يؤخذ ويُترك بلا انقطاع ، ينقطع ويتصل ، يُلطّخ الوجهان ، العنقان ، الثياب ، الأيدي . وصارت تلمع في شعرهما نقاط ماء شبيهة باللؤلؤ . وانسابت قبلات في المجرى .

واعترت جانّ ، فجأة ، لفحة حب . عبّأت منها ماء صافياً ، وأفهمت جوليان ، وخداها منتفخان كقِربة ، والشفة على الشفة ، أنها تريد ان ترويه .

مدّ عنقه ، مبتسماً ، رأسه إلى الوراء ، الذراعان مفتوحتان ؛ وشرب بجرعة واحدة من هذا النبع اللحميّ الحيّ ، الذي سكب في أحشائه ، شهوة ملتهبة .

بحنان نادر، اتكأت جانّ عليه . قلبها ينبض . نهداها يرتفعان . عيناها تبدوان طريّتين مبلّلتين ماء . همست بصوت خافت : « جوليان . . . أحبّك ! » . انقلبت وهو يجذبها اليه وخبّأت وجهها بيديها ، ومحمّرة من خجل .

وراح ينتفض فوقها ، معانقاً ايّاها بنزق . هي ، في انتظار عصبي ، تلهث ؛ وفجأة ، صرخت مصعوقة بالاحساس الكائنت تناديه .

طويلاً ، صعدا إلى آخر القمة . بقيت تنتفض محنية ، ولم يصلا إقيزا إلا مساءً ، عند ياولي يالابريتّي ، أحد أقرباء دليلهما .

كان رجلاً طويل القامة ، محدّباً نوعاً ، مقطّباً لسلّ فيه . قادهما إلى غرفتهما ، من حجر ، عارية ، لكنها جميلة في هذا البلد ، حيث كل اناقة تبقى مجهولة ؛ وبلهجة محلية كورسيكيّة ، مطعمة بالفرنسيّة والايطاليّة ، راح يعبّر عن سروره في استقبالهما ، حين قاطعه صوت صافٍ ، وانطلقت امرأة سمراء صغيرة ، ذات عينين كبيرتين سودَاوين ، وجلد كالشمس حار ، وقامة محدودة ، وأسنان تبقى دائماً ، خارج الفم في ضحكةٍ متواصلة ، فقبّلت جانّ ، هزّت يد جوليان مردّدة : « صباح الخير ، سيّدتي ، صباح الخير ، سيّدي ، انتما بخير » ؟

نزعت قبّعاتهما ، معاطفهما ، رتّبت كل شيء ، بذراع واحدة ، الأخرى كانت ملفوفة برباط ، ثم أخرجتهم ، جميعاً ، قائلة لزوجها : « اذهب معهما في نزهة حتى العشاء » .

أطاع السيّد يالابريتّي سريعاً ، توسّطهما وخرج معهما ، يريهما القرية . كان يجرّ خطواته وكلماته ، ساعلاً كثيراً ، ومردّداً كل دقيقة : « هو هواء الوادي الطريّ ، أوقعني في السّل » .

قادهما ، عبر درب ضيّقة ضائعة ، تحت شجرات الكستناء غير المحدودة ، توقّف ، بدون إشعار ، وبلهجته الرتيبة : « هنا ،

قتل ماتيو لوري قريبي جان رينالدي » . كنت هنا ، جدّ قريبٍ من جانّ ، حين ظهر ماتيو على عشرة أقدام منّا . صرخ : « جان ، لا تذهب إلى ألبرتاشي . لا تذهب ، يا جان ، وإلاّ أقتلك أخبرك بذلك » .

ـ أخذت ذراع جان : « لا تذهب ، يا جان ، يفعلها » .

ـ ذلك من أجل فتاة يعرفانها : ياولينا سيناكوبي » .

ـ لكن جان راح يصرخ : « سأذهب ، يا ماتيو ، لست أنت ، من يمنعني » .

« حينها ، وبسرعة ، أطلق الرصاص ، قبل ان أصوّب أنا » .

« قفز جان قفزة كبيرة ، كما يرقص ولد بالحبل». نعم ، يا سيّدي ، ووقع عليّ ، فانقلبت بارودتي وتدحرجت حتى الشجرة الكبيرة ، هناك .

« كان فمه مفتوحاً ، لكنه لم يقل كلمة ، كان مات » .

نظر الشابان ، بدهشة ، شاهد هذه الجريمة الهادىء . سألت جانّ : « والمجرم » ؟.

سعل ياولي يالابريتي طويلاً، ثم قال : « تخفّى في الجبل . كان أخي مَن قتله في العام التالي . تعرفان جيّداً أخي ، فيليبيّ بالابريتيّ ، قاطع الطرق » .

ارتعدت جانّ : « أخوك قاطع طرق ؟ » .

جالت ، في عين الكورسيّكي الهادىء ، نظرة فخر . « نعم ، سيّدتي ، كان مشهوراً ، أخي هذا . قتل ستّة جنود . قُتل في ما بعد ، مع نيقولا مورالي ، حين كانا محاصرين في نيولو ، بعد

قتال ستّة أيّام ، وكادا أن يضنيا جوعاً » .

ثم أضاف ، بمظهر واثق : « البلد يريد هذا » ، باللهجة نفسها البيها قال : « انّ هواء هذا الوادي لمنعش » .

وعادوا إلى العشاء ، عاملتهما الكورسيكيّة الصغيرة ، كما لو انها تعرفهما من عشرين سنةً .

لكنّ كآبة صاحبت جانّ . هل تجد ، بعد ، بين ذراعي جوليان ، صدمة الحواس تلك ، الغريبة والملتهبة ، الكانت أحسّتها على طحلب النبع ؟،

عندما صارا وحيدين في غرفتهما ، صارت ترتجف لبقائها باردة العاطفة تحت وابل قبلاته . لكنها ، سريعاً ، اطمأنت . وكانت ليلة حبها الأولى .

وفي الغد ، ساعة الذهاب خالجها شعور بعدم الرحيل من هذا البيت المتواضع ، حيث بدا لها انّ سعادة لها ، جديدة بدأت .

جذبت إلى غرفتها ، المرأة المضيفة ، وموضحة انها لن تقدم لها هديّة ، شدّدت ، وحتى بحنق ، على ان ترسل لها ، من باريس فور عودتها ، تذكاراً ، عليه تعلّق فكرة تكاد تكون وهميّة .

قاومت طويلاً الكورسيكيّة الصبيّة ، لا تريد القبول . وافقت أخيراً : « طيّب أرسلي لي مسدّساً ، مسدّساً صغيراً » .

فتحت جانّ عينين كبيرتين . أضافت الأخرى هامسة في أذنها كما نسرّ بسرّ جميل حميم : « لأقتل سلفي » وفكّت ، بحيويّة وابتسامة ، الرُّبُط الكانت تلفّ ذراعها الما كانت تستخدمها مطلقاً ، ثم دلّتها على جرح اخترق لحمها المدوّر والأبيض : « لو لم أكن قويّة

مثله ، لكان قتلني . زوجي ليس غيوراً ، هو يعرفني . ثم هو مريض ، تعرفين . وهذا يهدىء فورة دمه . علماً بأنني امرأة شريفة . انا . لكنّ سلفي يصدّق كلّ ما يقال له . يغار عن زوجي . وسوف يعيدها حتماً . إذن يكون لي مسدس صغير ، أكون مطمئنة وواثقة من أنني أنتقم .

وعدت جانّ بارسال السّلاح ، وقبّلت بحنان ، صديقتها الجديدة ، وأكملت طريقها ما بقي من رحلتها ، لم يكن إلاّ حلماً ، احتضاناً بلا نهاية ، نشوة مداعبات . لم تر شيئاً ، لا المناظر ، لا الناس ، لا الأمكنة حيث توقفت. لم تكن ترى إلا جوليان .

ابتدأت ، اذن خصوصيّة بلاهات الحب الطفوليّة والعذبة . كلمات صغيرة لا معنى لها ، لكنها لطيفة ، عمادة الأمكنة بأسماء متكلّفة اللطف . وانطواء الجسدين حيث تُسرّ الأفواه .

وإذا كانت جانّ تنام على خاصرتها اليمنى كانت حلمة نهدها الأيسر نزقة في الهواء عند استيقاظها .

جوليان وهو لاحظ ذلك ، كان يسمّيه : « سيّدي النائم خارجاً » والآخر : « سيّدي العاشق » ، لأن رأس الحلمة الوردية ، أكثر شهوانية في القبل .

مع وصولهم إلى باستيا ، كان عليه ان يدفع للدليل . بحث جوليان في جيوبه . ولما لم يجد ما يلزمه ، قال لجانّ : « بما انك لا تنفقين الألفي فرنك المن أمّك ، أعطينيها . معي تكون في أمان أكبر . وهذا يجنّبني الكدّ لجمع المال .

فأعطته ما معها .

وصلا ليفورن ، زارا فلورنسا ، جنوى ، وكل الشاطىء .
في صباح شماليّ الريح ، عنيفها كانا في مرسيليا .
انقضى شهران على غيابهما من غيضة الحور . نحن في الخامس عشرمن تشرين الأوّل .
جانّ ، الملفوحة بالهواء البارد وكأنّه من نورماندي البعيدة ، أحسّت بالحزن . ومن بعض الوقت ، يبدو جوليان ، تغيّر .
متعب ، لا مبالٍ . وكانت تخاف ولا تعرف لذلك سبباً .
أخّرت ، لأربعة أيام ، رحلة العودة . ما شعرت بنفسها تستطيع مغادرة بلد الشمس هذا الجميل . يبدو لها انها، الآن، تُتمّ رحلة السعادة .
أخيراً عادا .
كان عليهما ان يشتريا ، من باريس ، كل حاجيّاتهما لاقامتهما النهائية في غيضة الحور . وراحت جانّ تغتبط لكونها ظنّت ، ستعود بالعجائب بفضل هديّة أمّها . انما ، أوّل أمر فكّرت فيه ، كان المسدّس الوعدت به الكورسيكيّة الصبيّة في إڤيزا .
عند وصولهما ، في صباح اليوم التالي ، قالت لجوليان :
- أتريد يا حبيبي ان تعيد لي المال الأعطتني إياه أمّي ، لأنّني سأتسوّق ؟ »
استدار نحوها بوجه غير راضٍ
- كم يلزمك ؟ »
فوجئت وتمتمت .
- ولكن . . . قدر ما تريد »

تابع : « سأعطيك مئة فرنك . احذري ان تبذّريها » .

منذهلة ، مختلطة الأمور في المخيّلة ، ما عادت تعرف ما تقول .

أخيراً : قالت متلعثمة : « لكن . . . أنا . . . أعطيتك المال لـ . . . ».

لم يدعها تكمل .

« نعم ، تماماً . ان كان المال في جيبك أو جيبي ، لا يهمّ ، ان لكلينا المال نفسه . لا ارفضه لك ، لكوني أعطيك مئة فرنك » .

أخذت الخمس قطع الذهبية ، ولم تزد أيّة كلمة . ولم تجرؤ ان تطلب سواها . وما اشترت إلاّ المسدّس .

بعد ثمانية أيّام ، سارا في طريق العودة إلى غيضة الحور .

VI

العائلة والخدم ينتظرون أمام الحاجز الأبيض الذي ركائزه من قرميد . وحين توقفت العربة ، طالت المعانقات . بكت الأمّ ، ومسحت جانّ دمعتين ، أما الأب المنفعل ، فكان يتمشّى ذهاباً ومجيئاً .

في حين كانت الأغراض تفرغ من العربة ، كانت قصة الرحلة تروى أمام نار الصالون . تخرج الكلمات متدفقة ، غزيرة ، من فم جانّ . أخبرت كلّ شيء ، كل شيء ، في نصف ساعة ، إلاّ ربما ، بعض التفاصيل الصغيرة التي غابت عن هذا السرد السّريع .

ثم انصرفت المرأة الصبيّة تفكّ رُزَمها ، وروزالي تساعدها متعجبة . ولما انتهى ترتيب الحوائج ، كل حاجة في مكانها ، من بَياض وأثواب وأدوات تزيين ، غادرتها الخادمة . هي ، لم تكن راغبة في النزول مجدّداً إلى الصالون ، قرب أمها النائمة . فكّرت بنزهة . لكنّ الريف بدا حزيناً ، ومن خلال النظر عبر النافذة ، فقط ، أحسّت ثقل حزن في أعماق قلبها .

تنبّهت ، حينها ، أن لم يعد عندها ما تعمله ، أبداً ، لا شيء . كلّ صباها ، في الدير ، كان منصرفاً إلى المستقبل ،

منهمكاً بالأحلام . تلك الساعات ، ما كانت تشعر بمرورها ، في تلك الفترة ، لاختلاجها الدائم بحركة الآمال . وما كادت تخرج من دائرة الحيطان القاسية حيث تفتحت رؤاها ، حتى وجدت انتظارها الحب وهو تمّ . التقت بالرجل المفضّل ، أحبّته وتزوّجته خلال بضعة أسابيع ، كما يتزوّجون بمثل هذه القرارات المفاجئة ، وراح يحملها بين ذراعيه ، لا يتركها تفكّر في شيء .

لكنّ حلاوة واقع الأيّام الأولى ، سوف تنقلب واقعاً يومياً يقفل الأبواب بوجه الآمال اللامتناهية ، بوجه اضطرابات المجهول العذبة . نعم ، كان انتهى الانتظار .

اذن ، لا شيء ، تفعله اليوم ، لا غداً ، ولا في أي وقت .
وبلهفة كئيبة ، غامضة ، شعرت بالخيبة ، بانحسار أحلامها .

نهضت وأتت تلصق جبينها بالزجاج البارد . وبعد ان نظرت ، زمناً ، إلى السماء ، حيث تسبح غيوم دكناء ، قرّرت الخروج .

هل الريف هو نفسه ، والعشب نفسه ، والأشجار نفسها الكانت في شهر أيّار ؟ ماذا حدث ، إذن ، لفرحة الأوراق المنوّرة ، ولشعر العشب الكثيف الأخضر ، حيث كانت تتوهّج الهندباء البرية ، حيث كان ينزّ الخشخاش المنثور ، حيث كان يشع الأقحوان ، حيث كانت تختلج ، كما بطرف خيوط غير مرئية ، الفراشات الصفراء العجيبة ؟ ونشوة النسيم العابق بالحياة ، بالطيب ، بالذرّات الخصبة ، لم تعد موجودة .

الممرات المبتلّة بزخات المطر الخريفيةالدائمة تمتدّ ، مغطاة

ببساط كثيف من أوراق ميتة تحت هزال شجرات الحور العارية والمرتعشة . الأغصان النحيفة ترتجف في الهواء ، وتتحـرّك ، كذلك ، فيها ، بعض أوراق مستعدّة للتناثر في الفضاء . وهذه الأوراق الأخيرات ، الصفراء كلها ، الآن ، تشبه أوراقاً ذهبية ، تنفصل ، تدور ، تطير وتعود تسقط ، على امتداد النهار ، كما مطر ، لا ينقطع ، حزين ، حتى إثارة الدموع .

وصلت إلى الغيضة . محزنة ، كانت ، كما غرفة محشرِج . السور الأخضر ، الكان يفصل ويحوّل الممرات المتعرّجة اللطيفة ، سرّيّة ، كان تفرفط . الشجيرات المتشابكة ، كما تخاريج دقيقة من حطب ، تصطدم ، ببعضها ، أغصانها الهزيلة . وحفيف الأوراق المتساقطة ، واليابسة ، الكان يحملها النسيم ، ويحـرّكها ، ويكدّسها ، يبدو نهدةَ حشرجةٍ وجيعة .

عصافير صغيرة تقفز ، من مكان إلى آخر ، بصراخ خفيف خائف ، باحثة عن ملجأ .

بينما ، محميّتين من هواء البحر ، بستار كثيف من الدردار ، احتفظت الزيزفونة والدلبة بثوب الصيف ، الواحدة بثوب مخمليّ أحمر ، والأخرى حريري ليمونيّ ، مصبوغتين ، هكذا ، في أوائل البرد ، حسب طبيعة نسغهما .

تتمشّى ، جانّ ، في ممرّ الأم ، بخطى بطيئة ، على امتداد مزرعة آل كويّار . يرهقها شيء ، كأنه إحساس مسبق ، بضجر طويل لحياة رتيبة تبدأ .

ثم جلست على المنحدر ، حيث حدّثها جوليان ، للمرّة

الأولى ، عن الحبّ . وبقيت ، هنا ، كثيرة الأحلام ، بدون أن تحلم ، موهنة حتى القلب ، مع رغبة في النوم للتخلّص من حزن هذا النهار .

فجأة ، رأت طير نورس يجتاز الفضاء ، محمولاً في هبة ريح ؛ فتذكّرت ذلك النسر الكانت رأته ، هناك ، في جزيرة كورسيكا ، في وادي أوتا الظليل . أحسّت ، في قلبها ، الدغدغة الحية ، يثيرها تذكّر شيء جميل انتهى . ومن جديد ، تراءت لها ، الجزيرة المشعّة بعطرها الفريد ، بشمسها التي تنضج الليمون ، بجبالها ذوات القمم الوردية ، بخلجانها العميقة الزرقة ، وبوهادها حيث تهطل الشلالات .

لفّها المنظر المبلّل والقاسي الكان يحيطها ، مع تساقط الأوراق الجنائزيّ ، والغيوم الرماديّة التي يقودها الهواء ، بمناخ وحدة كثيف ، أعادها إلى البيت ، كي لا تشهق بكاء .

مخدّرة أمام المدفأة ، الأم ، تنام . ومعتادة حزنَ الأيام ورتابتها ، لم تعد تحسّها . الوالد وجوليان ، كانا ذهبا يتنزّهان متحدّثين عن أشغالهما . وهبطت الليلة ، زراعة الظل اللزج في البهو الواسع ، تنيره بلمعان انعكاسات النار .

خارجاً ، وعبر النوافذ ، بقيّة نهار تسمح بتمييز هذه الطبيعة الكدرة التي لآخر العام ، والسماء الرمادية التي كانت ممسوحة بالوحل .

ظهر البارون يتبعه جوليان . مذ دخل الغرفة الغارقة في الظلام ، قرع الجرس ، صارخاً : « ضوء ! بسرعة ! هذا حزين !

ضوء ! »

وجلس أمام المدفأة . وفي وقت يتصاعد بخار قرب اللهب ، من قدميه المبتلتين ، ووحل نعله يسقط ، جافاً بالحرارة ، كان يفرك يديه فرحاً : « أظن أنها ستكون جليديّة ، ستقسو السماء ، إلى الشمال ، تنجلي ؛ والقمر بدر ، الليلة ؛ ستكون قارسة ، هذه الليلة »

ثم ، مستديراً ناحية ابنته : « ايه يا ابنتي ، هل أنت سعيدة لعودتك إلى بلدك ، إلى بيتك ، قرب الشيخين ؟ »٠

هذا السؤال البسيط ، بلبَلَ جانّ . ارتمت بين ذراعي والدها ، عيناها مليئتان دموعاً ، وقبّلته بعصبيّة كمن يجد نفسه في العطاء . لأنه ، بالرغم من جهود قلبها لتكون مسرورة ، أحسّت نفسها حزينة ، حتى لتكاد تخور قواها . فكّرت ، مع ذلك ، بالفرح الوعدت به نفسها حين تعود إلى أهلها . تعجّبت لهذه البرودة تشل حنانها ، كما لو كثيراً فكّرنا ، من بعيد ، بالناس الذين نحبّهم ، وفقدنا عادة رؤيتهم كل ساعة ، فنحن حين رؤيتهم مجدّداً ، نعاني نوعاً من تحجّر العاطفة ، إلى أن تعود روابط الحياة المشتركة .

استمرّ العشاء طويلاً . ما عادوا تكلّموا . بدا جوليان ناسيًا امرأته .

بعد ذلك ، تراخت أمام النار في الصالون ، مقابل أمها النائمة تماماً ؛ ومستيقظة على صوت الرجلين ، تساءلت ، محاولة إشعال ذهنها ، إذا ما كانت ستغرقها عادات السّبات الكئيب التي لا يقطعها شيء .

لهب المدفأة ، متثاقلاً ومحمَّرًا أثناء النهار ، صار نشطاً ، صافياً ، مفرقعاً . ترمي ، كانت ، أضواءها المتراقصة على زخارف ، تغشو الكراسي العريضة ، على الثعلب والبجعة ، على مالك الحزين ، على الصرصار والنملة .

اقترب البارون مبتسماً ، ومادًّا أصابعه ، مفتوحة ، صوب الجمرات الحيَّة : « آه ! هذه تشتعل جيّدًا ، هذا المساء . تقسو ، يا أولادي ، تقسو . » ثم وضع يده على كتف جانّ ، ومشيرًا إلى النار ، قال : « تعرفين ، يا ابنتي ؟ هاك الأجمل في الأرض : الموقد ، الموقد مع الأهل . لا شيء يوازي هذا . لكن لو ننهض للنوم . متعبان ، ولا شك ، أنتما،أليس كذلك ؟ ».

تساءلت المرأة الصبية ، وهي صاعدة إلى غرفتها ، كيف أن عودتين إلى الأمكنة نفسها الكانت تحسب أنها تحبّ ، تكونان مختلفتين إلى هذا الحد . لماذا هي تحسّ نفسها ممزّقة القلب ، لماذا هذا البيت ، هذا البلد الحبيب، ، لماذا كل الذي ، حتى الآن ، كان يحيي قلبها ، لماذا هي تراه ، اليوم ، مؤلماً بهذا القدر ؟

وقعت عينها على ساعتها الدقّاقة في الحائط . كانت النحلة ما تزال تطير من الشمال إلى اليمين ، ومن اليمين إلى الشمال ، بالسرعة المعتادة نفسها والمتتابعة ، فوق زهور من قرمز . وبسرعة ، اخترق جانّ تيّار عاطفي ، خضّها حتى البكاء ، أمام هذه الآلة الصغيرة الكانت تبدو حيّة ، وتغني لها الوقت بدل أن تعلنه إعلاناً بسيطاً ، وتنبض كما قلب .

أكيداً ، ما تأثرت إلى هذا الحد ، وهي تقبِّل أباها وأمها .

للقلب أسرار لا يستطيع أي تفكير أن يكتشفها .

لأول مرة ، منذ زواجها ، وُجدت وحيدة في سريرها ، فجوليان ، متذرّعاً بالتعب ، استقلّ بغرفة أخرى . على كل حال ، كان تمّ الاتفاق على أن يكون لكلٍ غرفته .

تأخرت حتى استطاعت إلى النوم سبيلاً ، حائرة لكونها لا تشعر بجسد يحتكّ بجسدها ، ما عادت معتادة على النوم المنفرد ، وقلقة بسبب هواء الشمال الشرس المستبسل ضد السقف .

في الصباح ، أيقظها ضوء قويّ نفذ إلى سريرها ، صبغه بالدم ؛ وزجاج غرفتها ملطّخاً كلّه بطبقة خفيفة من الجليد ، كان أحمر كما لو أن الشفق كله يحترق .

ركضت ، متشحة بمئزر كبير ، إلى نافذتها وفتحتها .

نسيم جليدي ، صحي وقارس ، دلف إلى غرفتها ، بعنف هاجم جلدها ببرودة حادة أبكت عينيها . ووسط سماء أرجوانية ، شمس ضخمة حمراء زاهية ومنتفخة كسحنة ثمل ، كانت تظهر من خلف الأشجار . وأرجل أهل المزرعة ، تقرع الأرض المغطّاة بطبقة ، من الجليد ، بيضاء وخفيفة ، قاسية ويابسة . كل الأغصان الكانت تحمل بعض أوراق ، فقدتها في هذه الليلة . ووراء الأرض البائرة ، يظهر صف الموج الكبير ، المائل إلى الخضرة ، متناثرة فيه خطوط جليد خفيف بيضاء .

وفي الزوابع ، تعرّت ، بسرعة ، الدلبة والزيزفونة . ومع كل هبوب ريح جليديّ للأعاصير ، كانت تتناثر الأوراق ، في الهواء ، كأنها طيران عصافير . ارتدت ، جانّ ملابسها وخرجت ،

ولئلا تبقى خارجة لا إلى مكان ، زارت المزارعين .

آل مارتان ، رفعوا الأذرع ، والسيّدة قبّلتها على خدّيها ، ثم ألزموها على شراب كأس .

انتقلت إلى المزرعة الأخرى . آل كويّار رفعوا الأذرع ؛ السيّدة قبّلتها في أذنيها ، وكان عليها أن تبتلع كأساً صغيرة من عصير الكشمشة .

عادت ، بعد ذلك ، إلى الغداء .

ومرّ النهار ، كما السّهرة ، باردين بدل أن يكونا رطبين . وتشابهت أيام الأسبوع الأخرى ، مع هذين ، وكل أسابيع الشهر ، شابهت الأسبوع الأوّل .

غير أن تحسّرها على البقاع البعيدة ، راح يتضاءل شيئاً فشيئاً . ذلك أن العادة وضعت على حياتها طبقة ، من الاستسلام ، شبيهة برِفد كلسيّ تتركه ، بعض المياه ، على الأشياء . وولد،من جديد ، في قلبها ، نوع من الاهتمام بألف أمر ، لا معنى له ، في الوجود اليومي ، وكذلك ، همّ لأبسط وأتفه الانشغالات المطّردة . وراح ينمو ، فيها ، نوع من الحزن المتأمّل ، عدم رضى غامض على الحياة ومنها . ما كان يلزمها ؟ ماذا تريد ؟ ما كانت تدري . لم تتملّكها أيّة حاجة اجتماعيّة ؛ ولا أيّة لهفة للملاذ ، ولا أي انطلاق ولو لأفراح ممكنة ، أيّها ، على كلّ حال ؟ راح يفقد كل شيء لونه في عينيها ، كل شيء يمّحي ، يأخذ شكل الشحوب والكآبة ، كما تكمدّ كراسي الصالون العتيقة بفعل تراكم الزمن .

كانت علاقاتها بجوليان تغيّرت كليّاً . هو ، كممثّل أنهى

دوره واستعاد وجهه الحقيقيّ ، يبدو إنساناً آخر ، منذ العودة من رحلة الزواج . بالكاد يهتم بها أو يحدّثها . امّحى ، فجأة ، أي أثر للحب . نادرة جداً تلك الليالي الكان يدخل غرفتها فيها .

كان استلم إدارة الثروة والبيت ، أعاد تثبيت الدعائم ، أزعج المزارعين ، اختصر النفقات ، واستعاد هو نفسه ، من جديد ، ملامح المزارع البسيط ، وفقدمظهرهالبراق وأناقته كزوج .

ما عاد فارق ، أبداً ، ثوباً مخملياً قديماً للصيد ، مزخرفاً بأزرار نحاسيّة، بالرغم من أنه صار ملطخاً بالبُقع ، كان وجده في خزانة له عتيقة . ومجتاحاً بإهمال الناس الما عادوا محتاجين إعجاباً ، ما عاد حلق ذقنه ، فصار بشعاً إلى حدّ لا يُصَدّق بلحيته الطويلة غير المتناسقة . ما عاد اعتنى بيديه . وراح يشرب ، بعد كل وليمة ، أربعاً أو خمس كؤوس كونياك .

جانّ ، كانت حاولت أن توجّه إليه بعض ملاحظات لطيفة ، بنبرة أجابها : « ستتركينني هادئاً ، أليس كذلك ؟ » بعدها ، ما خاطرت ، مطلقاً ، بتوجيه النصائح إليه .

أذعنت لهذه التغيرات التي أذهلتها . كان صار غريباً ، بالنسبة إليها ، غريباً مقفلاً تجاهها قلبه وروحه . راحت تفكر متسائلة ، كيف صارا مجهولين واحدهما للآخر ، كأنما لم يناما متلاصقين ، بعد أن تلاقيا وتحابّا وتزوّجا في انطلاقة الحنان .

وكيف لا تتألّم أكثر لهذا الاهمال ؟ هل هي الحياة هكذا ؟ هل خابت آمالها ؟ ألم يكن لها ، بعد ، شيء في المستقبل ؟

هل كانت تألمت كثيراً ، لو بقي جوليان مرتّباً ، أنيقاً ،

مغرياً ؟

وتم الاتفاق على أن يبقى الزوجان الحديثا العهد ، وحدهما ، بعد رأس السنة ، وعلى أن يعود الوالد والوالدة يمضيان بعض أشهر في بيتهما بروّان. كان على الشابين أن يغادرا غيضة الحور ، هذا الشتاء ، لينهيا التركّز فيها ، ليعتادا ، وليفرحا في الأماكن حيث سيمضيان حياتهما كلّها . كان لهما جيران ، قدم جوليان إليهم امرأته . هم آل بريزڤيل ، آل كوتوليه وآل فورڤيل .

لكنهما لا يقدران بعد على بدء زياراتهما ، لأنه مستحيل ، حتى الآن ، أن يأتيا بالرسّام ليغيّر شعائر نبالة عربة الخيل .

ترك البارون ، لصهره ، عربة العائلة العتيقة . وجوليان ، ما كان رضي ـ للاشيء ـ في أن يقدم نفسه في القصور المجاورة ، لو أن شعار الشرف الذي لدى لامار ، لم يكن متقاطعاً مع شعار لوپرتوي دي ڤو .

إنما رجل واحد ، في القطر ، حافظ على اختصاص زخرفة نقوش شعاريّة ، هو رسّام من بولبيك ، اسمه باتاي ، يدعى إلى كل القصور النورماندية ، واحداً بعد الآخر ، ليثبت الزخارف الثمينة على أبواب عربات الخيل .

أخيراً ، ذات صباح من كانون الأول ، قبيل نهاية الغداء ، رأوا شخصاً يفتح باب السّور ويتقدم في الطريق المستقيم . يحمل ، على ظهره ، صندوقة . إنه باتاي .

أدخلوه الغرفة ، وقدّموا له طعاماً ، كما لو هو سيّد ، إذ ان خاصيّته ، علاقاته المستمرّة مع كل أرستوقراطية المقاطعة ، معرفته

بشعائر النبالة ، بأعلام مكرّسة ، بشعارات جعلت منه نوعاً من رجل فنّ الشعارات ، كلّ الرجال يسلّمون عليه بشدّ الأيدي .

طلبوا قلماً وورقة ، وفي حين كان يأكل ، راح البارون وجوليان يخطّطان شعاراتها المتقاطعة . فور أن دار الحديث حول هذا الأمر ، اهتزّت البارونة ، وأدلت برأيها ، حتى جانّ ، نفسها ، شاركت في الحديث ، كما لو أنّ اهتماماً سرياً استفاق ، فجأة ، فيها .

كان باتاي ، وهو يأكل ، يحدّد رأيه ، يأخذ ، أحياناً ، القلم ، يخط تصميماً ، يعطي أمثلة ، يصف كل السيّارات المولوية في الجوار ، يبدو حاملاً معه ، في روحه ، وحتى في صوته ، نوعاً من جوّ النبلاء .

رجل قصير ، هو ، شعره رمادي ومحفوف ، يداه ملطّختان ألواناً ، يفهم ماهيّة الأشياء . قيل انه كان يتعاطى عملاً قبيحاً بطبيعته ، لكن احترام العائلات كلها ذات الألقاب ، محت ، من زمان بعيد ، تلك الوصمة .

فور أن أنهى ارتشاف قهوته ، أخذ إلى مرآب السيارات ، ونزعوا القماش المشمّع الكان يغطي العربة . تفحّصه باتاي ، ثم أشار ، بمهابة ، إلى القياسات الضرورية لرسمه ، وبعد تبادل آراء أخير ، أكبّ على العمل .

برغم البرد ، طلبت البارونة مقعداً ، كي تنظر إليه يعمل ، ثم طلبت مدفأة صغيرة لقدميها المجلّدتين ، وانصرفت ، بهدوء ، تحدّث الرسّام ، سائلة إياه عن زيجات تجهلها ، عن ميتات وولادات

جديدة ، مكملة ، بهذه المعلومات ، شجرة الأنساب الفي ذاكرتها .

ظل جوليان قرب حماته ، على كرسيّ كما على حصان . يدخّن غليونه ، يبصق على الأرض ، يصغي ، ويتابع بنظره ، تلوين شعار نبالته .

توقف سيمون الوالد ، وكان ذاهباً إلى بستان الفاكهة ، ومعزقته على كتفه ، ليدقّق في العمل ، ولوصول باتاي عبر المزرعتين ، ما تأخّرت المزارعتان في الحضور . انذهلتا واقفتين من على جانبي البارونة ، مردِّدتين : « تلزم رشاقة أكيدة لاتقان هذه الأعمال ذات الأبعاد الكبيرة » .

ما انتهت شعائر شرف البوابتين إلا في الغدّ ، حوالى الحادية عشرة . حضروا جميعهم ، وقادوا العربة إلى الخارج ليحكموا بطريقة أفضل .

كان عملاً كاملاً . امتدحوا باتاي الذي عاد وصندُوقته على ظهره . واتفقوا جميعهم : البارون وزوجته وجانّ وجوليان ، على نقطة : كان أمكن أن يصبح هذا الشاب ، بدون شكّ ، فناناً كبيراً ، لو سمحت له الظروف . إنما ، بدافع اقتصاديّ ، أكمل جوليان إصلاحات اقتضت تحسينات جديدة .

ولكون الحوذيّ الختيار ، صار بستانياً ، اهتمّ الفيكونت نفسه بالقيادة ، وكان صرف صانعي المركبات ليتخلص من بعض نفقة .

وللامساك بالحيوانين حين نزول الأسياد ، اتّخذ خادماً

صغيراً ، هو بقار صغير اسمه ماريوس .

أخيراً ، ليوفّر حصانين ، أدخل شرطاً على إيجار آل كويّار وآل مارتان ، يرغمهما بموجبه ، على تقديم ، كل منهما ، حصاناً ، يوماً في الشهر ، في تاريخٍ يحدّده هو ، شرط أن يكونا معفيّين من إتاوة الدواجن .

أمّن ، إذن ، آل كويّار ، فرساً كبيراً بليداً بوبر أصفر ، وآل مارتان حصاناً صغيراً أبيض بشعر طويل ، قُرن الحيوانان جنباً إلى جنب . وماريوس ، الغارق في ثوب خدم قديم ، قاد العربة المجهّزة إلى أمام درج مدخل القصر .

استعاد جوليان شيئاً من أناقته القديمة ، حين اغتسل ، لكنّ لحيته الطويلة تكسبه ، رغم كل شيء ، مظهراً شعبياً .

دقّق في قرن الحيوانين ، والعربة والخادم الصغير وحكم بأن الأمر مرضٍ ، مركّزاً على كون الشعائر مرسومة من جديد ، لأن هذا هو الأهم بالنسبة إليه .

صعدت البارونة بتعب ، بعد نزولها من غرفتها مستندة إلى ذراع زوجها ، وجلست ، ظهرها إلى وسادات مطّاطة . وبدورها ، ظهرت جانّ . ضحكت ، أوّل الأمر ، لمنظر قرْن الحصانين ، قالت : الأبيض هو ابن الأصفر . وحين رأت ماريوس ، مدفوناً وجهه بقبّعته ذات العقدة التزينيّة ، الكان أنفه ، وحده ، يحدّ من نزولها ، يداه مختفيتان في عمق الأكمام ، والساقان غائصتان في ذيل لباسه القديم ، التي تخرج ، بغرابة ، من أسفله ، قدماه المتعلتان حذاءً ضخماً ، وحين رأته يقلب رأسه إلى الوراء ، ليستطيع أن

يرى ، يرفع قدمه ليخطو ، كما لو هو يريد تجاوز نهر ، ويتحرّك كما أعمى ليطيع الأوامر ، ضائعاً كله ، مختفياً في وساعة ثيابه ، حين رأت كل ذلك ، اعترتها ضحكة لا تُقهر ، ضحكة لا تنتهي .

استدار البارون ، لاحظ الرجل الصغير المنذهل ، وتاركاً نفسه للعدوى ، ضجَّ ، منادياً امرأته ، غير قادر على الكلام .

« ان . . . نظري ما . . ماريوس ! إنه طريف ! يا إلهي ، إنه طريف ! » .

مدّت البارونة رأسها صوب البوّابة ، وحين رأته ، ارتجت بنوبة مرح ، فارتجّت العربة بكاملها ، كما لو حصلت هزّة .

لكن جوليان سأل ، بوجه شاحب : « ما بكم تضحكون هكذا ؟ كأنكم مجانين » .

جانّ ، مريضة ، متشنجة الوجه ، عاجزة عن الهدوء ، جلست على إحدى درجات المدخل . حذا البارون حذوها ! وفي العربة ، عطاس تشنّجيّ ، شكل من القَرْق المتتابع ، يدل على ضيق نفَس البارونة . وفجأة ، بدأت ماريوس ، الطويلة ، تخفق . فهم ، بلا شكّ ، لأنه يضحك ، هو عينه ، بكل قوته ، في عمق قبعته .

انقضّ جوليان ساخطاً . وفصل ، بصفعة قوية ، القبّعة الكبيرة عن رأس الصبيّ ، وطارت على الحشيش الأخضر . ثم ، وهو يستدير صوب حميّه تمتم بصوت يرتجف حنقا : « يبدو لي أن الضحك ليس لكم . لم نكن وصلنا إلى هنا ، لو لم تبذر ثروتك

وتأكل ما لك . غلطة من تكون إن كنت انهرت ؟ »»

تجمّد كل المرح . ولم يقل أحد كلمة . جانّ ، الموشكة على البكاء ، صعدت حذّ أمّها . والبارون ، مفاجأ وأخرس ، جلس قبالة المرأتين ، وتمركز جوليان على المقعد ، بعد أن رفع إلى جانبه الولد المتلألئة عيناه دموعاً ، والمتورّم خدّه .

كانت الطريق حزينة ، وبدت طويلة . في العربة ، كانوا ساكتين . الثلاثة مقطّبون ، ومنزعجون ، لم يكونوا يـريدون الافضاء بما في قلوبهم . أحسّوا أنه ليس باستطاعتهم التحدّث في أمر آخر ، طالما تسكنهم هذه الفكرة المؤلمة ، وفضّلوا الصمت الحزين ، على هذا الموضوع الصعب .

على خبب الحيوانين ، غير المتناسق ، دخلت العربة ساحات المزارع ، فتهرب منها ، بخطوات كبيرة ، دجاجات سود مذعورة ، تغيب وتظهر في الحواجز . أحياناً ، يتبعها كلب كبير « يزأر » ، ثم يعود إلى بيته ، منتصب الوبر ، وهو عائد من جديد ليعوي صوب العربة . صبيّ ، ذو نعل ملوّث بالطين ، بساقين طويلتـين كسولتين ، ماشياً ، كان ، يداه في عمق جيبيه ، قميصه الزرقاء ينفخها الهواء من الظهر ، لما اقتربت العربة منه ، تنحّى ، تستطيع المرور ، وسحب ، بارتباك ، قبّعته ، فبان شعره السّابل الملتصق بجمجمته .

وبين مزرعة وأخرى ، كانت السهول تتكرَّر ، كل مرة بشكل ، بين مكان وآخر .

أخيراً ، اجتازوا ممر صنوبر طويلاً مفضياً إلى الطريق .

الأخاديد الموحلة والعميقة ، جعلت العربة تنحني وتتمايل ، والأم تصرخ . كان الحاجز الأبيض في آخر الممر مغلقاً . ركض ماريوس لفتحه ، وداروا حول بقعة عشب أخضر واسعة ، ليصلوا ، عبر طريق مكوَّر ، أمام بناءٍ عالٍ ، واسعٍ وحزين ، مصاريعه مقفلة .

سرعان ما انفتح الباب الأوسطُ ، وبدا خادم عتيق العمر ، مشلول ، مرتدٍ سترة حمراء ، ممشَّحة بالأسود ، تغطي مريول الخدمة ، نزل بخطوات صغيرة ، منحرفة ، درجات المدخل . استفسر عن اسم الزوّار ، وأدخلهم بهواً رحباً ، بعناء فتح مغالق الشبابيك المقفلة دوماً . الأثاث مغطّى بغطاء خاصّ ، ساعة الحائط والشمعدانات الكبيرة ، ملفوفة كلّها ، بشراشف بيضاء ، وهواء عَفِن ، قديم ، جليديّ ، رطب ، نفذ حتى الرئة والقلب والجلد .

قعدوا جميعهم ، وانتظروا . بعض خطوات سُمعت في ممشى الطابق العلوي ، دلّت على تعجّل غير معتاد . فوجِيء سكّان القصر ، إذ هم يرتدون ملابسهم بسرعة قصوى . طويلاً انتظروا . رنّ جرس صغير مرات عدة . خطوات أخرى نزلت درجاً ثم صعدت من جديد .

مسَّ البرد النافذ البارونة ، راحت تعطس بلا انقطاع . جولِيان يمشي طولاً وعرضاً . جانّ ، مقطِّبة ، بقيت جالسة قرب أمّها . والبارون ، مسنوداً ظهره إلى رخام المدفأة ، سكن محنيّ الجبين .

أخيراً ، دار واحد من الأبواب العالية ، كاشفاً عن الڤيكونت دي بريزڤيل والكونتيسة كانا قصيرين ، نحيفين ، متكلّفين ،

متردّدين ، لا يمكن تقدير عمرهما . المرأة بفستان حريريّ منقوش شجيرات ، معتمرة قبّعة ، ذات شرائط ، تدلّ على رفعة مقامها ، تتحدّث بسرعة بصوتها الخشن .

أما الزوج ، وهو بدا مشدوداً بسترة طويلة ، فسلّم مع التواءة بسيطة في ركبتيه . أنفه ، عيناه ، أسنانه المكشوفة الجذر ، شعره يبدو مطلياً بالشمع وثوب أبّهته الجميل ، كلها ، كلها ، تلمَع كما تلمع الأشياء المعتنى بها كثيراً .

ما عادوا وجدوا كلاماً يقولونه بعد أولى كلمات المجاملة ولياقات الجيرة . صاروا يهنّئون بعضهم بعضاً بغير ما سبب . يتمنون ، جميعاً ، أن تستمرّ علاقاتها الطيّبة . هذه كانت وسيلة ليروا بعضهم إذ يسكنون الريف كل السنة .

جوّ البهو الجليدي اخترق العظام ، أبحّ الحلق . صارت البارونة تسعل بدون أن يكون توقّف ، كلياً ، عطاسها . فأشار البارون بالرحيل . شدّد آل بريزڤيل : « بهذه السّرعة ؟ إبقوا قليلاً ، بعد » . لكنّ جانّ كانت نهضت بالرغم من إشارات جوليان بقصر الزيارة .

حاولوا دق الجرس ليأتي الخادم بالعربة . كان لايدقّ . فأسرع سيّد المنزل ، ثم عاد يعلن أن الحصانين في الاصطبل .

صار عليهم الانتظار . يبحث كل عن عبارة ، عن كلمة يقولها . تحدّثوا عن الشتاء الممطر . سألت جانّ ، ورعشات قلق غير إرادية تلازمها ، ماذا يمكن أن يصنع مضيفوهم ، وحيدين ، كلّ

السنة . عجب آل بريزڤيل للسؤال . كانوا يهتمـون ، بغير انقطاع ، مراسلين أهلهم النبلاء في كل مكان من فرنسا ، يمضون أيامهم بانشغالات صغيرة ، طقوسيّة ، الواحد تجاه الآخر ، كما مع الغرباء ، ويتحدّثون ، بعظمة ، عن أتفه أعمالهم » .

وتحت السقف العالي المسودّ ، في البهو الواسع والخالي من الناس ، كل شيء مربوط أو ملفوف بقماش أبيض ، الرجل وزوجته القصيران إلى هذا الحد ، النـظيفان بهـذا المقدار ، المستقيمان إلى هذه الدرجة ، بديا لجانّ وكأنهما من محفوظات الطبقة النبيلة .

تقدّمت ، أخيراً ، العربة أمام النوافذ ، مع حماريها غير المتعادلين . لكنّ ماريوس كان اختفى : حاسباً نفسه حراً حتى المساء ، راح ، ولا شكّ ، يتنزه في الريف .

غضب جوليان وتمنى أن يعيدوه مشياً ، وبعد تحيات كثيرة ، من كلا الجانبين ، عادوا إلى غيضة الحور .

راحت جانّ ووالدها ، فور تمركزهم جميعاً في العربة ، وبالرغم من الوسواس الثقيل الباقي من فظاظة جوليان ، يضحكان مستعيدين حركات ونبرات صوت آل بريزڤيل . كان البارون يقلّد الزوج ، وجانّ تمثل دور المرأة ، لكنّ البارونة المختبرة قالت : « أنتما على خطأ في أن تهزآ هكذا . هم أناس من عليّة القوم ، متحدرون من عائلات ممتازة » . سكتا لئلا يناقضا الأم ، لكنهما ، بين حين وآخر ، بالرغم من كل شيء ، كانا يستعيدان شيئاً من ذلك ناظراً واحدهما الآخر . هو ، حيا بطريقة رسميّة ، وقال بنبرة ارتسامية :

« يجب أن يكون قصركم ، في غيضة الحور ، بارداً جداً ، سيّدتي ، مع هذا الهواء البحريّ يزوره كلّ يوم ؟ » أخذت جانّ طابع التكلف ، ومتظارفة ، مع هزّة صغيرة من الرأس ، شبيهة بهزة رأس بطة تستحمّ ، قالت : « آه ! هنا ، يا سيّدي ، عندي ما يشغلني طوال السنة . ثم ، لنا أهل كثيرون نكتب إليهم . ويترك السيّد بريزڤيل كلّ شيء لي . هو يهتم بأبحاث علميّة مع الكاهن پل . يؤلّفان ، معاً ، تاريخ نورماندي الديني » .

ابتسمت البارونة بدورها مناقضة وواعظة ، وردّدت : « غير جدير بنا أن نهزأ هكذا من أهل طبقتنا » .

وفجأة توقفت العربة ، وراح جوليان يصرخ ، منادياً أحداً من الوراء . حينها يكون جانّ والبارون انحنيا على الأبواب ، رأيا كائناً فريداً ، بدا يتدحرج نحوهم . الساقان مرتبكتان في تنورة ثوب الخدم الطائرة ، قبّعة مترنحة تعمي عينيه ، محرّكاً أكمامه كأنها أجنحة طاحونة ، متخبّطاً ببرك المياه الواسعة الكان يجتازها على غير هدى ، متعثّراً بحجارة الطريق ، متحركاً قافزاً ، مغطى بالوحل ، إنه ماريوس . كان يتبع العربة بكل سرعة قدميه .

فور التقطه ، انحنى جوليان وأمسكه من ياقته ، وجلبه إلى قربه ثم ترك الزمام ، وراح يضرب القبعة ، غارت حتى كتفي الصبي ، طنّانة كما طبل . صار يزعق ، يحاول الهرب ، والقفز عن المقعد ، بينما سيّده يمسكه بيده ، وبالأخرى يضربه .

ثارت جانّ مهتاجة ، تمتمت : « أبي . . . أبي ! » ونهضت البارونة ناقمة شادة ذراع زوجها . « إمنعه ، يا جاك ! » حينها ،

وبحركة عنيفة سريعة أنزل البارون الزجاج الأماميّ ، وممسكاً بكمّ صهره ، وبصوت راعد ، زعق : « هلاّ أوقفت ضرب هذا الولد ؟ » .

استدار جوليان إذ فوجىء : « ألا ترى كيف صار ثوبه ؟ » .

لكن البارون ، مدّ رأسه بينهما ، وقال : « ما همّني ! لا نكون عنيفين إلى هذا الحدّ » . من جديد ، غضب جوليان : « دعني ، إذا سمحت ، هذا ليس من شأنك ! » ورفع يده ، مرة بعد . لكنّ حميّه أمسكها بغضب وتركها بقوة حتى إنها خبطت بخشب المقعد ، وصرخ بعنف كبير : « إذا لم تتوقّف ، أنزل ، وأعرف ، أنا ، كيف أوقفك ! » فهدأ القيكونت فجأة ، وهمز الحيوانين فخبّا سريعاً ، بعد أن هزّ كتفيه وما أجاب .

شاحباً وجههما ما عادت المرأتان ، تحرّكتا . وسُمِع ، بوضوح ، ضربات قلب البارونة الثقيلة .

على العشاء، كان جوليان عذباً، وكأن شيئاً لم يحدث. وبعطفهم الكبير ، نسي البارون وجانّ والسيدة أدلائيد ، ما كان حصل ، ورقّ قلبهم لرؤ يته أنيساً ، وانغمسوا في جوّ مرح ، بإحساس سعادة من يتعافى . وبما أن جانّ ، تحدّثت مجدّداً ، عن آل بريزقيل ، مزح زوجها نفسه ، لكنه أضاف بسرعة : « لا بأس ، هم عليّة القوم » .

ما عادوا قاموا بزيارات أخرى ، يخاف ، كلٌّ منهم ، إثارة مسألة ماريوس ، مجدّداً . فقط قرّروا إرسال بطاقات للجيران ، بمناسبة رأس السنة ، وأن يزوروهم في بدايات الربيع المقبل .

حلّ الميلاد . دعوا على العشاء ، الخوري والمختار وزوجته . دعوهم ، مجدّداً ، يوم رأس السنة . الأمران هذان ، فقط ، حطّما تسلسل الأيّام الرتيب .

على الوالد والوالدة أن يغادروا غيضة الحور في التاسع من كانون الثاني . أحبّت ، جانّ ، استبقاءهم بعد ، لكنّ جوليان ما اهتم أبداً . وأمام برودة صهره المتعاظمة ، طلب البارون مركبة بالأجرة .

ليلة رحيلهم ، كانت الرزم جاهزة ، وبما أن الليلة كانت صافية ، قرّرت جانّ ووالدها النزول إلى إيبور حيث لم يذهبا ، أبداً ، منذ العودة من جزيرة كورسيكا .

اجتازا الغابة الكانت قطعتها يوم زفافها ، مأخوذة كليًّا ، بمن سيكون ، من يومها ، رفيقها الدائم ، الغابة ، حيث داعبها ، لأوّل مرة ، واجتاحتها أول رعشة ، وأحسّت هذا الحبّ الحسّي ، الذي ما عرفته إلا في وادي أوتا المتفرّد بطابعه ، قرب النبع ، حيث شربا ، ممتزجة قبلاتهما بالماء .

لا أوراق ، لا أعشاب عالية ، ليس إلّا صوت الأغصان ، وحركة الأشجار الصغيرة العارية .

دخلا القرية الصغيرة . الشوارع الخالية والساكتة ، تحتفظ برائحة بحر ، بفوقس وبسمك . كانت الشباك المدبوغة الواسعة ، تجفّ ، معلّقة أمام الأبواب ، أو على الحصى الناعم . والبحر الرمادي والبارد ، بزبده الخالد والمزمجر ، بدأ ينزل ، كاشفاً ، صوب فيكام ، الصخور المائلة إلى الاخضرار على قدم الشواطىء

الصخرية تلك . وعلى طول الشاطىء ، كانت المراكب الكبيرة المائلة على جنبها ، تبدو سمكات كبيرات ميتة . هبط المساء ، فجاء الصيّادون جماعات ، يمشون بثقل بجزماتهم البحرية الكبيرة ، العنق ملتف بالصوف ، ليتر من ماء الحياة في يد ، وفي الأخرى فانوس الزورق . طويلاً ! داروا حول الزوارق المحنيّة . وضعوا على حدّها ، بالبطء النورماندي ، شباكهم ، طوافاتهم ، رغيفاً كبيراً ، وعاء زبدة ، وكأساً . ثم جذبوا ، صوب المياه ، المركب ، وكانوا سوّوه ، فانحدر بسرعة وضجة كبيرة على الحصى الناعم ، ماخراً الزبد ، صاعداً على الأمواج ، متمايلاً بضع ثوانٍ ، فاتحاً أجنحته السمراء ، ثم مختفياً في الظلام ، بنوره القليل عند طرف السارية .

ونساء البحارة الضخمات ، ذوات الهيكل العظمي الناتىء ، تحت الثوب الرقيق ، بقين حتى رحيل آخر صيّاد ، وعدن إلى القرية النعسانة . زاعجات رقاد الشوارع السوداء الثقيل ، بأصواتهن الحادة .

البارون وجانّ ، راحا ، يتأملان ، واقفين ، ابتعاد هؤلاء الرجال في العتمة ، يذهبون ، هكذا ، كلّ ليلة ، يتحدّون الموت لئلا يموتوا جوعاً ، ومع ذلك ، مساكين هم ، لا يأكلون ، أبداً لحماً .

همس البارون ، منذهلاً أمام المحيط : « مرعب وجميل . هذا البحر ، تسقط عليه الظلمات ، وفيه كثيرون من المجازفين ، كم يبدو هائلاً ! أليس كذلك جانيت ؟ » .

أجابت ، وعلى ثغرها بسمة مجلّدة : « هذا لا يوازي ، مطلقاً ، المتوسّط » .

لكن والدها قال ، ساخطاً نوعاً : « المتوسّط ! زيت ، مياه بسكّر ، مياه زرقاء لدلو غسيل . أنظري هذا كم مخيف بقمم زبده ! وفكّري بكلّ هؤلاء الرجال الذين ذهبوا إلى هناك ، ولم نعد نراهم » .

بنهدة ، خضعت جانّ : « نعم ، إذا شئت » . لكنّ هذه الكلمة الكانت أتت على شفتيها ، « المتوسّط » ، كانت ، من جديد ، أثارت قلبها ، أهملت كلّ فكرها صوب الأصقاع البعيدة حيث تتناثر أحلامها .

وبدل أن يعودا عبر الغابة ، عرّجا في طريق وصعدا في الشاطىء ، بخطى وئيدة . ما كانا ينطقان ، حزينين للانفصال القريب .

أحياناً ، وهما يجتازان حفائر المزارع ، كانت تصفع وجوههم ، رائحة تفّاح مهروس ، هذه الرائحة لعصير التفّاح المنعش الذي يبدو يتموّج ، في هذا الفصل ، في كل الريف النورماندي ، أو عطر دسم من اصطبل ، هذه العفونة التي تفوح حارّة ، وتنتشر من زبل البقر . كانت نافذة صغيرة مضاءة ، في آخر الساحة ، تدلّ على بيت السكن .

وكان يبدو ، لجانّ ، أن روحها تتّسع ، تفهم أشياء غير مرئيّة ، وهذه الأضواء المتناثرة في الحقول ، أعطتها ، فجأة ، الاحساس الحيّ بالوحدة التي لجميع الكائنات ، التي يفرّقها كلّ

شيء ، يفصلها كلّ شيء ، بعيداً عن كلّ ما أحبّت .

حينها ، قالت ، بصوت مستسلم : « ليست الحياة دائماً فرحة » .

وتنهّد البارون : « ماذا تريدين ، يا ابنتي ، فنحن لا نستطيع شيئاً » .

في الغد ، بعد ذهاب الأب والأم ، بقي الاثنان : جانّ وجوليان ، وحيدين .

VII

ودخل لعب الورق في حياتها . كان جوليان ، بعد غداء كل يوم ، وهو يدخّن غليونه ، ويتغرغر بالكونياك يشرب منه ، شيئاً فشيئاً ستة أو ثمانية أقداح ، يلعب الورق مع زوجته . بعدها ، تصعد إلى غرفتها ، تجلس إلى النافذة . وفي وقت ، يروح المطر يقرع الزجاج ، أو يخبطه الهواء ، تكون هي تطرز ، بعناد ، زينة تنّورة . أحياناً ، ترفع عينيها ، متعبة ، وتتأمّل ، في البعيد ، البحر الداكن المزبد والمرغي . ثم ، بعد دقائق من هذا النظر الساهم ، تعود فتنكب على التطريز .

لم يكن عندها ما تعمل سوى هذا . كان جوليان استأثر بإدارة البيت كلّها ، ليرضي ميوله السلطويّة ولهفته الاقتصاديّة . وظهر شرس البخل ، فما عاد يعطي ، أبداً ، حُلواناً ، واختزل الغذاء ، إلى الحدّ الأقصى من الضروريات ؛ وبما أنّ جانّ ، منذ مجيئها إلى غيضة الحور ، كانت اعتادت ، كلّ صباح ، على طُلمية نورماندية صغيرة ، ألغى هذا الانفاق ، وحكم عليها بالخبز المحمّص .

ولتنجو من الشروحات والمناقشات والمخاصمات ، كانت تضمت ، لا تقول شيئاً . لكنها تتألّم ، مع كل تصرّف بخيل جديد ، كما لو كانت تُنخز بالإبر . يبدو لها هذا الأمر دنيئاً وشنيعاً ،

هي الناشئة في عائلة ما كان يُحسب للمال ، فيها ، أيُّ حساب . فكم مرة سمعت والدها يقول لأمها : « اخترُع المال للإنفاق » . والآن ، جوليان يكرّر : « ألا تستطيعين ، إذن ، أبداً ، أن لا ترمي النقود من الشباك ؟ » وكل مرّة يقلّل ، ولو بعض فلوس قليلة ، من مصروف أي أمر ، يبتسم ، ويقذف النقود إلى جيبه ، يقول : « السواقي الصغيرة تؤلف النهرِ الكبير » .

مع هذا ، كانت جانّ ، في بعض الأيّام ، تترك نفسها تحلم . تتوقّف ، ببطء ، عن العمل ، واليدان رخوتان ، والنظر مغمض ، تعيد واحدة من رواياتها الطفولية حين تكون راحت في مغامرات عذبة . لكن صوت جوليان ، فجأة ، يصدر أمراً لسيمون ، يستعيدها من تمرجحها في الأحلام ، فستعيد شغلها الصبور قائلة لذاتها : « انتهت ، كل هذه » . وتنزل دمعة على أناملها التي تكون تخز الإبرة .

كذلك روزالي ، المرحة في الزمن الماضي ، والمغنية أبداً ، تغيّرت . خدّاها الممتلئان ، فقدا حمرتها ، وهزلا ، ويبدوان ، مرات ، وكأنهما ممسوحان بالتراب .

كثيراً ما تسألها جانّ : « هل أنت مريضة ، يا ابنتي ؟ » وتجيب دوماً : « كلا يا سيدتي » . يتصاعد إلى خديها ، قليل من الدم ، وتنقذ نفسها بسرعة ، تختفي .

بدلاً من أن تركض ، كما من زمان ، كانت تجرّ قدميها بصعوبة ، وما عادت تبدو غنجة ولا تشتري ، بعد ، شيئاً من البائعين المتجوّلين الكانوا يصرفون عليها ، سدًى ، أثوابهم

الحريرية ، ومشدّاتهم وعطوراتهم المتنوّعة .

يبدو خالياً ، البيت الكبير ، كئيباً ، بسطحه تلطّخه الأمطار الطويلة الزخّات الرماديّة .

أواخر كانون الثاني ، تساقطت الثلوج . من بعيد ، الغيوم البيضاء الكبيرة آتية من الشمال ، فوق البحر الداكن ، وبدأ سقوط الرقع البيضاء . بليلة واحدة ، انطمر السهل كلّه ، وفي الصباح ، بدت الأشجار مزيّنة بهذا الزبد من الثلج .

جوليان ، منتعلاً جزمة عالية ، أشعث الشعر ، يمضي وقته ، في طرف الغيضة ، وراء الحفرة المؤدية إلى البَراح ، يترصَّد العصافير المهاجرة . بين وقت وآخر ، كانت طلقة نار تكسر صمت الحقول الجليدي ، فتطير أسراب غربان سوداء مذعورة ، من الأشجار الكبيرة وهي تدور .

ومستسلمة للضجر ، كانت جانّ ، مرّات ، تنزل درج المدخل . صخب الحياة يتناهى إليها من البعيد ، ينعكس على الهدوء النائم لهذه الأجواء الدكناء الكئيبة .

ثم تعود لا تسمع إلانوعاً من ضجيج الأمواج البعيدة ، وانزلاق غبار الماء الجليدي ، الهاطل باستمرار .

ويروح الثلج يرتفع بغير توقّف ، لتساقط هذه الرقع الكثيفة والخفيفة في استمرار .

في واحد من تلك الصباحات الشاحبة ، وكانت جانّ جامدة تدفىء قدميها على نار غرفتها ، وروزالي تسوّي ، على مهل ، السرير ؛ سمعت ، فجأة ، خلفها ، نهدة وجيعة . بدون أن

تلتفت ، سألت : « ما بكِ ؟ »

كما كل مرة ، أجابت الخادمة : « لا شيء ، سيّدتي » ؛ لكن صوتها بدا كسيراً ، شاهقاً .

كانت فكّرت ، جانّ ، بأمر آخر ، حين لاحظت أنها ما عادت تسمع حركة الفتـاة . نادت : « روزالي ! » مـا تحرّك شيء » . حينها ، ظنّتها خرجت بدون ضجّة ، فنادت بصوت أقوى : « روزالي ! » وكانت سترفع يدها لتقرع الجرس ، حين سمعت نحيباً عميقاً قريباً جدًّا منها ، استوقفها وأرجفها قلقاً .

كانت الخادمة الصغيرة ، شاحبة الوجه ، وحشيّة العينين ، جالسة على الأرض ، القدمان ممدودتان ، الظهر مستند إلى خشب السرير .

انطلقت جانّ : « ما بكِ ، ما بكِ ؟ »

ما فاهت الأخرى بكلمة ، ولا أتت بحركة . كانت تركّز ، على سيّدتها ، نظرة مجنونة ، وتتنفّس كما لو يمزّقها ألم غريب الأثر ، مخيف . ثم ، فجأة ، مادّة كل جسدها ، زلقت على ظهرها ، خانقة بين أسنانها الضاغطة ، صرخة استغاثة .

تحرّك شيء ، تحت ثوبها المرتفع حتى الفخذين المفتوحتين . ومن هنا ، أيضاً ، صارت ضجّة مميّزة ، بقبقة ، نهدة حلق غاصّ يختنق . ثم فجأة ، مواء قطة طويل ، أنين خافت وموجع ، أول نداء ألم لطفل دخل الحياة .

فهمت جانّ ، فركضت ، شاردة الرأس ، على الدرج صارخة : « جوليان ، جوليان ! » .

أجاب من تحت : « ماذا ؟ »

بجهد قالت : « إنها . . . إنها روزالي التي . . . ».

انطلق جوليان ، صاعداً الدرج اثنتين اثنتين ، وداخلاً ، بسرعة الغرفة ، نزع ، دفعة واحدة ثياب الفتاة ، واكتشف قطعةلحم صغيرة فظيعة ، متغضّنة ، متأوّهة ، متشنّجة ولزجة كلياء تتحرّك بين فخذين عاريتين .

نهض ، وأخرج ، بوجه شرّير ، امرأته الشاردة : « هذا لا يعنيك . إذهبي . أرسلي لي لوديفين وسيمون ».

نزلت جانّ ، مرتجفة ، إلى المطبخ ، ثم لم تعد تجرؤ على الصعود ، فدخلت الصالون الكان بقي بدون نار منذ رحيل أبويها . وانتظرت ، بقلق ، الأخبار .

رأت الخادم يخرج راكضاً . بعد دقائق خمس ، عاد مع الأرملة دنتو ، القابلة القانونية في المنطقة .

حدث على الدرج تحرُّكٌ كما لو ينقلون جريحاً . وجاء جوليان يعلن لزوجته انها تستطيع الصعود إلى غرفتها .

ترتجف ، كانت ، كما لو انها حضرت حادثة كارثـة . جلست ، مجدَّداً ، أمامِ النار ، ثِم سألت : « كيف هي ؟ ».

جوليان ، منشغلاً ، عصبياً ، يمشي في أرجاء الغرفة . حنق بدا يظهر عليه . ما أجاب بشيء ، أول الأمر . ثم ، خلال بضع ثوانٍ ، توقف : « ماذا ستفعلين بهذه الفتاة ؟ ».

لم تفهم . نظرت إلى زوجها ، قالت : «ماذا ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ لا أدري ، أنا ».

فجأة ، استشاط غضباً ، وصرخ : « لا يمكننا الاحتفاظ بولد غير شرعي في البيت ».

ظلّت ، ، جانّ ، مرتبكة جدًّا . وبعد صمت طويل : « ربما أمكننا وضعه عند حاضنة ».

لم يدعها تكمل : « ومن سيدفع ؟ أنتِ بلا شك ؟ ».

فكّرت ، بعد ، طويلاً ، باحثة عن حلّ . أخيرًا قالت : « لكنّ والده سيتكفّل به . وإذا ما تزوّج روزالي ، لن تبقى صعوبات ».

وكما في آخر حدود الصبر ، وغاضباً ، قال جوليان : « الأب ! . . . الأب ! . . . هل تعرفين . . . الأب ؟ . . . لا ، أليس كذلك ؟ إذن ؟ . . . ».

متعجّبة ، تحمّست جانّ : « لكنه ، بالتأكيد َ، لن يترك الفتاة هكذا . يكون نذلاً ! نسأل عن اسمه ، نذهب نجده ، هو يشرح الأمر ويهتمّ ».

كان هدأ . عاد يمشي : « حبيبتي ، لا تريد أن تصرّح باسم الرجل . لن تبوح به لكِ ، ولا لي . . . وإذا كان لا يريدها ، هو؟ . . . نحن لا يمكننا أن نبقي ، تحت سقفنا ، فتاة/ أمًّا مع ولدها غير الشرعيّ ، تفهمين ؟ ».

مسرسبة ، قالت : « هو فقير ، إذن ، هذا الرجل . إنما يجب ، تماماً ، أن نعرفه . حينها ، نستخدمه عندنا »

احمرّ جوليان تماماً ، غضب أيضاً ، زمجر : « ولكن . . . بالانتظار . . . ؟».

ما عرفت ما تقرِّر . سألته : « ماذا تقترح ، أنت ؟ ».
بسرعة ، قال رأيه : « آه ! أنا ، الأمر سهل جدًّا . أعطيها مالاً وأصرفها إلى الشيطان ، مع طفلها ».

لكنَّ المرأة الصبيّة ثارت ساخطة : « هذا مستحيل . هي أختي بالرضاعة . معاً كبرنا . اقترفت ذنباً ، لا بأس . لن أرميها خارجاً لهذا السبب . وإذا لزم الأمر ، أربّيه ، هذا الطفل ».

حينها ، انفجر جوليان : « وسيكون لنا صيت نظيف ، نحن ، مع اسمنا وعلاقاتنا ! وسيقولون ، أينما كان ، إننا نحمي الرذيلة ، إننا نأوي العاهرات . فلا يعود يأتي إلى هنا الرجال المحترمون . بمَ تفكرين ؟ مجنونة ! ».

هادئة مكثت . « لن أهمل ، أبداً ، روزالي . وإن شئت ألاّ تحتفظ بها هنا ، تأخذها أمي إليها . ويجب أن ننتهي ، تماماً ، إلى معرفة والد هذا الطفل ».

خرج حانقاً ، خابطاً الباب ، صارخاً : « ما أغبى النساء وأفكارهنّ ! ».

بعد الظهر ، صعدت جانّ عند روزالي . كانت في سريرها ، مفتوحة العينين ، تعتني بها الأرملة دنتو وتمرجح الطفل بين يديها .

روزالي ، مذ رأت سيّدتها ، بدأت تشهق ، مخبّئة وجهها بأغطيتها ، مهتزّة يأساً . أرادت جانّ أن تقبّلها ، لكنها قاومت ، وتحجّبت . تدخّلت الحارسة ، كشفت لها وجهها . تركت جانّ تقبّلها ، وهي تبكي ، إنما بهدوء .

كان برد . نار خفيفة شاعلة في المدفأة . الطفل يبكي . ما

جرؤت جانّ في التحدّث عن الطفل خوفاً من نوبة أخرى . وممسكة بيد الخادمة ، ردّدت بلهجة آليّة : « لا عليكِ ، لا عليكِ » . تختلس المسكينة النظر إلى الحارسة ، ترتعد لصوت الولد . بقيّة غمٍّ يخنقها ، يتفجّر ، لحظات ، بشهقة متشنّجة ، في حين الدموع الباقية في العينين ، تنزل ، محدثة صوت مياهٍ ، في حلقها .

مرة بعد ، قبّلتها جانّ ، ووشوشتها : « سنعتني بكما جيداً ، لا تخافي » . وخرجت حين شعرت بأنّ موجة بكاء جديدة اعترت روزالي .

كانت تزورها كل يوم ، وكل مرة تنفجر روزالي بكاء وشهقات حين ترى سيّدتها .

وُضع الولد عند جارة ترضعه وتهتمّ به .

في هذه الأثناء ، كاد جوليان لا يتحدث إلى امرأته . كما لو انه غاضب منها غضباً شديداً ، منذ أن رفضت طرد الخادمة . مرة ، عاد إلى هذا الحديث ، لكن جانّ أطلعته على رسالة من البارونة تطلب فيها إرسال الخادمة إليها ، إن كانوا لا يودّون الاحتفاظ بها عندهم .

فصرخ جوليان ، غاضباً : « أمّكِ مجنونة مثلكِ » . لكنه لم يصرّ على الحديث .

بعد خمسة عشر يوماً ، كان بقدرة روزالي أن تقوم بالخدمة من جديد . فأجلستها ، يوماً ، جانّ ، آخذة إياها من يديها ، ناظرة إليها بتركيز :

- « هيّا ، يا ابنتي ، صارحيني بكل شيء » .

بدأت روزالي ترتجف ، وسألت :

- « عمّ يا سيّدتي ؟ »

- « لمن هو هذا الطفل ؟ »

حينها ، عاد إليها يأس رهيب ، وراحت تبحث ، منذهلة ، عن طريقة تحرّر بها يديها لتخبىء وجهها .

لكنّ جانّ قبّلتها ، رغماً عنها ، وعزّتها : « هذا شقاء ، ماذا تريدين يا ابنتي ؟ كنت ضعيفة . لكن هذا يحصل كذلك لسواكِ . إذا كان والد طفلك يتزوّجك ، لا أحد يعود يفكّر بالحادثة ، ونضمّه إليكِ في الخدمة عندنا » .

راحت روزالي تنتحب كما لو يعذّبونها بشدة ، وبين لحظة وأخرى ، كانت تحاول إفلات يديها لتختفي .

تابعت جانّ : « أفهم تماماً خجلك . لكنّك ، ترين ، أنني غير غاضبة ، وأنني أكلّمك بلطف . إذا كنتُ أسألكِ عن الرجل ، فلخيركِ أنتِ ، ولشعوري بشقائكِ إن تخلّى عنك ، وأريد أن أمنع هذا من أن يحصل . يذهب ، جوليان ، يجده ، ونلزمه بأن يتزوّجك ، وبما أنّنا سنحتفظ بكما معاً ، فنحن نلزمه أيضاً في إسعادك » .

عملت ، روزالي ، هذه المرة ، جهداً كبيراً مفاجئاً وأفلتت يديها من يدي سيّدتها ، واختفت كما مجنونة .

مساءً ، وقت العشاء ، قالت جانّ لجوليان : « أردت روزالي تخبرني إسم من أوقعها . ما نجحت . حاول ، أنت إذن ، من

جهتك ، لنُكره هذا البائس على الاقتران بها » .

لكن جوليان غضب بسرعة : « تعرفين ، أنتِ ، لا أريد ، أبداً ، سماع هذه القصة ، أنا . أردتِ الاحتفاظ بها ، فاحفظيها ، إنما لا تزعجيني بعد ، بهذا الأمر » .

كان يبدو ، منذ حادثة الولادة ، سيىء الطبع ، سريع الانفعال . واعتاد أن لا يتحدث إلى امرأته بدون أن يصرخ ، كما لو انه غاضب باستمرار ، بينما هي ، على عكس ذلك ، تخفض صوتها ! تبقى هادئة ، متساهلة لتجنُّب كلّ مشاجرة . وغالباً ما كانت تبكي ، ليلاً ، في سريرها .

أمّا زوجها ، وبالرغم من انفعاله السريع ، فكان استعاد عادات حب منسيّة منذ عودتها ، ونادراً ما كانت تمضي ثلاث ليالٍ متتابعة ، بغير أن يدخل الباب الزوجي .

روزالي ، بسرعة شفيت ، وصارت أقلّ حزناً ، مع كونها بقيت مذعورة ، يلاحقها خوف مجهول .

ومرتين بعد ، أنقذت نفسها ، حين كانت جانّ تحاول سؤالها من جديد .

وبدا جوليان ، فجأة ، محبَّباً أكثر ، وتعلّقت المرأة الشّابة ، مجدَّداً ، بآمال مبهمَة . استعادت أفراحها ، مع كونها ، أحياناً تتألَّم من توعّكات خاصّة لا تخبر ، بها ، أحداً . ما ذاب الجليد ، ومنذ أسابيع خمسة ، تبدو السماء صافية كما بلّور أزرق ، نهاراً وليلاً ، مزروعة نجوماً ، تُظَنّ حبّات جليد ، طالما الفضاء الواسع قارسٌ ، ويمتد فوق غطاء موحَّد ، قاس ولامع ، من الثلوج .

كانت المزارع المنفردة تبدو نائمة بقميصها الأبيض ، في ساحاتها المربّعة خلف ستائرها من الأشجار الكبيرة الملتفّة بصقيعها المتجمّد . ما يخرج أحد ، فقط مدافىء الأكواخ تدلّ على الحياة المختبئة ، من خلال دخانها النحيف المتصاعد في الجوّ الجليدي .

كل شيء يبدو ميتاً ، قتله البرد : السهل ، الحواجز ، دردار الأسوار . . . وبين وقت وآخر ، يُسمَع تقصّف أشجار ، كما لو أنّ أعضاءها تتكسّر تحت القشرة . ومرات ، غصن ضخم ينفصل ويقع ، فالجليد لا يُقهر ويجمّد النُسغ ويكسر الألياف .

بقلق تنتظر جانّ عودة النسمات الفاترة ، عازيةً ، كلّ الآلام المبهمة الكانت تعاني منها ، إلى قساوة الطقس الرهيبة .

مرات ، ما كانت تستطيع أن تأكل ، تقرف أمام كل غذاء . ومرات ، يطرق نبضها بجنون . ومرات ، تصيبها وقعاتها الخفيفة بعسر الهضم . وأعصابها المتوترة ، تهتزّ بغير انقطاع ، تجعلها تحيا هياجاً عصبياً ثابتاً لا يُطاق .

ذات مساء ، تدنّت الحرارة أكثر ، وفيما كان جوليان يرتجف وهو خارج من غرفة الطعام (لأنه لم يكن يدفىء الغرفة كفاية ، كونه يقتصد الحطب) ، فرك يديه وهمس : « يكون أفضل لو نمنا معاً هذه الليلة ، أليس كذلك ، يا قطتي ؟ » .

ضحك لضحكه الطفولي ذاك ، وقفزت جانّ إلى عنقه . إنما أحسّت نفسها متضايقة ، هذا المساء ، ومتوجّعة ، ومتوترة الأعصاب بغرابة ، فتوسّلت إليه ، بصوت خافت ، مقبّلة شفتيه ، لأن يدعها تنام وحدها . أخبرته ، ببعض كلمات ، ألمها :

- « أرجوك ، يا حبيبي . أؤكد لك أنني لست على ما يرام . غداً أفضل ، لا شكّ في هذا ».

لم يُصرّ : « كما يُسرُّك ، حبيبتي . إذا كنت مريضة ، يجب الاعتناء بكِ »..

وتكلّما في أمور أخرى .

نامت باكراً . وعلى غير عادته ، طلب جوليان اشعال النار في غرفته الخاصة . حين أعلموه أنها « تشتعل جيداً » ، قبّل زوجته في جبينها ، وذهب .

بدا البيت كلّه مسكوناً بالبرد . الجدران المخترقة يُسمع لها ضجيج خفيف كما ارتجافات . وجانّ ، ترتجف في فراشها .

قامت ، مرتين ، لتضع حطباً في الموقد ، وتأتي بفساتين وتنانير وثياب عتيقة تكدّسها فوق غطائها . لا شيء استطاع تدفئتها . قدماها نملتا ، بينما اهتزازات تركض من أخمص قدميها حتى فخذيها ، تجعلها تنقلب بغير انقطاع ، تتحرّك ، تصل إلى قمة الغضب .

راحت أسنانها تصطكّ . يداها ترتجفان . صدرها يضيق . قلبها ينبض ، متمهّلاً ، نبضات كبيرة صمّاء ، ويبدو يتوقّف ، أحياناً . وحلقها يختلج كما لو ان الهواء بات لا يستطيع دخوله .

أصيبت باختناق رهيب وقت كان البرد القاسي يخترقها حتى الأعماق . ولا مرة شعرت بمثل هذا ، ولا أحسّت نفسها مهملة هكذا في الحياة ، مستعدّة لأن تزفر آخر نسمة من حياتها .

فكّرت : « سأموت . . . إني أموت . . . »

أصابها الرعب . قفزت خارج سريرها . دقّت الجرس لروزالي ، وانتظرت . دقّت من جديد ، وانتظرت أيضاً ، مختلجة ومتجمّدة .

ما أتت الخادمة . إنها تنام ، ولا شك ، هذا النوم الأول الثقيل الذي لا يكسره شيء . قامت جانّ ، منطلقة ، هائمة الروح ، حافية القدمين ، في الدرج .

بدون ضجّة ، صعدت ، متلمّسة الحيطان ، وجدت الباب ، فتحته ، نادت : « روزالي ! » تقدّمت ، بعد ، صدمت السرير ، مرّرت يديها فوقه ، وعرفت أنه فارغ . كان فارغاً وبارداً ، كما لو أن أحداً لم ينم فيه .

متفاجئة ، حدثت ذاتها : « كيف ذلك ! كيف خرجت تغامر في مثل هذا الطقس ! » .

اصطخب قلبها ، بسرعة ، قفز ، ضيّق أنفاسها ، نزلت ، قدماها مثنيّتان ، لتوقظ جوليان .

دخلت غرفته بعنف ، مجلودة باقتناعها أنها ستموت ، وبأنها يجب أن تراه قبل أن تفقد وعيها .

رأت ، على ضوء النار المحشرج ، إلى جانب رأس زوجها ، رأس روزالي .

استقاما ، كلاهما ، إثر الصرخة التي أصدرتها . بقيت متجمّدة ، لثانية ، لرعب هذا الاكتشاف . ثم هربت ، عادت إلى غرفتها . وبما أنّ جوليان ، ناداها مضطرباً : « جانّ ! » ، اعتراها خوف وحشيّ من أن تراه ، تسمع صوته ، تصغي إليه يشرح ،

يكذب ، ترى عينيه وجهاً لوجه . ومن جديد ، أسرعت ، في الدرج الذي نزلته .

كانت ، الآن ، تركض في الظلمة ، على خطر أن تتدحرج من أعلى الدرج ، أن تكسر قدميها أو يديها . ذهبت مع وجهها ، مدفوعة بحاجة ملحّة للهرب ، لأن لا تعرف شيئاً ، لأن لا ترى أحداً .

حين صارت تحت ، جلست على درجة ، في غلالة النوم وحافية القدمين . بقيت هنا ، مضطربة الروح .

كان جوليان قفز من السرير ، وعلى عجل ، ارتدى ملابسه . سمعته يتحرّك ، يمشي . قامت منتصبة لتنجو منه . ينزل ، الآن ، الدرج ، ويصرخ : « جان ، اسمعي ! » .

لا . ما أرادت الاستماع ولا أن يلمسها بطرف أصابعه . وانقذفت إلى غرفة الطعام ، راكضة كما من أمام مجرم . تبحث عن منفذ ، عن مخبأ ، عن زاوية سوداء ، أي طريقة لتتجنّبه . تجمّعت تحت الطاولة . لكنه فتح الباب ، في يده ضوء ، مردِّداً دائماً : « جانّ ! » وهربت كما أرنب برّيّ . اندفعت إلى المطبخ ، دارت فيه دورتين على طريقة حيوان يهاجَم . ولأنه لحق بها أيضاً ، فتحت باب الحديقة ، بقوة ، وانطلقت في الريف .

اتصالها بالثلج حيث تغرق ، مرات ، قدماها العاريتان حتى الركبتين ، سرعان ما أعطاها طاقة يائسة . ما كانت تشعر بالبرد ، مع أنه يغطّيها كلّها . ما عادت تشعر بشيء ، طالما أن اختلاج روحها ، جعل جسدها فاقد الحس ، وراحت تركض ، بيضاء كما

الأرض .

تبعت الممرّ الكبير ، اجتازت الغيضة ، تخطّت الحفرة وذهبت صوب الأرض البور .

لا قمر . كانت النجوم تلمع ، كما بذار من نار ، في سواد السماء . لكن السهل كان مضيئاً نوعاً ، بلون أبيض باهت ، يخيّم عليه صمت مسمّر لامتناهٍ .

كانت جانّ تسرع ، بدون تعب ، بدون معرفة ، بدون تفكير . وفجأة ، وجدت نفسها على الشاطىء الصخري . توقفت على الفور ، غريزياً ، وتجمّعت على بعضها البعض ، مفرغة من كل فكرة ومن كل إرادة .

البحر اللامرئيّ أمامها ، ينشر رائحة مالحة من أعشابه الصغيرة بفعل أقصى جزره .

أقامت ، طويلاً ، هنا ، جامدة الذهن كما الجسد . ثم ، فجأة ، بدأت ترتجف ، ترتجف بجنون ، كما شراع يحرّكه الهواء . تهتزّ ذراعاها ، يداها ، قدماها بقوة لا تغلَب ، ترتجف . ترتجّ في قفزات متسارعة : وعاد إليها وعيها ، فجأة ، صافياً حاداً .

وتراءت لها رؤى قديمة . تلك النزهة ، معه ، في زورق لستيك ، حديثهما ، حبّها النامي ، عماد المركب . ثم عادت ، أبعد ، إلى تلك الليلة المتماوجة بالأحلام ، حين وصولها إلى غيضة الحور . والآن ! الآن ! آخ ! حياتها انكسرت ، انتهى كل فرح ، كلّ انتظار مستحيل . بدا لها المستقبل مخيفاً مليئاً بالتعذيب ، بالخيانات ، بفقدان الأمل . وفور أن تموت ، ينتهي كل شيء .

لكنّ صوتاً صرخ في البعيد : « هنا ، هاك آثار قدميها . بسرعة ، بسرعة ، من هنا » .

ما كانت تريد الرؤ ية من جديد . في اليمّ ، هنا ، أمامها ، تسمع صوتاً خافتاً ، الانزلاق الغامض لمياه البحر على الصخور .

نهضت ، مستعـدّة للوثوب ، ومـطلقة في الحيـاة وداع اليائسين ، أنّت آخر كلمات المحتضرين ، آخر كلمات الجنود الشباب المبقورين في المعارك : « يا أمّي ! » .

فجأة ، اخترقتها فكرة أمّها ، رأتها منتحبة . رأت والدها جاثياً أمام جثتها الغارقة . رأت ، في ثانية واحدة ، كل آلام يأسهما .

خارت على الثلج . ولم تتفلّت حين أخذها ، من ذراعيها ، جوليان والخادم سيمون ، ويتبعهما ماريوس حاملاً فانوساً ، أرادا إرجاعها إلى الوراء ، كانت قريبة جداً من الشاطىء .

تصرّفا كما يريدان ، لا تستطيع أن تتحرّك . أحسّت أنها حُملت ، ثمّ وُضِعت في سرير ، وأنهم يفركون جسدها بثياب دافئة كالنار . ثم كل ذكرى امّحت ، كل معرفة توارت .

عاشت كابوساً ـ هل فعلاً هو كابوس ؟ ـ كانت نائمة في غرفتها . كان نهار ، إنما هي لا تستطيع النهوض . لماذا ؟ لا تعرف شيئاً . سمعت خربشة في السقفيّة ، نوعاً من مقحفة ، من حفيف ، وفجأة تمرّ فأرة على غطائها ، فأرة صغيرة رمادية . تبعتها أخرى ، فثالثة تتقدّم ناحية الصدر ، بصوت عنيف دقيق . ما كانت خائفة ، جانّ . لكنها أرادت تلتقط الحيوان ، قرّبت يدها بدون أن

تنجح .

بعدها فئران أخرى . عشرة ، عشرون ، مئات ، ألوف تدفّقت من كل صوب . كانت تتسلّق الأعمدة ، تسير على الزخارف ، تغطّي غطاء السرير كلّه . ثم تحت الشراشف ، تشعر بها جانّ على جلدها ، تدغدغ ساقيها ، تزلق على جسدها ، نازلة صاعدة . تراها تأتي من أقدام السرير لتدخل حلقها . وتتخبَط ، هي ، ترمي يديها إلى الأمام لتلتقط واحدة ، لكنها تردّهما فارغتين .

تسخط . تريد الهرب ، تصرخ ، وبدا لها أنهم يسمّرونها ، انّ أذرعاً قوية تشبكها وتشلّها . لكنها لا ترى أحداً .

ما كان عندها حسّ الوقت . دام هذا طويلاً طويلاً جداً .

بعدها ، استعادت وعياً تعِباً ، مرضوضاً ، مع أنه جميل . أحسَّت نفسها ضعيفة ، ضعيفة . فتحت عينيها ، وما تعجّبت لرؤية أمّها جالسة في غرفتها ، مع رجل ضخم لا تعرفه .

كم كان عمرها ؟ ما تعرف شيئاً ! وتحسب نفسها فتاة صغيرة . وما كان عندها ، أبداً ، أيّ ذكرى .

قال الرجل الضخم : « هاكِ ، يعود وعيها » . وبدأت الأم تبكي . حينها أضاف الرجل الضخم : « هيّا ، كوني هادئة ، سيّدتي البارونة ، تستطيع الكلام الآن ، إنما لا تحادثيها في شيء ، أبداً . دعيها تنام » .

وتراءى لجانّ أنّها تحيا أيضاً ، طويلاً جداً ، نعسانة . واستعادها نوم ثقيل منذ حاولت التفكير . ولم تحاول ، أبداً ، تذكُّر أيّ أمر ، كما لو أنها تخاف كانت ، الحقيقة تعود إلى رأسها .

حين استيقظت ، ذات مـرة ، رأت جوليـان ، وحده بجانبها . فعاد إليها ، بعنف فجائي ، كل شيء ، كما لو ان ستاراً يُزاح ، وكان يخفي حياتها الماضية .

عانت وجعاً مخيفاً في قلبها ، وأرادت الهـرب . رمت أغطيتها ، قفزت إلى الأرض ووقعت ، ما استطاعت رجلاها حملها .

قفز صوبها جوليان . أخذت تصرخ كي لا يمسّها . تتلوّى ، تتقلّب . فُتِحَ الباب . تراكضت الخالة ليزون مع دنتو الأرملة ، ثم البارون ، ثم أخيراً وصلت أمها لاهثة ، مشدوهة .

أعادوها إلى السرير . سرعان ما أغمضت عينيها ، مراءاة ، كي لا تتكلَّم ، ولتفكّر كما يحلو لها .

أمها وخالتها تعتنيان بها ، تجاملانها ، تسألانها : « هل تسمعيننا الآن ، يا جانّ ، يا جانّنا الصغيرة ؟ » .

تمثّل الصمّاء ، لا تجيب . وتنتبه جيداً إلى أن النهار ينتهي . أقبل الليل . تمركزت الحارسة قربها ، تسقيها بين آنٍ وآخر .

تشرب ، كانت ، دون أن تقول شيئاً ، لكنها لم تعد تنام . بصعوبة ، تفكّر ، باحثة عن أشياء تفوتها ، كما لو أنَ في ذاكرتها ثقوباً ، مساحات كبيرة بيضاء فارغة لم تُسَجَّل أحداثٌ عليها .

بعد جهودٍ طويلة ، استعادت ، شيئاً فشيئاً ، الأحداث . بعناد مركَّز ، فكّرت فيها كلّها .

أمها ، الخالة ليزون ووالدها ، كانوا أتوا . إذن ، كانت مريضة جداً . لكن جوليان ؟ ماذا قال ؟ هل عرف أهلها ؟

وروزالي ؟ أين هي ؟ ثم ما العمل ؟ ما العمل ؟ فكرة توهّجت : تعود مع أبيها وأمها إلى روّان ، كما من زمان . تحسب نفسها أرملة . هذا كل ما في الأمر .

انتظرت ، تستمع إلى كل ما يقال حولها ، تفهم جيداً ، سعيدة باستعادة قدرتها العقلية ، صابرة ومحتالة .

في المساء ، أخيراً ، وجدت نفسها ، وحيدة ، مع البارونة . نادتها بصوت خافت : « أمّي ! » أدهشها صوتها ، تراءى لها تغيّر . أخذت البارونة يديها : « يا ابنتي ! يا حبيبتي جانّ ! هل تعرفينني ؟ » .

ـ نعم ، يا أمّي ، إنما يجب ألّا تبكي ، أبداً . أمامنا وقت طويل للتحدث معاً . هل أخبرك جوليان لماذا هربتُ في الثلج ؟»

ـ نعم ، يا عذوبتي أنتِ ، أصبتِ بحمى خطيرة .

ـ لا يا أمّي . أصبتُ بالحمى في ما بعد . هل قال لكِ من سبّبها لي هذه الحمّى ، ولماذا هربت ؟

ـ لا يا حبيبتي .

ـ لأنني وجدت روزالي في سريره .

ظنّتها البارونة ما تزال تهذي ، فلاطفتها . « نامي ، يا حبيبتي ، اهدئي . حاولي أن تنامي » .

لكنّ جانّ ، أجابت ، متصلّبة الرأي : « واعية أنا الآن ، يا أمّي ، وعياً كاملاً ، لا أهذي كما في الأيّام الأخيرة . أحسستني مريضة ، ذات ليلة ، ورحت أبحث عن جوليان . كانت روزالي تنام معه . فقدت رأسي حزناً وألماً ، وخرجت في الثلج لأرمي نفسي

من على صخور الشاطىء » .

لكنَّ البارونة كرَّرت القول : « إي ، يا حبيبتي ، كنت مريضة ، مريضة جداً .

ـ ليس هذا هو السبب يا أمّي ، بل وجدت روزالي في سرير جوليان ، ولا أريد أن أبقى ، بعد ، معه . تأخذينني ، كما من زمان ، إلى روّان » .

ـ « كما تشائين ، يا حبيبتي » ، قالت البارونة ، إذ الطبيب كان طلب إليها أن لا تعاكسها الرأي في شيء .

نفذ صبرها ، المريضة : « أرى جيداً أنكِ لا تصدّقينني . إبحثي لي عن أبي ، هو يفهمني » .

بصعوبة ، نهضت الأم ، تناولت ، في كل يد عصا ، خرجت ، جارّة يديها ، ثم ، بعد ثوانٍ ، عادت والبارون الكان يعينها على المشي .

جلسا أمام سرير جانّ . أخبرت بصوت ناعم ، بصوت خافت ، وبوضوح : شخصيّة جوليان الغريبة الأطوار ، قساواته ، بخله ، وأخيراً خيانته .

حين أنهت كلامها ، رأى البارون أنها لم تكن تهذي ، لكنه لم يعرف ما يفكّر ولا ما يحل أو ما يجيب .

أخذ بيدها ، فائق الحنوّ ، كما من زمان ، حين كان يقصّ عليها الحكايات لتنام . « اسمعي ، يا حبيبتي ، يجب التصرف بحكمة . لا تتعجّل أمراً . حاولي تحمّل زوجك إلى حين نكون اتّخذنا قراراً . . . تعدينني بهذا ؟ » .

تمتمت : « أوافق ، لكنّني لن أبقى هنا حين أشفى » .

ثم ، بصوت خافت كلياً ، أضافت : « أين روزالي ، الآن ؟ » .

قال البارون : « لن ترينها ، بعد » لكنّها أصرّت : « أينها ؟ أريد أن أعرف » ، أقرّ ، حينئذٍ ، أنها لم تكن غادرت البيت . لكنّه أكّد أنها ستذهب .

في خروجه من عند المريضة ، كان البارون مملوءاً غضباً ، مطعوناً بقلبه ، كأب ، فذهب يبحث عن جوليان ، وبسرعة : « يا سيّد ، جئت أحاسبك على سلوكك تجاه ابنتي . خنتها مع خادمتك ، وهذا سلوك مزدوج العيب » .

مثّل جوليان دور البريء ، أنكر بألم ؛ أقسم ، حلف بالله ، أيّ برهان لهم على كل حال ؟ ألم تكن جانّ ضائعة ؟ ألم تكن أصيبت بحمّى الدماغ ؟ ألم تكن خرجت ، ليلة ، على الثلج ، في قمة الهذيان ، في بداية إصابتها ؟ وتماماً ، وسط هذا الحدّ الأقصى ، راحت تركض شبه عارية في البيت ، مدّعية رؤية خادمتها في سرير زوجها !

واستشاط غضباً . هدّد بإقامة دعوى . اغتاظ بعنف . اختلط الأمر على البارون ، صار يعتذر ، مدّ يده يصافح جوليان ، رفض .

حين علمت جانّ بجواب زوجها ، لم تَثُر وأجابت : يكذب ، يا أبي ، لكنّنا سننتهي بإقناعه

وصمتت يومين ، متأمّلة ، متفكّرة مليّاً .

أرادت ، في الصباح الثالث ، رؤيـة روزالي . رفض البارون . ادّعى ذهابها . ما تخلّت جانّ عن رأيها ، ردّدت : « إذن فلنذهب إليها حيث هي ولنأتِ بها » .

وثارت حين دخل الطبيب . أخبروه كل شيء ليحكّموه في الأمر . لكن جانّ راحت تبكي ، فجأة ، مغتاظة فوق أيّ حدّ ، صارخة تقريباً : « أريد أن أرى روزالي . أريد أن أراها ! » .

حينئذ أخذ الطبيب يدها ، وبصوت هادىء خفيض : « اهدئي ، سيّدتي . كل انفعال قد يصبح خطيراً ، فأنت حبلى » .

ذُهلت ، بقيت كالمصعوقة . بدا لها كأن شيئاً يتحرّك في بطنها . صمتت ، فما تسمع ، حتى ، ما يقولون ، مستغرقة في أفكارها . ما استطاعت أن تنام في الليل ، بسبب هذه الفكرة الجديدة الفريدة ، أنّ طفلاً يحيا في أحشائها . حزنت كونه لجوليان . خافت يشبه أباه . ذات يوم ، نادت البارون : « أبي ، اتخذت قراراً واضحاً . أريد أن أعرف ، الآن خاصة ، تسمع ؟ أريد أن أعرف كل شيء . يجب ألّا تعاكسوني في الوضعيّة الأنا فيها . إصغ جيّداً . تذهب تأتي بالخوري . بحاجة أنا إليه ، تمتنع ، هكذا ، روزالي عن الكذب . ثم ، وفور يصل ، تُصعد روزالي ، وتبقى أنت وأمّي . إحذر من أن يرتاب جوليان بالأمر » .

بعد ساعة ، دخل الكاهن ، أكثر سمنة مما كان ، لاهثاً كما أمّها . جلس على كرسيّ حدّها ، بطنه مدلوق بين فخـذيه المفتوحتين . بدأ المزاح ، ممرّراً ، كما العـادة ، محرّمتـه ذات المربّعات ، على جبهته : « وبعد ، سيّدتي البارونة ، أعتقد أننا لن

نضعف . رأيي أننا متعادلان بدانة » . ثم ، مستديراً ناحية سرير المريضة : « ماذا أخبروني ، سيّدتي الصبيّة ، أن ستكون عندنا عمادة جديدة ؟ عال . . . ليست عمادة مَركب هذه المرة » . وأضاف بنبرة وقورة : « سيكون مدافعاً عن الوطن » . وبعد تفكير قصير : « إن لم تكن ربّة عائلة صالحة » ، ودلاً على البارونة : « مثلكِ ، يا سيّدتي » .

فُتح باب في العمق . كانت روزالي منذهلة ، دامعة ، ترفض الدخول ، متمسّكة بإطار الباب ، يدفعها البارون . وإذ نفذ صبره ، رماها إلى الداخل . حينئذ ، غطّت وجهها بيديها ولبثت واقفة ، تشهق .

استقامت جانّ في فراشها ، فجأة ، مذ رأتها ، جلست ؛ أكثر شحوباً من أغطيتها . وقلبها المذعور ، كان يرفع ، بنبضه ، قميصها الرقيقة الملتصقة بجلدها . ما كان يمكنها التكلّم ، تتنفّس بصعوبة ، تكاد تختنق . أخيراً ، لفظت بصوت متهدّج ، يقطعه الانفعال : « أنا . . . أنا . . . لست بحاجة . . . لأسألكِ . . . يكفيني . . . أن أراكِ . . . هكذا . . . أن أرى . . . خجلكِ أمامي » .

بعد استراحة قصيرة ، لأن النَفس ينقصها ، تابعت : « لكنّي أريد معرفة كل شيء . . . كل شيء . . . طلبتُ الخوري ليكون الأمر كما في الاعتراف ، انتبهي » .

روزالي ، جامدةً ، تكاد تتصاعد صرخات من بين يديها المتشنّجتين .

البارون ، لبسه الغضب ، أخذ يديها وأزاحهما بعنف . وقال لها وهو يرميها قرب السرير راكعة : « تكلّمي إذن . . . أجيبي » .

افترشت الأرض في جلسة كما التي للعذارى ، قبعتها بالمقلوب ، مربوطها على الأرض ، ووجهها محجّب من جديد بيديها اللتين تحرّرتا .

خاطبها الخوري : « هيّا ، يا ابنتي ، اسمعي ما يقولونه لكِ ، وأجيبي . لا نريد أذيّتك ، لكن نريد أن نعرف ما حصل » .

انحنت جانّ إلى طرف فراشها ، تنظر إليها . قالت : « صحيح أنّكِ كنتِ في فراش جوليان حين فاجأتكِ ؟ » .

نحبت روزالي ، عبر يديها : « نعم سيّدتي » .

حينئذٍ ، وبسرعة ، راحت البارونة تبكي أيضاً ، مع صخب في الغصص ، وشهقاتها القويّة ترافق اختلاجات روزالي .

سألت ، جانّ ، وعيناها على الخادمة :

ـ « منذ متى هذا الأمر ؟ » .

قالت متلجلجة : « منذ أتى » .

لم تفهم جانّ : منذ أتى . . . إذن . . . منذ . . . منذ الربيع ؟

ـ نعم سيّدتي .

ـ منذ دخل هذا البيت ؟

ـ نعم ، سيّدتي .

وقلبها يضيق بالأسئلة ، تسألها بصوت يتعجّل :

« كيف حصل هذا ؟ كيف طلب إليكِ ذلك ؟ كيف أوقعكِ ؟

ماذا قال لكِ ؟ متى ، كيف ؟ كيف سلّمته نفسكِ ؟ »

أزاحت روزالي يديها عن وجهها ، مأخوذة بحمى التكلّم ، برغبة الاجابة : « كان ذلك يوم تعشّى ، هنا ، لأوّل مرة ، جاء إليّ في غرفتي . كان اختبأ في غرفة المؤن . ما جرؤت على الصراخ خوف المشاكل . ضاجعني . ما عدت أدري ماذا أفعل لحظتذاك . فعل ما أراد . ما قلت شيئاً إذ وجدته لطيفاً ! . . . » .

حينها صرخت جانّ :

« إذن . . . ولدكِ . . . هو منه ؟ . . . »

شهقت روزالي :

« نعم ، سيّدتي » .

ثم صمتتا .

لم يعد يُسمع سوى انسكاب دموع روزالي والبارونة .

مرهقة ، جانّ ، أحسّت ، بدورها ، عينيها تسيلان ، والنقاط ، بدون ضجّة ، تكرج على خدّيها .

كان لطفل خادمتها ، الوالد نفسه الذي لطفلها ! تلاشى غضبها . أحسّت نفسها ، الآن ، يخترقها فقدانُ أملٍ كئيب ، بطيء ، عميق ، لامتناهٍ .

تابعت بصوت متبدّل ، مبتلّ ، بصوت امرأة تبكي :

« بعد رجوعنا من هناك . . . من الرحلة ، متى أعاد الكرّة ؟ »

تلعثمت الخادمة ، وهي منهارة ، كلياً ، على الأرض :

« مساء عودتكما ، جاء إليّ » .

كل كلمة كانت تعصر قلب جانّ . هكذا ، منذ المساء الأوّل . . . مساء عودتها إلى غيضة الحور ، تركها إلى هذه الفتاة . لهذا كان يتركها تنام وحيدة !

الآن ، عرفت كل شيء . ما أرادت أن تعرف ، بعدُ ، شيئاً . صرخت : « اذهبي ، اذهبي من هنا ! » وبما أن روزالي ما تحرّكت ، مدمّرة ، نادت جانّ والدها : « خذها ، احملها من هنا » . لكنّ الخوري ، الما كان قال شيئاً حتى الآن ، استغلّ اللحظة المناسبة ليلقي عظة بسيطة .

« سيّءٌ جداً ما فعلتِ ، يا ابنتي ، ولن يغفر لكِ الله بسهولة . فكري بجهنّم التي تنتظرك إذا لم تحافظي ، بعد الآن ، على سلوك مستقيم ، الآن ، وصار لك طفل ، يجب أن تتدبّري . سيّدتي البارونة تعمل لأجلك ـ ولا شك ـ شيئاً ما ، ونحن نتدبّر لكِ زوجاً . . . » .

كان سيتكلّم كثيراً ، لكنّ البارون ، آخذاً روزالي من كتفيها ، أقامها ، جرّها إلى الباب ، ورماها ، كما رزمة ، في الممشى .

وفور عاد ، أكثر شحوباً من ابنته ، تابع الخوري الكلام : « ماذا تريد ؟ كلّهن هكذا في البلد . خراب ! لكن لا نملك شيئاً ، ويلزم قليل من التسامح لضعف الطبيعة البشريّة . لا يتزوّجن ، أبداً ، إن لم يكنّ حوامل أبداً ، سيّدتي » . وأضاف مبتسماً : « كأنها عادة محلّية » . ثم بنبرة ساخطة : « حتى الأولاد هكذا ، ألم أجد ، العام الماضي ، في المقبرة ، ولدين صغيرين يتضاجعان ؟

أخطرت الأهل ! تعرفون ما أجابوني ؟ « ماذا تـريد سيّـدي الخوري ، لسنا نحن مَن علّمهم هذه الوساخات ، لا نستطيع شيئاً . وهكذا ، سيّدي ، خادمتك فعلت كما الأخريات » .

لكنّ البارون الكان يرتجف غضباً ، قاطعه : « هي ؟ ما همّ لكنّ جوليان يثيرني . دنيء ما فعل هنا ، وأريد أن آخذ ابنتي » .

وراح يمشي متحمّساً دائماً ، مغتاظاً : « هذا دنيء أن يكون خان ابنتي ، دنيء ! عاهر هذا الرجل ، وغد، حقير. وسوف أقول له ، سأصفعه ، سأقتله بعصاي ! » .

لكنّ الكاهن الكان يمجّ نفساً طويلاً من سيكارة قرب البارونة الدامعة ، والكان يفتّش أن يكمل وظيفته في التهدئة ، استأنف حديثه : « هيّا ، سيّدي البارون ، بيني وبينك ، فعل كما الجميع . هل تعرف كثيراً من الرجال الأوفياء ؟ » وتابع ببساطة ماكرة : « عجباً ، أراهن أنا ، أنك ، أنت ذاتك ، فعلت حماقات . هاك ، يدي فوق رأسك ، أليس صحيحاً ؟ » .

كان توقف البارون ، مأخوذاً ، بمواجهة الكاهن ، الذي تابع : « بلى ، فعلت كما الآخرون . من يدري ، حتى ، إذا كنت لم تمسّ واحدة كما هذه . قلت لك إن الجميع يفعلون هذا . امرأتك ما كانت أقلّ سعادة ، ولا كانت محبوبة أقل ، أليس كذلك ؟ » .

ما عاد تحرّك البارون ، اضطرب .

كان ذلك حقيقة ، والله ، انه فعل مثل هذا ، وأحياناً كثيرة ، كل مرة استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولم يكن يحترم ، مثله ، السقف الزوجي . وحين كنّ جميلات ، ما كان يتأرجح ، قطّ ،

أمام خادمات زوجته ! لهذا كان حقيراً !؟ لماذا ، إذن ، يحاكم بقساوة ، سلوك جوليان ، في وقت ما كان يظنّ ، أبداً ، أن سلوكه يمكن أن يكون أثيماً ؟

ظهر ، على شفتي البارونة ، ظلّ ابتسامة ، لذكرى جهالات زوجها . كانت من هذه الفئة العاطفية ، اللينة والمتسامحة ، الكانت تحسب مغامرات الحب ، جزءاً من الوجود .

راحت جانّ ، خائرة القوى ، مفتوحة العينين ، ممدّدة على الظهر ، جامدة الذراعين ،تفكّر بألم. آلمتها ، كما تخرز في قلبها ، كلمة لروزالي : « أنا ، ما قلت شيئاً . وجدته لطيفاً » .

هي أيضاً ، كانت وجدته لطيفاً . فقط لأجل هذا ، رفضت كل أمل آخر ، كل المشاريع المقابلة ، كل مجهول الآتي . وقعت في هذا الزواج ، في هذا الثقب البلاحدود ، لتتقلّب في هذه التعاسة ، هذا الحزن ، هذا اليأس ، لأنها ، كما روزالي ، كانت وجدته لطيفاً .

فُتِح الباب بدفعة غاضبة . ظهر جوليان شرس المظهر . كان رأى ، على الدرج ، روزالي منتحبة ، وأتى ليعلم ، فاهماً أنّ شيئاً يُحْبَك ، أن الخادمة تكلمت ولا شكّ . مرأى الكاهن سمّره في مكانه .

سأل بصوت مرتجف ، إنما هادىء : ماذا ؟ ماذا في الأمر ؟

ما جرؤ البارون على قول شيء ، برغم عنفه للحظات ، خشي حجة الخوري ومَثَله الشخصي على شاكلة صهره ، صارت الأم تدمع بقوّة أكبر ، لكن جانّ استقامت على يديها ، ونظرت ،

لاهثة ، من كان جعلها تتألّم بهذه المرارة . قالت : « في الأمر أننا بتنا لا نجهل شيئاً ، نعرف كل فضائحك منذ . . . منذ يوم دخلت هذا البيت . . . في الأمر أن طفل هذه الخادمة هو لك . . . كما . . . طفلي أنا . . . سيكونان أخوين . . . » هذه الفكرة الأخيرة جعلت ألمها يفيض فيضاً ، انهارت في فراشها وبكت بحدّة .

بقي فاغر الفم لا يدري ما يقول ولا ما يعمل . تدخّل الخوري ، مرة بعد .

« هيّا ، سيّدتي ، لا نحزننّ فوق هذا . . .كوني متعقلة » نهض ، تقدّم من سريرها ، ووضع يده الفاترة على جبين فاقدة الأمل هذه . هذه الملامسة البسيطة جعلتها تتراخى بغرابة .شعرت نفسها موهنة . كما لو ان هذه اليد القوية ، الغليظة ، المعتادة على امتصاص النقمات ، وعلى ملامسات التعزية ، جلبت لها هدوءاً عجيباً .

لبث هذا الرجل الطيّب واقفاً ، وأضاف : « سيّدتي ، يجب ان نسامح دائماً ، انه شقاء كبير حصل ، لكن الله ، برحمته الواسعة ، استبدله بسعادة كبيرة ، إذ انك ستصبحين أماً . هذا الولد سيكون تعزيتك . فباسمه اناشدك ، وأستحلفك ان تصفحي عن هفوة السيّد جوليان . سيكون رباطاً جديداً بينكما ، وعداً بوفائه المستقبليّ . باستطاعتك البقاء منفصلة عن قلب من تحملين ثمرته في أحشائكِ ؟ » .

لم تجب بشيء ، محطّمة ، موجعة ، منهوكة كانت ، الآن ، وحتى بدون قدرة للغضب والحقد . بدت لها أعصابها متراخية ،

مقطوعة ، بالكاد تحيا .

البارونة ، الكلّ حقد مستحيل عندها ، وروحها غير قادرة على جهد طويل ، همست : « هيّا ، يا جانّ » .

حينها ، أخذ الكاهن يد الشاب ، جذبه قرب السّرير ، ووضع له يده بيد امرأته . ربّت عليهما كأنّه يوحّدهما نهائياً . ترك لهجته الارشاديّة والمهنية ، وقال بحبور : « هيّا ، انتهى كل شيء : صدّقوني ، كل شيء سيصبح أفضل » .

ثم انفصلت اليدان الكانت تقاربتا لحظة . ما جرؤ جوليان على تقبيل جانّ ، فقبّل جبين حماته استدار على أعقابه ، أخذ ذراع البارون الذي ترك له يده ، هو سعيد في أعماقه ، لأن الأمر سُوّيَ هكذا ، وخرجا معاً ليدخّنا سيكاراً .

تناعست المريضة المضناة ، في حين راح الكاهن وأمّها يتحدثان بلطف ، وبصوت خافت .

يتكلم الكاهن ، يشرح ، يوسّع أفكاره . والبارونة توافق دائماً باشارة من رأسها . أخيراً ، ليلخّص ، قال : «اذن اتّفقنا . تعطون للفتاة مزرعة بارڤيل ، وأهتمّ بأن أجد لها زوجاً ، شاباً طيّباً لائقاً ، مع ثروة عشرين الف فرنك ، ولن نعدم المعجَبين . لن يكون لنا إلاّ الاختيار» .

وابتسمت البارونة ، الآن ، سعيدة ، ودمعتان بقيتا على خدّيها ، لكنّ أثرهما كان جفّ .

أكّدت : « اتفقنا ، بارڤيل تساوي ، على أقل تقدير ، عشرين الف فرنك . نسجّلها للولد ، ويتمتع الأهـل بحقّ

الاستثمار على حياتها » .

نهض الكاهن ، شدّ على يد الأمّ : « لا تعذّبي نفسك ، سيّدتي البارونة ، لا تعذّبي نفسك . أعرف كم تساوي الخطوة » .

وهو خارج ، التقى بالخالة ليزون آتية لزيارة مريضتها . ما لاحظت شيئاً . ما قالوا لها شيئاً . وكما دائماً . ما عرفت شيئاً .

VIII

تركت روزالي البيت ، وراحت جانّ تكمل فترة حملها المؤلمة . لم تكن تشعر بأية رغبة في قلبها ، لتعرف نفسها كأمٍّ ، كانت هموم كثيرة تقلقها . تنتظر ولدها بلا فضول ، محنيّة أيضاً ، بسبب تصوّرات لمآس غير متناهية .

كان الربيع أقبل بلطف وتمهّل . ترتعش الأشجار العارية في النسيم المنعش ، لكنّ زهور الربيع ابتدأت تطلع في عشب الحفر الطري ، حيث تهترىء أوراق الخريف . وتنتشر رائحة نداوة شبيهة بطعم التخمّر ، من كل السّهل ، من ساحات المزارع ، ومن الحقول المبلّلة . وجماعة من رؤوس خُضر تطلّ من الأرض السّمراء ، وتلمع في أشعّة الشمس .

حلّت ، بدلاً من روزالي ، امرأة ضخمة ، متينة البنية كقلعة ، كانت تساعد البارونة في نزهاتها الرتيبة طول ممّرها ، حيث أثر قدمها الأكثر ثقلاً يبقى ، دوماً ، رطباً ، وموحلاً .

الأب ، يساعد جانّ الكانت ثقلت ، وما تزال تتألم باستمرار ، والخالة ليزون ، الحزينة ، المنهمكة بالحدث القريب ، تأخذ يد جانّ من الجهة الأخرى ، قلقة من هذا السّرّ الما كانت لتعرفه .

هكذا كلهم كانوا يتمشون دون كلام ، لساعات ، بينما يكون جوليان يجتاز المنطقة على حصان ، وهذا ميل جديد اجتاحه فجأة .

لا شيء ، يعكّر حياتهم الكئيبة . قام البارون وزوجته والڤيكونت بزيارة إلى آل فورڤيل ، بدا جوليان يعرفهم تماماً ، وما استوضحه حمواه بشأن هذه المعرفة . تبودلت زيارة أخرى رسميّة مع آل بريزڤيل ، المختبئين دائماً في قصرهم الريفي النائم .

حوالى الرابعة من بعد ظهر ذات يوم ، تحمّس جوليان إذ رأى فارسين، رجلاً وامرأة، يدخلان، خبباً، الساحة أمام القصر، فدخل غرفة زوجته: «انزلي بسرعة. انهم آل فورڤيل. أتوا ببساطة كجيران . يعرفون حالتك . قولي اني لست هنا ، لكنني سأجيء بين لحظة وأخرى . سأتبرّج قليلاً » .

نزلت جانّ ، متعجّبة . كانت عندها امرأة صبية شاحبة ، جميلة ، بوجه متألّم ، وعينين متحمّستين وشعر أشقر كامد كما لو يلوحه شعاع شمس ، قدّمت زوجها بهدوء ، انه نوع من عملاق ، من بُعُبع ذي شاربين أصهبين . ثم أضافت : « التقينا في عدة مناسبات السيّد دي لامار . أخبرنا كم تتألمين . فلم نشأ ان نتأخر أكثر في زيارتكم كجيران بدون رسميّات مطلقاً . تلاحظين ، فنحن كلّ على حصان . واستقبلت ، يوماً ، بفرح ، السيّدة والدتك والبارون » .

تتحدث كانت ، بسهولة لامتناهية ، عـائلية ومميّـزة . أُعجبت جانّ بها وأحبّتها بسرعة . « هي ذي صديقة » ، قالت

لنفسها .

على العكس من ذلك ، كان الكونت دي فورڤيل يبدو دبّاً داخل الصالون . حين جلس ، وضع قبعته على كرسي مجاور ، تأرجح بعض وقت حول ما سيفعل بيديه . أسندهما على ركبتيه ، على ذراعي كرسيّه ، ثم ، أخيراً ، شبك أصابعه كما لصلاة .

فجأة ، دخل جوليان ، متفاجئة ، لم تكد تعرفه جانّ . حلق ذقنه ، كان جميلاً ، أنيقاً ، وجذّاباً كما في أيام خطوبتهما . ضغط على يد الكونت الضخمة والكثيفة الشعر ، بدا يستيقظ مع حضور جوليان ، الذي ، بعد ذلك، قبّل يد الكونتيسّة التي احمّر قليلاً خدّها العاجيّ ، وارتعشت جفونها .

راح يتكلّم . كان محبّباً كما من زمان . عيناه الواسعتان ، مرآة الحب ، عادتا ناعمتين . وشعره الكان ، للحظات ، أشعث قاسياً ، استعاد ، بواسطة الفرشاة والزيت المعطّر ، ليونته وبريق تموّجاته .

لحظة ذهاب آل فورڤيل ، استدارت الكونتيسة نحوه ، قالت : « هل تريد ، عزيزي الڤيكونت ، ان تقوم بنزهة على الحصان ، يوم الخميس ؟ ».

وقال : وهو ينحني : « أكيداً ، سيّدتي » ثم اخذت يد جانّ ، وبصوت حنون نافذ ، وبسمة مُحبّة : « آه ، حين تشفين ، سندور ، ثلاثتنا ، المنطقة على الحصان . سيكون ذلك ممتعاً ، تريدين ؟ »

بحركة متمكّنة ، رفعت طرف ثوب فروسيّتها ، وضعت

رجلها في الركاب وقفزت بخفة عصفور ، بينما زوجها ، بعد ان حيّى بارتباك ، امتطى حصانه النورماندي ، بتوازن عاموديّ كما فارس ماهر .

حين اختفيا ، وراء منعطف السور ، بدا جوليان منشرحاً ، هتف : « يا لهم من أناس لطفاء ! هذه معرفة ستنفعنا » .

أجابت جانّ ، وهي سعيدة أيضاً ، ولا تدري لماذا : « مدهشة الكونتيسة الصغيرة أشعر انني سأحبّها . لكنّ الزوج يبدو خشن المزاج . أين عرفتهما ؟ » .

فرك يديه ، فرحاً : « صدفة التقيتهما عند آل بريزڤيل . يبدو الزوج فظّاً ، نوعاً ، هو صيّاد ساخط ، لكنه شريف حقيقي » .

وانتهى العشاء ، فرحاً ، كما لو دخل البيت سعادة خفيّة .

لم يطرأ جديد حتى أواخر تموز .

ذات ثلاثاء ، مساءً ، وكانا جالسين تحت الحورة ، حول طاولة خشبيّة عليها كأسان وقنينة من ماء الحياة ، صرخت جانّ ألماً ، واستحالت شاحبة ، وضعت يديها على خاصرتها ، ألم سريع ، حادّ ، اخترقها بغتة ، وزال .

إنما ، بعد دقائق عشر ، اخترقها ألم آخر ، دام أكثر ، لكنه اقل حدّة . تعذّبت كثيراً حتى استطاعت الدخول ، محمولة تقريباً ، من أبيها وزوجها . بدت لها المسافة القصيرة بين الدلبة وغرفتها ، لامتناهية . راحت تتأوه رغماً عنها ، طالبة الجلوس ، التوقف ، رازحة تحت إحساس لا يطاق لثقل في البطن .

لم تكن في ميعادها ، ما كانت الولادة منتظرة إلاّ في أيلول .

لكن ، بما انّ حادثاً طارئاً يخشى ، حُضّرت عربة ، وأسرع سيمون لاحضار الطبيب .

وصل حوالى منتصف الليل ، ومن أوّل نظرة ، عرف عوارض ولادة سابقة لأوانها .

كانت خفّت الآلام إلى حدّ في السّرير ، لكنّ قلقاً رهيباً تملّك جانّ ، عجز يائس بكل وجودها ، شيء كالحدس ، ملامسة سرية للموت . لحظة من هذه اللحظات الفيها نحسّ ، عن قرب ، انه يجمّد قلوبنا .

الغرفة مليئة بالناس . الأمّ غاصّة ، منهارة ، في كرسيّها . البارون ، يداه ترتجفان ، يركض في كل ناحية ، حاملاً أشياء ، مستشيراً الطبيب، يكاد يفقد صوابه . جوليان يمشي طولاً وعرضاً ، ظاهرياً منهمك ، لكن الذهن هادىء . والأرملة دنتو واقفة عند قدميّ السرير ، بوجه موافق للمقام ، وجه امرأة مختبَرة ، لا يدهشها شيء . حارسة مرضى ، قابلة قانونية وساهرة على الموتى ، قابلة من يأتون ، سامعة صرختهم الأولى ، غاسلة ، بالمياه الأولى ، جلدهم الجديد ، لأنّه إيّاه بأولى ثيابه ، ثم سامعة بالهدوء نفسه ، آخر كلمة ، آخر حشرجة ، آخر ارتعاشة من يولّون ، مهتمّة أيضاً بزينتهم الأخيرة ، ماسحة بالاسفنجة والخل أجسادهم البالية ، مغلّفة إيّاها بثوبها الأخير . كانت صارت غير مبالية تماماً تجاه كل احداث منذ الولادة حتى الموت .

لوديفين الطاهية ، والخالة ليزون ، بقيتا ، خِفيَةً ، مختبئتين وراء باب الدهليز .

والمريضة ، بين وقت وآخر ، تصعّد أنه ضعيفة .

ظنوا ، خلال ساعتين ، ان الحدث سيطول انتظاره . إنما «شقّ» الفجر ، عادت الآلام سريعة وعنيفة ، صارت بعد لحظات ، رهيبة .

وجانّ ، صراخها يتصاعد من بين اسنانها الكازّة ، كانت تفكر ، دون انقطاع بروزالي الما كانت تألمت ، أبداً . الما كانت ، تقريباً ، انتحبت ، وُلد ابنها ، غيرالشرعي ، بدون صعوبة ، بدون عذاب .

وراحت تقارن ، في نفسها التعيسة والمضطربة ، بينها وبين روزالي . وكرهت الله الكانت تحسبه ، من زمان ، عادلاً . ثارت بسبب تفضيلات القدر الآثمة ، وبسبب الأكاذيب المجرمة لمن يعظون بالاستقامة والخير .

أحياناً ، تكون النوبة عنيفة إلى حدّ تنطفىء فيها كلّ فكرة . لم تبق عندها قوة أو حياة أو معرفة إلاّ لتتألّم .

في دقائق سَكينتها ، ما تستطيع اشاحة نظرها عن جوليان ، فيخترقها ألم آخر يضيّق عليها ويذكّرها ذلك النهار الذي وقعت فيه خادمتها على اقدام هذا السرير ذاته ، وابنها بين ساقيها ، أخ هذا الكائن يمزّق الآن ، أحشاءها بوحشيّة . تتذكّر ، بوضوح ، حركات ، نظرات ، كلمات زوجها أمام تلك الفتاة الممدّدة . والآن ، هي تقرأ فيه ، كما لو أن أفكاره مسجّلة في حركاته ، تقرأ الضجر نفسه ، اللامبالاة نفسها تجاهها كما تجاه تلك ، عدم الاكتراث نفسه لرجل أناني تغضبه الأبوّة .

يعتريها تشنّج مُرعب ، تقلّص عضليّ وحشيّ حتى لتقول :

« سأموت ، اني أموت ! » وتملأ نفسها ثورة غاضبة ، حاجة للشتم ، وحقد حانق ضدّ هذا الرجل الكانت فقدته ، وضد الطفل المجهول الكان يقتلها .

وتمدّدت بجهد خارق لتقذف منها هذا الحمل . بدا لها ، فجأة ، أن بطنها كلّه أُفرغ بشكل مباغت ؛ وسكن ألمها .

كانت الممرضة والطبيب محنيّين فوقها ، يتدبّران أمرها . رفعا شيئاً . وسريعاً ما جعلتها ترتعش تلك الضجة المخنوقة الكانت سمعتها . ثم هذه الصرخة الصغيرة المؤلمة ، هذا المواء الهزيل للمولود الجديد ، دخل نفسها ، قلبها ، جسدها المضنى كلّه . وأرادت ، بحركة لاواعية أن تمدّ ذراعيها .

اخترقتها ارتعاشة فرح ، انطلاقة نحو سعادة جديدة بدأت تتفتّح . وجدت نفسها ، بلحظة ، طليقة ، هادئة ، سعيدة ، سعيدة كما ولا مرة . قلبها وجسدها يُبعثان من جديد ، تحسُّ نفسها أمّاً !

أرادت تعرف ولدها ! ما كان له شعر ، ولا أظافر ، لأنه أتى باكراً جدّاً . حين رأت هذا الكائن البدائيّ يتحرّك ، يفتح فاه ، يرسل صراخه الأوّليّ ، وحين لمست هذا المسخ المتغضّن المجعّد ، الحيّ ، غمرتها فرحة لا تقاوم ، وفهمت أنّها أُنقذت ، ضمنت نفسها ضد كل يأس ، صار عندها ما تحبّ ، فقط ، ما تحبّ !

من تلك الهنيهة ، ما عاد لها إلّا فكرة واحدة : ولدها . صارت ، فجأة ، أمّاً متفانية ، أكثر تهوُّساً مما كانت خائبة في حبّها ، مخدوعة في آمالها . كان يلزمها المهد ، دوما ، قرب سريرها ، ثم ،

حين صارت تقدر على النهوض ، بقيتْ أيّاماً كاملة جالسة إلى النافذة ، قرب الغطاء اللطيف الكائنت تمرجحه .

صارت تحسد المرضعة . وحين يمدّ الكائن الصغير ، عطِشاً ، يديه إلى الصدر الكبير ذي العروق المائلة إلى الزرقة ، ويأخذ بشفتيه الشرهتين ، الحلمة ، تنظر شاحبة ، مرتجفة ، القروية القوية والهادئة ، برغبة في انتزاع ابنها منها ، وفي ضرب وتمزيق هذا الصدر يشرب منه بنهم .

ثم أرادت ان تطرّز ، هي نفسها ، لتجمّـل الأغطيـة الناعمة ، ذات الأنـاقة المعقّـدة . لُفَّ الولـد بقماطـات من التخاريج ، وأُلبس قبّعات رائعة . ما عادت تتحدَّث إلاّ عن هذا . تقطع المحادثات ، لتُظهر استحسانها لقماط ، لصُدَيرة ، أو لشريطةٍ ما مشغولة ببراعة ، وغير سامعة شيئاً مما يتحدّثون حواليها ، كانت تفتتن بأطراف البياضات ، تقلّبها طويلاً،ومراراً ، بيدها المرتفعة لتراها بشكل افضل ، ثم تسأل بغتةً : « تعتقدون أنه يكون جميلاً بهذه ؟ »

البارون وأمُّها يبتسمان لهذا الحنان الملتهب ، لكنّ جوليان ، مضطرباً في عوائده ، منقوصاً من أهميّته السلطويَّة بمجيء، هذا الصيّاح الطاغية والكلي القدرة ، حسوداً بلا وعي منه ، من هذا الرجل الصغير الآخذ مكانه في البيت ، كان يردّد ، بلا انقطاع ، نافد الصبر غاضباً : « كم هي متعبة مع طفلها هذا ! » .

صارت لا تهجس إلا بهذا الحبّ الكائنت تقضي الليالي جالسة قرب مهده تنظر اليه ينام . كم كانت تستغرق في هذا التأمُّل

الملتهب والمرضيّ ، حتى انها لم تكن تستريح ، وصارت تضعف ، تهزل ، وتسعل ، فأمر الطبيب بفصلها عن ابنها .

غضبت ، بكت ، توسّلت . لكنهم ظلّوا صُمّاً تجاه تضرُّعاتها . كانت توضع ، كل مساء ، قرب المرضعة . وكل ليلةٍ ، تنهض ، حافية القدمين ، وتذهب ترهف السَّمع من ثقب الباب ، لتعرف ما إذا كان ينام هادئاً ، أو إذا ما كان يستيقظ ، أو إذا ما كان بحاجة إلى شيء ، أي شيء .

وجدها هنا ، مرة ، جوليان العائد متأخراً بعد عشاء عند آل فورڤيل . فأقفلوا عليها ، في ما بعد ، غرفتها بالمفتاح ، ليلزموها بالفراش .

تمّت العمادة حوالي آخر أيلول . كان البارون العرّاب ، والخالة ليزون العرّابة . سُمّي الولد بيار - سيمون - يول . يول للمناداة الشائعة .

ذهبت الخالة ، دون ضجّة ، في أوائل أيام أيلول . وظل غيابها ، كما حضورها ، خفيّاً غير منظور .

في مساءٍ ما ، ظهر الخوري ، بعد العشاء . بدا متلبّكاً ، كما لو يحمل سرّاً في أعماقه ، وبعد سلسلة من الأقوال غير المجدية ، التمس إلى البارونة وزوجها المنحه بعض لحظات من الحديث الخاص .

ذهب الثلاثة ، بخطى بطيئة ، إلى آخر الممر ، متحدّثين بنشاط ، بينما بقي جوليان مع جانّ ، يتعجّب ، يغتمّ ، يغضب لهذا السر .

أراد يرافق الكاهن العائد ، وانفردا معاً ، ذاهبين صوب

الكنيسة الجرسها يدقّ صلاة التبشير .

كان الطقس نديّاً ، قريباً من البرودة فعادوا باكراً إلى البهو . كلّهم كانوا على وشك الرقاد ، حين عاد جوليان بغتة ، احمر ، ذا هيئة ساخطة .

من الباب ، وبدون ان يحسب حضور جانّ ، صرخ ناحية حمويه : « انتما مجنونان ، وحقّ الله ! تبذّران عشرين الف فرنك لهذه الفتاة !» .

كانت المفاجأة كبيرة ، فما أجاب أحد . أعاد ، خوّاراً من غضب : « لا نكون حمقى إلى هذه الدرجة . تريدان ، اذن ، ان لا تتركا لنا فلساً !» .

حينئذ ، وكان البارون استعاد رباطة جأشه ، حاول ان يوقفه : « اسكت ! فكّر انك تتكلّم في حضور امرأتك » .

لكنه خبط الأرض ، بقدميه، سخطاً : « لا يهمني : هي تعرف تماماً ما حصل . هذه سرقة للاجحاف بحقها » .

مذهولة جانّ ، راحت تنظر بغير ان تفهم . فتلعثمت : « ماذا في الأمر ؟ »

حينها ، اتجه جوليان صوبها ، جعلها شاهدة ، كما مشاركة محرومة في ربح مرجوٍّ . وبسرعة ، أخبرها المؤامرة لتزويج روزالي ، هبة أرض بارڤيل الهي تساوي ، على أقلّ تعديل ، عشرين الف فرنك . وراح يكرّر : « مجنونان أبواكِ ، حبيبتي ، مجنونان هما ، ليهبا عشرين الف فرنك ! عشرين الف فرنك ! يبدو انهما فقدا صوابهما ! عشرون الف فرنك لولد غير شرعي ! »

استمعت جانّ ، غير منفعلة وغير غاضبة ، هي نفسها متعجّبة من هدوئها ، باتت غير مبالية الآن ، بكل ما ليس ابنها .

غصّ البارون ، ما وجد كلمة ليجيب . انفجر ، خابطاً قدمه ، صارخاً : « فكّر بما تقول ، انه مثير ، في النهاية . غلطة من هي ! اذا كان يجب إعطاء ، هذه الفتاة/الأم ؟ لمن هذا الصبي ؟ تريد ، الآن ، ان تتخلّى عنه ! »

عجب جوليان لغضب البارون ، نظر اليه بتركيز . ثم قال بنبرة أكثر استقراراً : « لكن الفاً وخمسمائة فرنك تكفي تماماً . كلهن ينجبن أطفالاً قبل ان يتزوّجن . ان كان لواحد أو لآخر . لن يتغيّر شيء في الأمر . فضلاً عن انك تعطي واحدة من مزارعك التي تساوي عشرين الف فرنك ، عدا الخسارة التي تجلبها علينا ، فانك ـ هكذا ـ تخبر الجميع بما حصل . كان الأجدر بك ، اقلّه ، ان تحسب ما سيحلّ باسمنا وبوضعنا » .

كان يتكلّم بصوتٍ قاسٍ ، كرجل مؤمنٍ بحقه وبمنطقه . اضطرب البارون لهذه الحجة غير المنتظرة ،! فبقي فاغراً فاه ، حينها ، شاعراً بتفوّقه ، فرض جوليان خلاصة رأيه : « الحمد لله ان شيئاً لم يحصل حتى الآن . اعرف الشاب الذي سيتزوّجها، إنه رجل طيّب ، ويمكننا تدبّر كلّ أمرٍ معه . أنا أتكفّل بهذا » .

وخرج على الفور ، خائفاً ، ولا شكّ ، من متابعة المناقشة ، سعيداً بصمت الجميع ، اعتبره موافقة .

منذ ان اختفى ، صرخ البارون ، مستاءً ، من المفاجأة ، ومرتجفاً : « آه ! هذا كثير ، هذا كثير ! » .

لكنّ جانّ ، رافعة عينيها على وجه ابيها المشدوه ، راحت ، فجأة ، تضحك ضحكتها النقيّة القديمة ، حين كانت تشاهد طرافةً ما .

كانت تردّد : « أبي ، أبي ، أسمعته كيف كان يقول : عشرون ألف فرنك ؟ » .

وهكذا الأم ، الكان المرح عندها ، سريعاً كما الدموع ، ارتجّت بضحكتها الضيّقة النفَس تملأ عينيها دموعاً ، لتذكّرها رأس صهرها الغاضب ، وهتافاته الساخطة ، ولرفضه العنيف إعطاء الفتاة التي أغواها ، مالاً ليس له ، وسعيدة كذلك لابتهاج جانّ .

حينها ، راح يضحك البارون ، بدوره ، أخذته العدوى ؛ وراح الثلاثة ، كما في الأيام السعيدة الماضية ، يمرحون فوق أي حدّ .

حين سكنوا ، إلى حدٍّ ، تعجّبت جانّ : « أمر عجيب ، بات لا يهمّني . أنظر إليه كغريب ، الآن . بتّ لا أستطيع التصديق أني امرأته . تريان كيف أنني أتسلّى بسماجاته »

وبدون أن يعرفوا لماذا ، تعانقوا مبتسمين رقيقي القلوب .

إنما ، بعد يومين ، وبعد الغداء ، حين كان جوليان في نزهة على الحصان ، اجتاز شاب السُّور بمراءاة ، كما لو كان كامناً هنا منذ الصباح . هو بين الثانية والخامسة والعشرين ، يرتدي قميصاً أزرق جديداً ، قاسي الثنيات ، بأكمام منتفخة ، مزرّر الأطراف . ولج على طول حفرة آل كويّار ، دار حول القصر وتقدّم ، بخطى مشبوهة ، من البارون والسيّدتين . ظلّوا جالسين تحت شجرة الدلب .

نزع قبّعته حين لاحظهم ، وتقدّم محيّياً ، بحركات متلبّكة .
منذ صار قريباً فيُسمع صوته ، غمغم : « خادمكم ، سيِّدي البارون ، سيِّدتي ورفيقتها . » ثم ، إذ لم يكلِّموه ، أعلن : « إنني ديزيريه لوكوك » .

لم يوحِ شيئاً هذا الاسم ، فسأل البارون : « ماذا تريد ؟ »

اضطرب الشاب للسؤال . رأى ضرورة أن يعلِّل سبب مجيئه . أخذ يتحدّث متلعثماً خافضاً عينيه ورافعهما بلا انقطاع عن قبعته البين يديه : « هو الخوري حدّثني قليلاً عن هذا الأمر . . . » ثم صمت خوفاً من أن يفلت الكلام منه فيعرّض مصالحه للخطر .

لم يفهم البارون ، فقال : « أي أمر ؟ لا أفهم »

خفض الشاب صوته وأعلن : « أمر خادمتكم . . . روزالي . . . »

فهمت جانّ ، قامت وابتعدت وابنها على ذراعيها . قال البارون : « إقترب » ، ودلّه على كرسيّ ابنته .

جلس القرويّ وهو يهمس : « أنت رجل شريف تماماً . » ثم انتظر كلام البارون كأن لم يبقَ عنده ما يقول . بعد صمت ليس بقصير ، قرّر الكلام ، فرفع عينيه إلى السماء الزرقاء ، قال : « طقس جميل في هذا الفصل . الأرض تستفيد ، خاصة الأرض المزروعة » .

وصمت من جديد .

نفد صبر البارون ، فانقضّ مباشرة على الموضوع ، بنبرة قاسية : « إذن ، هذا أنت من يتزوّج روزالي ؟ »

اغتمّ الرجل : اضطرب في عاداته كمراوغ نورماندي : « هذا يتوقّف على الظروف . . . ربما نعم ، ربما لا ، بحسب الظروف » .

غضب البارون لمراوغته : « تبًّا لك ! أجب بصراحة : ألأجل هذا أنت أتيت : نعم أم لا ؟ تتزوّجها : نعم أم لا ؟ »

متحيِّراً ، الرجل ، ما عاد نظر إلا في قدميه : « إذا كان ما قاله الخوري صحيحاً ، أتزوّجها ، وإذا كان ما يقول السيّد جوليان هو الصحيح ، فأنا لا أتزوّجها أبداً » .

- ماذا قال لك السيّد جوليان ؟

- قال لي إنني أحصل على ألف وخمسمائة فرنك . والخوري كان قال : إنني أحصل على عشرين ألف . أقبل بعشرين ألفاً ، لكني لن أقبل أبداً بألف وخمسمائة » .

حينها ، راحت البارونة ، الكانت ما تزال غائصة في كرسيّها، أمام موقف قلق الرجل الخشن، راحت تضحك ضحكات قصيرة ضيّقة النفس . التفت إليها القروي شذراً، بعين غير راضية، غير فاهم مرحها . وانتظر .

اختصر البارون ، إذ المتاجرة تزعجه : « قلت للخوري إنك ستحصل على مزرعة بارڤيل ، خلال حياتك كلها ، ثم تعود بعدئذ للولد . هي تساوي عشرين ألف فرنك . ليس لديّ إلاّ كلمة . تقبل : نعم أم لا ؟ » .

ابتسم الرجل بسذاجة وسرور ، وانقلب ثرثاراً : « آه ! مع هذا ، لا أقول : لا . ما كان يعترضني إلاّ هذا . حين حدّثني

الخوري ، وافقت بسرعة وأردت أُسرّ السيّد البارون . ليس جميلاً أن نفرض الأمور فرضاً ، لأننا لا بدّ أن نلتقي في ما بعد . لكن السيّد جوليان جاء يقول لي : إنها ليست إلاّ ألف وخمسمائة . قلت في نفسي : يجب أن أعرف ، فأتيت . ليس لأن لا ثقة لي ، بل أردت أن أعرف . ليس إلاّ الحسابات الصحيحة ، مَن تبقي أصدقاء حقيقيين . . هذا قول غير حقيقي ، سيِّدي البارون . . . » .

كان يجب أن يقاطع . سأله البارون :

- « متى تريد أن تقرِّر الزواج ؟ » .

استعاد الرجل ، بسرعة ، خجله ، وامتلأ ارتباكاً . انتهى بأن قال ، متلعثماً : « ألا تحرِّر لي ، قبل ، ورقة صغيرة ؟ » .

غضب البارون هذه المرّة : « لا . بما أنك ستحصل على اتفاقية الزواج . هذه أفضل الأوراق » .

كان القروي مهووساً : « إنما ، بالانتظار ، نستطيع أن نكتب ورقة بسيطة . لا تضرّ » .

قام البارون ، وخلص إلى القول : « أجب : نعم أم لا ؟ وبسرعة . إذ لم تعد تريد ، قل ، لدي طالب زواج آخر » .

خوف المنافس أرعب النورماندي المحتال . قرَّر ، مدّ يده ، كما بعد مشترى بقرة : « أوافق ، سيِّدي البارون ، انتهى . أبله من يعود عن كلامه » .

صافحه البارون ، ثم هتف : « لوديفين ! » بدا رأس الطاهية في النافذة : « هاتي قنينة نبيذ » . دقّا كأساً بكأس لينهيا الأمر .

وذهب الشاب بخطى أكثر نشاطاً .

ما قالوا شيئاً لجوليان عن أمر هذه الزيارة . حُضِّر العقد بسريّة كبيرة ، ثم بعد طبع البطاقات ، تمَّ احتفال الزواج صباح يوم اثنين . . .

حملت الطفل إلى الكنيسة جارة ، وراء الزوجين الجديدين ، كأنه وعد حقيقي بالثروة . وما تعجَّب أحد في المنطقة . كانوا يحسدون ديزيريه لوكوك . كان وُلد أجرد ، قالوا ، مع ابتسامة خبيثة لا يخالطها أي سخط .

قام جوليان بمشاحنة رهيبةاختصرت إقامة حمويه في غيضة الحور . رأتهما جانّ يذهبان ، بدون حزن ، منها ، عميق ، كان صار پول ، لها ، نبع سعادة لا ينضب .

IX

بعدما تركت جانّ سريرها أثر وضعها ، تقرَّر أن يزورا آل فورڤيل وأن يقدّما أنفسهما لدى المركيز دي كوتوليه .

كان اشترى جوليان ، في مزاد علني ، عربة جديدة يجرّها حصان واحد . هكذا يخرجان في الشهر مرّتين .

حُضِرت في يوم صافٍ من كانون الأول ، وبعد ساعتين في الطريق عبر السهول النورماندية ، ابتدأ الهبوط في وادٍ صغير ، جانباه مشجّران وعمقه مستثمر .

ثم انتهت الأراضي المزروعة إلى مروج ، والمروج إلى مستنقع مليء قصباً قاسياً ، في هذا الفصل ، لأوراقه الطويلة حفيف وهي تشبه شرائط صفراء .

فجأة ، بعد منعطف فجائي في الوادي ، ظهر قصر قرّيات ، مسنوداً ، من جهة ، إلى المنحدر المشجّر ، ومن الأخرى مبلّلاً كل سوره في مستنقع كبير ينتهي ، في آخره ، بغابة صنوبريّة متسلّقة منعطف الوادي الآخر .

كان عليهما المرور فوق جسر متحرّك واجتياز بوّابة واسعة من طراز لويس الثالث عشر ، للدخول إلى ساحة الشرف أمام قصير ريفي أنيق من الطراز نفسه ، إطاره من قرميد محصّن بأبراج صغيرة

مغطّاة بالحجارة الزرقاء والسوداء .

أخذ جوليان يشرح لجانّ كل أقسام البناء كمعتاد عليه يعرفه جيِّداً . كان يفاخر به ، منتشياً بجماله : « انظري هذا المدخل الفخم ، أليست عظيمة سكنى كهذه ؟ كل الواجهة الأخرى في المستنقع ، مع درج مدخل ملوكي ينزل حتى المياه . ومراكب أربعة مربوطة عند أسفل الدرج ، اثنان للكونت وللكونتيسّة إثنان . هناك ، إلى اليمين ، حيث ستار من الحور ، آخر المستنقع . هنا تبدأ الساقية الذاهبة إلى فيكام . إنه مليء بطيور الغدران هذا المكان . يعشق الكونت الصيد فيه . انه ، بالحقيقة ، مقرّ مولويّ » .

كان فُتح باب المدخل ، وبدت الكونتيسّة الشاحبة ، باسمة بوجه الزائرَين ، مرتدية ثوباً ينسحب وراءها كما سيّدة قصر من الزمان القديم . كانت تبدو تماماً ، سيِّدة البحيرة الجميلة ، المولودة لهذا القُصَير الريفيّ الكأنه من الأساطير .

للصالون ثمان نوافذ ، منها أربع تنفتح على المياه وعلى الغابة الصنوبرية الظليلة الكانت تغطّي التلّة المقابلة تماماً .

الخضرة المائلة إلى السواد جعلت المستنقع عميقاً قاتماً ومحزناً . وحين يهبّ الهواء ، يتصاعد أنين الشجر وكأنه صوت هذا المستنقع .

أخذت الكونتيسّة يدي جانّ ، مسلّمة عليها ، كما لو هي صديقتها منذ الطفولة . ثم أجلستها ، وجلست بجانبها ، على مقعد واطىء ، بينما جوليان ، الكان استعاد من شهور خمسة ، كل

أناقاته المنسية ، راح يتحدّث ويبتسم ، ناعماً وقريباً إلى القلب .

تحدثت الكونتيسّة وإياه ، عن نزهاتهما على الحصان . كانت تهزأ - قليلاً - من طريقته في الصعود إلى ظهر الحصان ، تسمّيه « الفارس المتعثّر » ، وكان يضحك ، وأسماها « الملكة الفارسة » . سُمع طلق بندقيّة تحت النوافذ ، فاجأ جانّ فخشيت قليلاً . إنه الكونت ، كان قتل طيراً مائياً يشبه البطة .

سريعاً نادته زوجته . سمعوا ضجة مجاذيف ، صدمة زورق بالحصى ، وظهر ، ضخماً ومحتذياً جزمة ، يتبعه كلبان مبلّلان ، محمرّان مثله ، ناما على السجادة أمام الباب .

بدا مرتاحاً أكثر ، في مسكنه ، ومسروراً لرؤ يته ضيوفاً . وضع حطباً في النار ، أتى بخمر وببسكوت ؛ وفجأة هتف : « ستتعشيان معنا ، اتفقنا . » رفضت جانّ ، المفكّرة ، أبداً ، بابنها ، ؛ أصرّ ، وبما أنها ما كانت تودّ القبول ، بدا على جوليان نفاد الصبر ، خافت يستيقظ فيه مزاجه الشرير والمحبّ للمشاحنات ، فقبلت ورأت في الأمر تعذيباً لها لفكرة انها لن ترى بول قبل الغد .

كان بعد الظهر جميلاً . زاروا الينابيع ، أوّلاً ، تتفجّر عند قدم صخرة مغطّاة بالطحلب في حوضٍ صافٍ متحرّك دائماً كأنه مياه تغلي . ثم ذهبا نزهة في الزورق عبر طرقات حقيقية مخطّطة في غابة قصب يابس . جلس الكونت يجذّف ، حواليه كلباه يشتمّان . كل هزّة من مجذافيه ، كانت ترفع الزورق الكبير وتدفعه إلى الأمام . تترك ، جانّ ، يدها تتبلّل بالمياه ، أحياناً ، وتنتعش بالنداوة الباردة الكانت تركض من أصابعها إلى القلب . في آخر الزورق ، تماماً ،

جوليان والكونتيسّة الملتفّة بوشاح ، يبتسمان ابتسامة متواصلة ، كأنها ابتسامة أناس سعداء ، لا تترك لهم السعادة شيئاً ليتحدّثا فيه .

حلّ المساء ، مع ارتعاشات طويلة باردة ، وهبّات من الشمال تمرّ في الأسلات الذابلة . كانت غطست الشمس وراء الصنوبر . والسماء الحمراء ، الفيها غيوم صغيرة قرمزية وغريبة ، تشدُّ إلى التطلّع إليها ، تُنسي البرد .

دخلوا البهو الواسع حيث تشتعل نار قوية . شعور بالدفء ، والسرور جعلهم سعيدين منذ الباب . حينها ، أخذ الكونت الفرِح زوجته بيديه القويتين ، رفعها ، كما طفل ، إلى فمه ، وقبّلها على خدّيها قبلتين كبيرتين تنمّان عن طيبته وسروره .

نظرت جانّ ، مبتسمة ، هذا العملاق الطيّب الكان يُحسب غولاً لمرأى شاربيه فقط ، وراحت تفكّر : « كم نُخْدَع ، كل يوم ، حول كل الناس . » نقلت عينيها ، تلقائياً ، إلى جوليان ، رأته واقفاً في فتحة الباب ، شاحباً كلياً ، وعينه ثابتة في الكونت . حزينة ، اقتربت من زوجها ، وبصوت خافت سألته : « هل أنت مريض ؟ ما بك ؟ » أجاب بنبرة غاضبة : « لا شيء . أتركيني هادئاً . أصبت بالبرد » .

حين دخلوا غرفة الطعام ، استأذن الكونت ليدخل كلبيه . قدما وانزرعا على مؤخرتها ، إلى يمين سيّدهما وإلى شماله . كان يقدّم لهما ، لحظة إثر لحظة ، قطعة ما ويداعب آذانهما الطويلة الناعمة الملمس . يمدّ الحيوانان الرأس ، يحرّكان الذنب ، ويرتعشان حبوراً .

بعد العشاء ، راح جانّ وجوليان يستعدّان للذهاب ، فاستبقاهما السيّد دي فورڤيل ليريهما فترة صيد على المطابيح .

أوقفهما ، وكذلك الكونتيسّة ، على درج المدخل المؤدي إلى المستنقع . وصعد إلى مركبه مع خادم حامل شبكة صيد ومشعلاً مضاءً . كانت الليلة صافية وقارصة ، إلى حدٍّ ما ، تحت سماء مزروعة ذهباً .

كان المشعل ينعكس على المياه خطوط نار غريبة ومتحرّكة ، يرمي أضواء راقصة على القصب ، ويضيء ستار الصنوبر الكبير . وفجأة ، إذ استدار المركب ، ترامى ظلّ هائل ، خارق ، ظلّ رجل ، على هذه الحدود المضاءة للغابة . يتجاوز الرأسُ الشجرَ ، يضيع في الفضاء . والقدمان تغرقان في المستنقع . ثم رفع الكائن الضخم ذراعيه كما ليقطف النجوم . بغتة ، استقامت الذراعان الهائلتان ، ثم وقعتا . فسُمِع صوت صغير لمياه تُجْلَد .

انعطف المركب قليلاً ، فبدا الشبح الضخم يركض على امتداد الغابة ، التي تنيرها الأضواء وهي تستدير . ثم غاص في الأفق اللامرئي ، وفجأة ، ظهر ، أصغر إنما أكثر وضوحاً ، بحركاته الخاصة ، أمام واجهة القصر .

هتف صوت الكونت الضخم : « جيلبرت ، عدت بثمانية »

صفقت المجاذيف الموج . بقي الظل الضخم ، الآن ، واقفاً ، ثابتاً على السور . إنما ناقصا رويدًا رويداً : قامة ووساعةً . رأسه بدا ينحدر ، جسمه يضعف . وحين صعد السيّد دي فورڤيل درجات

المدخل ، متبوعاً دائماً بخادمه الحامل النار ، كان ظلّه صار متناسباً مع حجم جسمه ، ويعيد كل حركاته .

كان معه ، ثماني سمكات ضخمة تختلج في شبكة .

حين صار جوليان وجانّ في الطريق ، ملتفّين بمعاطف وأغطية استعاروها ، قالت جانّ ، تلقائياً تقريباً : « يا له من رجل طيّب كريم هذا العملاق ! » أردف جوليان وهو يقول : نعم ، لكنه لا يظهر دائماً بمظهر لائق أمام الناس » .

بعد ثمانية أيام ، ذهبا إلى آل كوتوليه الكانوا يعتبرون العائلة النبيلة الأولى في كل المقاطعة . مسكنهم في ريمينيل يلامس برج كاني الضخم . القصر الجديد ، المبني أيام لويس الرابع عشر ، كان يختبىء في بستان رائع تحدّه حيطان . على علوٍّ ما ، ترى آثار القصر القديم . أدخلَ الزائرَين إلى غرفة كبيرة مهابة ، خدم بلباس خاص . تماماً في الوسط ، عمود يحمل حجراً منحوتاًمن مصنع سافر ، وعلى قاعدته رسالة بخط الملك ، تقيها صفيحة من كريستال ، تدعو المركيز ليوبولد - هيرڤيه - جوزف - غرمر دي ڤارنڤيل دي رولّبوسك دي كوتوليه ، ليقبل هذه الهبة منه .

كانت جان ، وكذا جوليان ، يراقبان هذا الشاهد الملَكي ، حين دخل المركيز والمركيزة . كانت المرأة ذارّة مساحيق على وجهها ، محبّبة بالمنصب ، متصنّعة لتبدو متسامحة بتعجرف . أمّا الرجل ، الضخم المنظر ، الشعره الأبيض مرفوع ، فكان يضع بحركاته ، بصوته ، بكل تصرفاته ، تعالياً يظهر أهميته .

كانا من هؤلاء الناس أصحاب المراسيم ، تبدو ذهنيّتهم ،

وعواطفهم وكلماتهم ، وكأنها على عكاز بهلوان .

تحدّثا وحدهما ، بدون انتظار الأجوبة ، مبتسمَين بلا مبالاة ، يبدوان ، دائماً ، يتمّمان وظيفة فُرضت منذ المولد بتقبّل ، زيارات الاشراف الصغار في الجوار ، بلياقه .

جانّ وجوليان أحسّا نفسيهما كسيحَين ، يجتهدان لإلقاء البهجة ، منزعجَين أن يبقيا أكثر ، ولا يريان من اللائق الانسحاب . لكنّ المركيزة أنهت ، هي نفسها ، الزيارة ، طبيعياً ، ببساطة ، موقفة المحادثة كما ملكة مهذّبة تسمح بالذهاب .

في العودة ، قال جوليان : « نحدّد زياراتنا ، هنا ، إذا أردتِ . أنا ، يكفيني آل فورڤيل . » كانت جانّ من رأيه .

كان يمرّ ببطء كانون الأول ، هذا الشهر الأسود ، ثقب مظلم في طرف السنة . عادت الحياة المنغلقة كما في العامِ الماضي . مع ذلك ، ما كانت جانّ لتضجر ، هي منشغلة ، دوماً ، ببول الكان ينظر إليه جوليان شذراً ، بعين حزينة وغير راضية .

أحياناً ، حين كانت الأم تأخذه بين ذراعيها ، تداعبه بفورة من حنان تميّزت بها النساء لأولادهنّ ، كانت تقدمه للوالد ، قائلة له : « قبّله مرّة ، يُرى كأنك لا تحبّه . » فيلامس بطرف شفتيه ،وبشكلٍ قَرِفٍ ، جبين الصبي الأجرد ، راسماً دائرة بكلّ جسمه، كما من لايود أن يلتقى أبداً اليدين الصغيرتين المتحرّكتين المتشنّجتين . ثم يذهب ، بسرعة ، كأن اشمئزازاً يطرده .

بين وقت وآخر ، كان يأتي للعشاء ، المختار والطبيب والخوري . وبين فينة وأخرى ، كذلك ، يكون آل فورڤيل وكانت

تتوطّد العلاقة معهم أكثر فأكثر .

كان يبدو الكونت يعبد پول . يأخذه على ركبتيه كل وقت الزيارة ، وحتى طوال بعد ظهر أيام كثيرة ، بكامله . كان يقلّبه ، بطريقة ناعمة ، بيديه الضخمتين كجبّار ، يدغدغ له طرف أنفه ، بأطراف شاربيه الطويلين ، ثم يقبّله بانطلاقات متلهّفة ، كما الأمهات . كان يتألم ، باستمرار ، كون زواجه بقي عقيماً .

جاء آذار صافياً ، ولطيفاً . فعادت الكونتيسّة جيلبرت للحديث عن النزهات على الحصان ، متعبة ، جانّ ، من المساءات الطويلة ، من الليالي الطويلة ، من الأيام الطويلة المتشابهة والرتيبة ، فوافقت سعيدة بهذه المشاريع . وخلال أسبوع راحت تتسلّى بتحضير ثوبها الفروسي .

ثم بدأت الرحلات . كانوا يذهبون دائماً اثنين اثنين . الكونتيسّة وجوليان في الأمام ، الكونت وجانّ ، على مئة خطوة ، وراءهما . هكذا يتكلّمان ، كانا ، بهدوء كما صديقين : صارا صديقين لالتقاء روحيهما المستقيمتين ، وطيبة قلبيهما . بينما الأوّلان يتحدّثان همساً أكثر الأحيان ، يضحكان ، مرات ، مقهقهين بعنف ، ينظران إلى بعضهما البعض بغتة ، كما لو لعينيّ كلّ منهما أن تقولا أشياء لا يتحدّث بها الفم ؛ ويذهبان ، فجأة ، قفزاً ، مدفوعَين بلذة الهرب ، للذهاب بعيدًا ، بعيدًا جدًّا .

بعد فترة ، صارت جيلبرت سريعة الانفعال . كان صوتها الحي ، يصل ، أحياناً ، إلى الفارسين المتأخرين ، محمولاً مع النسمات . يبتسم الكونت ، يقول لجانّ : « ليست مهذّبة كل

الأيّام زوجتي »

ذات مساء، وهم عائدون ، راحت الكونتيسّة تثير فرسها ، تنخزها، ثم تمسك زمامها باهتزازات سريعة ، فسُمع جوليان يردّد : « إحذري ، إحذري ، ستوقعك » اعترضت : « لا عليك ، هذا ليس من شأنك » ، بنبرة واضحة وقاسية ، حتى إن الكلمات ترجّعت في المنطقة كما لو انها بقيت معلّقة في الفضاء .

شبّ الحيوان ، راح يرفس ، يسيل لعابه . فجأة ، صرخ الكونت ، كئيباً ، بكلّ قوّة رئتيه : « انتبهي يا جيلبرت ! » حينها ، وكما تحدِّياً ، في واحدة من ثوراتها العصبية الجامحة كامرأة لا يوقفها شيء،ضربت الحيوان ،بقسوة ،بين أذنيه، فانتصب غاضبا ، ضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين ، ومعيداً إياهما إلى الأرض ، انطلق ، بقفزة هائلة ، وأسرع ، عبر السهل ، بكلّ قوّة .

اجتازت ، أوّل الأمر ، مرجاً ، ثم أسرعت عبر الحقول المفلوحة ، فيتطاير الغبار كثيفاً ، واختفت بسرعة حتى انهم لم يلحظوا ، إلا بصعوبة ، المطيّة والفارسة .

بقي جوليان مكانه ، مذهولاً ، منادياً بيأس : « سيّدتي ، سيّدتي ! »

لكنّ الكونت ، تذمّر ، وانحنى على عنق حصانه الثقيل ، وقذفه ، إلى الأمام ، بكلّ قوّته ، وأطلقه بأقصى سرعة ، مثيراً إياه ، مخيفه ، بالصوت والحركة والمهماز ، إلى حدّ بدا معه كأن الفارس الضخم يحمل الحصان بين فخذيه ويشيله كما ليطير . كانا يسرعان بسرعة خارقة ، واثبين باتجاه مستقيم . ورأت جانّ ، في

البعيد ، شبحي المرأة والزوج ، يهربان ، يهربان ، ينقصان ، يمّحيان ، يغيبان ، كما عصفوران يتبع واحدهما الآخر ، يضيعان ويتلاشيان في الأفق .

حينها ، اقترب جوليان ، مشياً ، مردِّداً بغضب : « أظن أنها ، اليوم ، مجنونة » .

وذهبا ، كلاهما ، خلف صديقيهما الغارقين ، في تموّجات السهل .

خلال ربع ساعة ، لاحظاهما يعودان ، وسرعان ما التقوا .

كان الكونت أحمر ، عرقاناً ، ضاحكاً ، سعيداً ، ظافراً ، ممسكاً ، بقبضته القوية ، حصانٍ امرأته المرتجف . هي ، شاحبة كانت ، ذات وجه موجع ومتشنّج . ومتعلقة بكتف زوجها كأنها سيغشى عليها .

فهمت جانّ ، يومها ، أنّ الكونت يحبّ بوله .

ثم بدت الكونتيسّة ، خلال الشهر الذي تلا ، سعيدة كما ولا مرّة . غالباً ما كانت تأتي إلى غيضة الحور ، تضحك باستمرار ، تقبّل جانّ بفيض حنان . كانت كأن نشوة سريَّة هبطت على حياتها . زوجها ، سعيد هو الآخر ، لم يكن يفارقها بعينيه ، ويحاول ، في كل لحظة ، ملامسة يدها ، ثوبها ، بشغف مضاعف .

في مساء ما ، قال لجانّ : « هذه الأيام ، نحن في السعادة . ولا مرة ، جيلبرت ، كانت لطيفة هكذا . لا يعتريها بعد ، أبداً ، سوء مزاج ، ولا غضب . أشعر أنها تحبّني . ما كنت متأكداً من هذا قبل اليوم » .

جوليان أيضاً ، بدا متغيّراً ، أكثر فرحاً ، صبوراً ، كأن صداقة العائلتين جلبت السلام والفرح لكل منهما .

أتى الربيع باكراً وحاراً .

كانت الشمس ، منذ الصباح الناعم ، وحتى المساء الهادىء والحارّ نوعاً ، تعمل على أن تنبت كل مساحة الأرض . كان تفتحاً سريعاً وقادراً ، لكل البذور ، في وقت معاً ، نوع من انطلاقة لا تُغْلب لنسغ الحياة ، نوع من شوق لاعادة الخلق ، تظهرها الطبيعة ، أحياناً ، في سنوات خاصة ، وتجعلنا نظنّ بتجدّد العالم .

شعرت ، جانّ ، باضطراب غامض في هذا الاختمار للحياة . كان بها وهن مفاجىء أمام زهرة ، في العشب ، صغيرة ، وسويداء عذبة ، وساعات تراخٍ حالمات .

ثم أحسّت بنفسها تعودها ذكريات حنونة من الأيام الأولى لحبها . ليس نوعاً جديداً من العاطفة نحو جوليان ، لا ، هذا كان انتهى ، إلى الأبد . لكن جسدها ، الملاطفه النسيم ، التخترقه عطور الربيع ، كان يضطرب كأن جاذباً خفيًّا وحنوناً يناديه .

تسرّ ، كانت ، في أن تبقى وحيدة . في أن تترك نفسها في حرارة الشمس ، تخترقها الأحاسيس ، اللذائذ المبهَمَة والصافية الما كانت توقظ ، أبداً ، أيّة أفكار .

وذات صباح ، إذ هي وسنانة هكذا ، اخترقتها رؤ يا ، رؤ يا سريعة من ذلك الثقب المضاء وسط عتمات الأوراق الكثيفة ، في الغابة الصغيرة قرب إتْرِتا . هنا ، لأوّل مرة ، كانت شعرت بجسدها يرتعش قرب ذلك الشاب الكانت تحبّه . هنا همس ، لأوّل

مرة ، برغبة قلبه الخجولة . وهنا ، أيضاً ، كانت حسبت أنها ستحقّق مستقبلاً منيراً لآمالها .

وأرادت ، من جديد ، أن ترى تلك الغابة ، أن تحجّ إليها في زيارة عاطفية ووهميَّة ، كأنّ عودة إلى هذا المكان ، تستطيع تبديل شيء في مسيرة حياتها .

كان جوليان خرج من الفجر ، لا تدري إلى أين . أسرجت حصان آل مارتان الأبيض الصغير الكانت تركبه مرات وخرجت .

ذلك كان في واحدة من النهارات الهادئة ، التي لا يتحرّك فيها شيء ولا في أيّ مكان ، لا عشبة ، لا ورقة . كل شيء يبدو جامداً حتى نهاية الأزمنة ، كما لو أن الهواء مات . حتى ليُظنّ أنّ الحشرات نفسها اختفت .

بلا شعور ، نزل من الشمس ، هدوء ملتهب وسخيّ ، على شكل بخار ذهبيّ . كانت جانّ ذاهبة ببطء ، متمرجحة ، سعيدة ، على ظهر حصانها الصغير . ترفع عينيها ، من حين لآخر ، لترى غيمة صغيرة بيضاء ، ضخمة كما قبضة قطن ، كبّة بخار معلّقة ، منسيّة ، باقية فوق ، وحدها ، وسط السماء الزرقاء .

نزلت صوب الوادي المترامية إلى البحر ، بين عقد الجسور الكبيرة ، التي للشاطىء الصخري : أبواب إتْرِتا ، وعلى مهل دخلت الغابة . كانت تمطر نوراً عبر خضرة ما تزال نحيلة . تبحث عن المكان ولا تجده ، هائمة في الدروب الصغيرة .

لاحظت ، فجأة ، بطرف الممر الطويل الذي تجتازه ، حصانين مُسرَجين ، مربوطين إلى شجرة . سريعاً عرفتهما . إنهما

لجيلبرت ولجوليان . كانت بدأت الوحدة تثقل عليها ، فسعدت بهذا اللقاء غير المنتظر ، وجعلت مطيّتها تخبّ .

حين وصلت إلى الحيوانين الصبورين الكأنهما معتادان هذه المحطّات الطويلة ، نادت . لم يجبها أحد .

لاحظت قفّاز امرأة وسوطين على العشب . كانا جلسا هنا ، إذن ، ثم ابتعدا ، تاركين حصانيهما .

انتظرت ربع ساعة ، عشرين دقيقة ، متفاجئة ، بدون أن تفهم ما يمكن أن يكونا يعملان .

كانت متكئة إلى جذع شجرة بدون حراك ، فرأت عصفورين صغيرين ، لم يرياها ، يتقاتلان على العشب ، قربها . أحدهما ، كان يقفز حول الآخر ، بجناحان مرفوعان ومهتزّان ، محيّياً برأسه ومزقزقاً ، وفجأة تزاوجا .

فوجئت جانّ وكأنها تجهل هذا الأمر . ثم قالت في ذاتها : « إنّه الربيع » . ثم طرأت فكرة أخرى ، هاجس . نظرت ، مجدّداً ، إلى القفّاز ، إلى السَّوطين ، إلى الحصانين المتروكين ، ثم صعدت بغتة إلى ظهر الحصان برغبة ، في الهرب ، لا تقاوَم .

راحت تقفز عائدة إلى غيضة الحور ، رأسها منهمك ، تفكّر ، تربط الأحداث ، تقابل المناسبات . كيف لم تحزر من قبل ؟ كيف لم تكن رأت شيئاً ؟ كيف لم تكن فهمت تغيُّب جوليان ، واستعادت تأنّقه الماضي ثم هدوء طباعه ؟ تذكّرت ، كذلك ، مباغتات جيلبرت العصبيّة ، ملاطفاتها المفرطة ، ومنذ وقت ، هذا النوع من الغبطة ، تحيا فيها والكان الكونت سعيداً بسببها .

أعادت الحصان إلى تمهّله : يلزمها تفكير متعمّق ، والسرعة تعرقل أفكارها .

بعد انفعالها الأوّلي ، عاد قلبها هادئاً ، تقريباً ، ولا حسد أو كره ، إنما فورة احتقار . ما فكّرت ، أبداً ، بجوليان . ما يدهشها شيء فيه ، لكنّ خيانة الكونتيسة ، صديقتها ، المزدوجة ، جعلتها تثور . إذن ، كلّ الناس غادرون بطبعهم ، كَذَبَة ، ومزيّفون . وغصّت عيناها بالدموع : مرات ، نبكي التوهّمات بحزن يضاهي بكاءنا الموتى .

مع ذلك قرّرت أن تتظاهر بأنها لم تعرف شيئاً ، أن تغلق روحها بوجه الانفعالات ، أن لا تحبّ سوى پول وأبويها ، وأن تتحمّل الآخرين بوجه هادىء .

فور عودتها ، ترامت على ابنها ، حملته إلى غرفتها ، وبوله راحت تقبّله ، خلال ساعة ، دون أن تتوقّف .

عاد جوليان للعشاء ، لطيفاً ومبتسماً ، مليئاً بالايناس . سأل : « ألا يأتي أبواك هذه السّنة ؟ » .

رأت منه لطيفة هذه الالتفاتة ، فغفرت له ما اكتشفته في الغابة . واعترتها رغبة عنيفة فجائيّة لرؤية الكائنين اللذين تحبّهما الأكثر بعد پول . قضت سهرتها كلّها تكتب إليهما ، تستعجلهما المجيء .

أعلنا عودتهما في العشرين من أيّار . ما يزالون في السابع منه .

انتظرتهما بنفاد صبر متعاظم ، كما لو أنّها اكتشفت ، خارج

عاطفتها البنويَّة ، حاجة جديدة ، أن يتّصل قلبُها بقلوب شريفة ، أن تتحدَّث ، بانفتاح ذهنيّ ، مع أناس أنقياء ، خالين من كلّ تصرّف شائن ، حياتهم وأعمالهم وأفكارهم ورغباتهم ، كلّها كلّها ، ودائماً كانت مستقيمة .

ما تشعر به الآن ، كان نوعاً من توحّد الضمير وسط كلّ هذه الضمائر الخؤونة . ومع كونها كانت تتكتّم جيّداً ، وتستقبل الكونتيسة ، جيداً ، بيدٍ ممدودة ، وشفةٍ مبتسمة ، كانت تشعر أن إحساسها بالفراغ ، باحتقار الرجال ، يكبر ، يلفّها كلّها . وأخبار المنطقة البسيطة وهي تصلها ، كلّ يوم ، كانت ترمي في روحها قرفاً أكبر ، واحتقاراً للناس أعمّ وأشمل .

رُزقت ابنة آل كويّار ولداً ، الزواج قريب الحصول . خادمة آل مارتان ، وهي يتيمة ، كانت حاملاً ، جارة صغيرة ، في الخامسة عشرة ، كانت حاملاً . أرملة ، امرأة فقيرة عرجاء وكريهة ، يسمّونها « الوحلة » لقدر ما تظهر وساختها فائقة الوصف ، هي الأخرى ، كانت حاملاً .

كلّ آنٍ ، كان يُسمع عن حمل جديد ، أو عن مغامرة فتاة ، أو قرويّة متزوّجة وربّة أسرة ، أو عن مزارع ما ، غنيّ ومحترم .

هذا الربيع النشيط بدا يحرّك نسغ الحياة عند الانسان كما عند النبات .

إلّا جانّ ، فهي مطفأة الحواسّ خامدة ، ممزّقة القلب ، عاطفيّة الروح ، بدت ، فقط ، تهتزّ للأنفاس الفاترة والخصبة ، كانت تحلم ، مهوّمة دون لذات ، متألّمة لرؤى ، ميتة تجاه الحاجات

الجسديَّة ، لذلك تعجب ، ملأى بالنفور ، الكان يتحوّل احتقاراً لهذه البهيميّة الوسخة .

تزاوج الكائنات صار يثيرها ، كما لو أنه عمل ضد الطبيعة . وإذا ما سخطت على جيلبرت ، فليس ذلك ، أبداً ، لكونها اختطفت منها زوجها ، بل لكونها انساقت في هذا الفجور العامّ .

لم تكن هذه من نوع الانحطاطيين من تسيطر عليهم غرائزهم . فكيف استطاعت أن تتهاون كما هؤلاء البهيميون ؟

في اليوم نفسه الذي سيصل فيه أهلها ، أجّج جوليان ما يثير نفورها منه ، حين أخبرها ، وهو فَرِح ، كما لو أن الأمر طبيعيّ ومضحك ، أنّ الخبّاز ، حين سمع ضجّة في فرنه ، ذات أمسية ليس فيها خبز ، حسب أنه سيفاجىء هرّة جوّالة ، لكنّه وجد زوجته « وما كانت تخبز خبزاً » .

وأضاف · « أقفل الفرّان الباب ، فكادا يختنقان في الداخل ، ابنها الصغير أخبر الجيران كي يفتحوا ، كان رآها تدخل مع الحطّاب .

وضحك جوليان ، مردّداً : « يطعماننا خبز الحب ، هذان المهرّجان . كأنها قصة حقيقية للافونتين » .

ما عادت جانّ جرؤت أن تلمس الخبز .

حين توقّفت عربة الأجرة أمام درج المدخل ، وظهر وجه البارون السعيد ، خفق في روحها وقلبها انفعال عميق ، انطلاقة عاطفية صاخبة ، كما ، ولا مرّة ، من قبل .

إنما بقيت منذهلة ، تكاد تكون خائرة القوى ، حينما رأت

أمّها . في أشهر الشتاء الستّة ، هذه ، كانت البارونة شاخت عشر سنوات . خداها الضخمان ، الرخوان ، المتدليان ، كانا احمرّا ، كأنهما منتفخان من الدم . كأن نظرها بدا مطفأ . ما عادت تتحرّك إلا محمولة من ذراعيها . تنفّسها الشاقّ كان صار صغيراً ، وصعباً إلى حدّ أن من حولها ، كان يشعر بانزعاجها الموجوع .

لم يكن البارون لاحظ هذا التحوّل . هو يراها كل يوم . وحين كانت تشكو من ضيق نفسها المتواصل ، من ثقلها المتعاظم ، كان يجيبها : « كلا ، حبيبتي ، هكذا عرفتك دائماً » .

بعد أن رافقتهما ، جانّ ، إلى غرفتهما ، انسحبت ، إلى غرفتها ، تبكي ، مُبَلْبَلَة ، مشدوهة . ثم راحت تبحث عن أبيها ، ومرتمية على صدره ، وعيناها مبتلّتان دموعاً ، نشجت : « آه ! كم تغيّرت أمّي ! ما بها ، قل لي ، ما بها ؟ » فوجىء كلياً ، وأجاب : « أو تظنّين ؟ يا لها من فكرة ! لا . أنا ، ما تركتها أبداً ، أؤكد لكِ أني لا أجدها سيّئة الحال ، إنها كما دائماً » .

مساءً ، قال جوليان لزوجته : « تبدو أمّك متغيّرة . كأنها تسير إلى الأسوأ » . وبما أنّ جانّ انفجرت بكاءً ، نفد صبره ، قال : « أنا لم أقل لك إنها مائتة . أنتِ دائماً تبالغين بجنون . تغيّرت ، وهذا كل ما في الأمر ، بسبب سنّها » .

خلال ثمانية أيام ، ما عادت فكّرت بشيء ، اعتادت مرأى أمّها ، رافضة ، ربما ، مخاوفها ، كما نرفض ، كما نُبعد ، دائماً ، بنوع من الغريزة الأنانيّة ، بنوع من الحاجة الطبيعية إلى سكينة الروح ، التخوّفات والهموم المتوعّدة .

ما عادت البارونة تخرج إلا نصف ساعة يومياً . عجزت عن السَّير . حين تنهي ، مرة واحدة ، اجتياز « ممرّها » ، لا يعود بمستطاعها التحرك أكثر فتطلب الجلوس على « مقعدها » . وحين هي لا تستطيع ، حتى ، إكمال نزهتها القصيرة هذه ، تقول : « لنتوقّف . ترفّخ قلبي يكسر قدميّ اليوم » .

ما عادت تضحك ، مطلقاً . فقط تبتسم للأشياء الكانت هزّتها العام الماضي . وبما أن عينيها بقيتا ممتازتين ، راحت تقضي أيّامها بإعادة قراءة «كورين» أو « التأمّلات » للامارتين . ثم تطلب « درج الذكريات » تفرغ ، على ركبتيها ، رسائلها العتيقة العزيزة على قلبها ، وتضعه على كرسيّ قربها ، وتعود تردّ إليه « ذخائرها » ، واحدة فواحدة ، بعد أن تكون أعادت النظر إليها بتأنٍّ . وحين هي وحيدة ، وحيدة تماماً ، كانت تقبّل بعضها ، كما نبوس ، سراً ، شَعر الموتى ممّن نحبّ .

أحياناً ، إذ تدخل عليها جانّ ، فجأة ، تجدها تبكي . بدموع حزينة تبكي . فتصرخ : « ما بكِ ، يا أمّي ؟ » وتجيب البارونة ، بعد نهدة طويلة : « هي ذخائري ، بقاياي الثمينة تثيرني . تثير فيّ أشياء كانت عزيزة وانتهت . وثمة أشخاص بتنا لا نفكّر فيهم ، مطلقاً ، ونجدهم فجأة . نظنّنا نراهم ونسمعهم ، وهذا يثير فينا ردّة فعل رهيبة . ستعرفين هذا ، في ما بعد » .

وحين يدخل البارون بغتة في مثل هذه اللحظات السّويدائيّة ، يهمس : « جانّ ، يا حبيبتي ، لو تصدّقينني وتحرقين هذه الرسائل ، كل رسائلك ، رسائل أمّك ، رسائلي ، كلّها

كلّها . ليس أكثر قساوة من أن نقحم أنوفنا في أمور فتوّتنا ، حين نحن مسنّون » . لكنّ جانّ كانت تحتفظ برسائلها ، تحضـر « صندوق ذخائرها » ، مستجيبة ، ولو مختلفة عن أمها ، لنوع من الفطرة الوراثيّة للعاطفيّة الحالمة .

بعد بضعة أيّام ، اضطرّ البارون للتغيّب في عمل ما ، فذهب .

كان الفصل رائعاً . الليالي اللطيفة ، المزروعة أنجماً ، تعقب ، هدوء الأماسي ، والأماسي الصافية ، الأيام المشعّة ، والأيّام المشعّة ، الفجر الساطع . وجدت « الأميمة » نفسها أفضل حالاً . وجانّ ، أحسّت ملء السعادة ، تقريباً ، بعد أن نسيت مغامرات جوليان وخيانة جيلبرت . كل المقاطعة كانت مزهرة وعطرية . والبحر الكبير ، الهادىء دائماً ، يتألّق ، في الشمس ، من الصباح حتى المساء .

بعد ظهر ذات يوم ، أخذت جانّ پول بين يديها ، وذهبت عبر الحقول . أحياناً تنظر إلى ابنها ، وأحياناً أخرى إلى العشب المطرطش زهوراً على امتداد الطريق ، مأخوذة بسعادة لا محدودة . كل دقيقة ، تقبّل ابنها ، تضمّه بلهفة . ثم ، إذ مسّتها رائحة الريف الطيّبة ، شعرت بنفسها منهكة ، مغمورة بحالة من الهناء ، لا محدودة . وراحت تحلم بمستقبل له . ما سيكون ؟ تراه ، مرات ، رجلاً مهماً ، مشهوراً ، ذا سلطان . ومرات ، تفضّله متواضعاً باقياً قربها ، عطوفاً ، حنوناً ، ذراعاه مفتوحتان دائماً لأمّه . وحين تحبّه بقلبها الأناني ، كأمّ ، هي تفضّله يبقى ابنها ، وما سوى

ابنها وحسب . إنما ، حين هي تحبّه بعقلها ، تطمح لأن يكون شخصية مهمة في هذا العالم .

جلست على حافة حفرة ، وراحت تتأمّل ابنها . بدا لها أنها ، بعد ، لم تره . وعجبت لفكرة أن هذا الصغير سوف يكبر ، يسير بخطى واثقة ، تنبت له لحية ، ويتكلم بصوت مرنّ .

ناداها أحد من بعيد . رفعت رأسها . كان ماريوس راكضاً . ظنّتها زيارةً تنتظرها ، ونهضت منزعجة . لكن الصبي وصل بأقصى سرعته ، وحين صار قريباً منها ، إلى حدّ ما ، صرخ : « سيّدتي ، إن السيدة أصابها سوء » .

أحسّت نقطة ماء باردة سقطت على امتداد ظهرها ، وعادت بخطى كبيرة وأفكار ذاهلة .

من بعيد ، لمحت جماعات تحت الدلبة . انطلقت ، وإذ أفسح لها الناس ، رأت أمّها ممدّدة على الأرض ، رأسها على وسادتين . وجهها كان أسود كلّه ، العينان مطبّقتان ، وصدرها ، الذي منذ عشرين عاماً يلهث ، ما كان يتحرّك . أخذت منها المرضعة ابنها وحملته .

سألت ، جانّ ، مذعورة : « ماذا حصل ؟ كيف وقعت ؟ لنستدعِ الطبيب » وإذ استدارت ، رأت الخوري . لا يعلم أحد كيف عرف . كان يعتني بها ، رافعاً أكمام جبّته . لكنّ الخلّ ، والطيب ، والفَرْك بقيت ، جميعها ، غير ذات جدوى . « يجب أن تُعرّى وتمدّد » . قال الكاهن .

كان هنا جوزف كويّار ، مستأجر المزرعة ، وسيمون

ولوديڤين . أرادوا ، يساعدهم الأب پيكو ، أن يحملوا البارونة ، لكنهم ، حين رفعوها ، انهار رأسها إلى الوراء ، وتمزّق ثوبها ، لمقدار ما كانت ضخمة وثقيلة الوزن . حينها ، راحت جانّ تصرخ ذعراً . وأراحوا ، أرضاً ، الجسم الضخم والرخو .

يجب أن يؤ تى بمقعد من الصالون ، وحين أجلسوها عليه ، استطاعوا أن يحملوها . صعدوا الدرج خطوة خطوة . وحين وصلوا الغرفة ، وضعوها على السَّرير . وبما أنّ الطاهية ما كانت أنهت تعريتها ، وصلت الأرملة دنتو في الوقت المناسب . فجأة أتت ، كما الكاهن ، كأنهما « اشتمّا » الموت ، على تعبير الخدم .

أطلق جوزف كويّار لفرسه العنان ليستدعي الطبيب ، وبما أن الكاهن تحضّر للمجيء بالزيت المقدّس ، وشوشته الحارسة : « لا تعذّب نفسك ، سيّدي الخوري ، أعرف أنها انتهت » .

ذُعرت جانّ ، راحت تتوسّل ، لا تدري ما تفعل ، ما تحاول ، أيّ دواء تستعمل . وبالرغم مما حدث ، صلّى الخوري صلاة الغفران .

ساعتين انتظروا قرب الجسد البنفسجي الهامد . وقعت جانّ على ركبتيها ، تبكي وتشهق ، يفترسها القلق والألم .

حين فُتح الباب وظهر الطبيب ، بدا لها الخلاص ، التعزية ، الأمل . انطلقت نحوه تقول كل ما تعرف عن الحادثة : « تتنزّه ، كانت كما كل يوم . . . كانت على مايرام . . . كانت تغذّت حساءً وبيضتين . . وقعت فجأة . . . ما عادت تحرّكت . . . حاولنا كل شيء لانعاشها . . . كلّ شيء . . . » صمتت إذ انتبهت لحركة

خفية من الحارسة للطبيب تعني أنها انتهت ، تماماً انتهت . حينئذٍ ، رفضت تصدّق ،سألت ، بغصّة ، مردّدة : « هلى الأمر خطير ؟ هل تظنّ أنّ الأمر خطير ؟ » .

أخيراً نطق : « أخشى تماماً أن يكون الأمر . . . أن يكون انتهى الأمر . تشجّعي ، كوني شجاعة وقويّة » .

فارتمت جانّ ، فاتحة ذراعيها ، فوق أمّها .

عاد جوليان فدخل . بقي ذاهلاً . واضح التناقض ، بلا صرخة ألم أو يأس ظاهر ، ارتجل بسرعة موقفاً موافقاً للمقام . تمتم : « كنت أتوقّع هذا ، كنت أحسّ تماماً أنها النهاية » . ثم أخذ محرمته ، مسح عينيه ، ركع ، رسم إشارة الصليب ، همهم شيئاً ، وحين أراد النهوض أراد يُنهض امرأته أيضاً . لكنها ، آخذة كانت ، الجثة ، بملء يديها ، تقبّلها ، تكاد تكون نائمة فوقها . كان يجب حملها . بدت مجنونة .

بعد ساعة تركوها تعود . ما بقي أيّ أمل . رُتّبت الغرفة كغرفة الميت . جوليان والكاهن يتحدّثان بصوت منخفض قرب نافذة . الأرملة دنتو ، الجالسة على مقعد مريح ، كامرأة معوّدة مثل هذه السهرات ، تحسب نفسها وكأنها في بيتها فورحصول الوفاة ، بدت الآن ساكتة .

هبط الليل . تقدّم الخوري إلى جانّ ، أخذ يديها ، شجّعها ، ساكباً على هذا القلب الذي لا يتعزّى ، موجة من التعزيات الكنسيّة العذبة . تحدّث عن الميتة ، عظّمها بألفاظ كهنوتيّة ، وحزيناً ، هذا الحزن الكاذب لكاهن تفيده الجثث ، تقدّم

في أن يقضي الليلة مصلياً قرب الجسد المسجّى .

لكن جانّ رفضت عبر دموعها الغزيرة . أرادت تبقى وحيدة ، وحيدة كلياً في ليلة الوداع هذه . تقدّم جوليان : « ليس هذا معقولاً ، نبقى كلانا » . برأسها أشارت أن لا ، ما عادت تستطيع الكلام . بعد جهد ، قدرت تقول : « إنّها أمّي ، أمّي . أريد أسهر وحدي معها » . تمتم الطبيب : « دعوها تعمل ما تريد . تبقى الحارسة في الغرفة المجاورة » .

الكاهن وجوليان وافقا ! مفكّرين بفراشهما . ثم ركع الأب پيكو ، بدوره ، صلى ، نهض،خرج وهو يقول : « كانت قدّيسة » ، النغم نفسه الذي به يقول : « السلام لجميعكم » .

بعدئذ ، سأل الڤيكونت ، بصوته العادي : « أتريدين تناول شيء ؟ » ما أجابت جانّ بشيء ، جاهلة أنه توجّه إليها بالسؤال . كرّر : « لو تأكلين قليلاً لتتماسكي » . احتجّت كأنها تائهة : « أرسل ، حالاً ، بطلب والدي » . فخرج ليرسل فارساً إلى روّان .

بقيت مُتْلَفَة في نوع من الألم المركّز ، كما لو أنها انتظرت ساعة المواجهة الأخيرة ، لتتهالك في مدّ متصاعد من تحسّر يائس .

خيّمت الظلال في الغرفة ، حاجبة الميتة بظلمات . راحت الأرملة دنتو تطوف ، بخطوها الرشيق ، باحثة ومستعملة أغراضاً غير مرئية بحركات حارسة المرضى الصامتة ثم أضاءت شمعتين ، على مهل وضعتهما على منضدة مغطّاة بغطاء أبيض بمحاذاة رأس السّرير .

بدت جانّ لا ترى شيئاً ، لا تحسّ بشيء ، لا تفهم شيئاً . انتظرت أن تكون وحيدة . عاد جوليان ، كان تعشّى . ومن جديد ، سأل : « ألا تتناولين شيئاً ؟ » أشارت زوجته ، برأسها ، أن لا .

بمظهر مستسلم ، أكثر منه حزيناً ، جلس ، وبلا كلام ، بقي .

بقي الثلاثة ، بعيداً واحدهم عن الآخر ، كل في مقعده ، بدون حركة .

بعض اللحظات ، كانت الحارسة تسكع فتشخر قليلاً ، ثم ، فجأة ، تستيقظ .

نهض أخيراً جوليان ، ومتقدماً نحو جانّ ، سألها : « تريدين أن تبقي وحيدة ، الآن ؟ » أخذت يده ، في انطلاقة عفويّة : « نعم ، أتركني » .

قبّلها في جبينها ، متمتماً : « سآتي لأراكِ ، بين وقت وآخر » ثم خرج والأرملة دنتو التي أخذت كرسيّها المريح إلى الغرفة المجاورة .

أقفلت ، جانّ ، الباب . ثم فتحت النافذتين على مصاريعهما . صفق وجهها هواء فاتر من مساء زمن الحصاد . حشيش المرجة ، وكان حُسّ الليلة الماضية ، كان ما يزال مطروحاً في صفاء ضوء القمر .

آلمها هذا الاحساس ، أدمى فؤادها كما سخرية .

عادت قرب السّرير ، تناولت واحدة من اليدين الجامدتين

والباردتين ، وراحت تتأمّل أمّها .

ما عادت منتفخة كما لحظة الحادثة . بدت ، الآن ، تنام هادئة كما ولا مرّة . وشعلة الشمعتين الشاحبة ، تحرّكها نسمات ، كانت تغيّر ظلال وجهها ، تجعلها حيّة كأنّها تتحرّك .

راحت ، جانّ ، تنظر إليها ، بنهم . وتراكم ، من عمق البعيد ، من زمن فتوّتها ، جمع من الذكريات .

تذكّرت زيارات أمّها في رواق الدير ، الطريقة التي تمدّ بها إليها حقيبة الورق مليئة بالحلوى ، الكثير من التفاصيل الصغيرة ، من الأعمال الصغيرة ، من المداعبات الصغيرة ، من الكلمات ، من أنغام التراتيل ، من الحركات العاديّة ، وتذكّرت ، كذلك ، ثنيات عينيها حين تضحك ، وتنهّدها اللاهث حين تهمّ بالجلوس .

وبقيت تتأمّل ، تـردّد في ذاتها ، بشيء من الغبـاوة : « ماتت » . وتراءت لها كلّ بشاعات هذه الكلمة .

هذه النائمة هنا ـ أمّي ـ السيّدة أدلائيد ، ماتت ؟ لن تتحرّك ، لن تتكلّم ، لن تضحك ، لن تتعشّى بعد بمواجهة أبي ، ولن تقول بعد ، أبداً : « صباح الخير ، جانيت » ماتت !

سوف يسمّرونها في تابوت ، ويوورونها ، فتنتهي لن نعود نراها . ممكن هذا ؟ كيف ؟ لن تكون لها أمّها ، بعد ؟ هذا الوجه الحبيب ، الأليف ، الرأيناه منذ فتحنا العينين ، الأحببناه منذ فتحنا الذراعين ، دفق العواطف الكبير ، هذا ، الكائن الأوحد ، الأم ، الأهمّ ، إلى القلب ، من أيّ كائن آخر ، اختفى . لم يبقَ لها ، بعد ، سوى ساعات قلائل ، تنظر وجهها ، هذا الوجه الجامد

والبدون فكرة ، ثمّ لا شيء ، لا شيء أبداً ، مجرّد ذكرى .

وانهارت على ركبتيها في نوبة فظيعة من اليأس . واليدان متشنّجتان على نسيج كتّاني تفتله ، والفم ملتصق بالسّرير ، أخذت تصرخ بصوت ممزّق ، مخنوق بالقماش والأغطية : « أواه ! يا أمّي ، يا أمّي المسكينة ، يا أمّي ! » .

وإذ أحسّت ذاتها تصير مجنونة ، مجنونة كما في ليلة الهرب تلك ، في الثلج ، نهضت وركضت إلى النافذة لتنتعش ، لتتنشّق هواءً جديداً ، غِير هواء الفراش ، هواء هذه الميتة .

العشب الأخضر المقطوع ، الأشجار ، الأرض البور ، البحر هناك ، كلها ترتاح في سلام صامت ، تنام في عذوبة ضوء القمر الحنونة . اعترى جانّ ، قليل من هذه اللطافة المهدّئة ، وراحت تبكي ، على مهل .

ثم عادت حدّ السرير وجلست ، آخذة ، من جديد ، يد أمّها ، كما لو انها مريضة وهي تسهر عليها .

دخلت حشرة كبيرة ، جذبها ضوء الشمعتين . راحت تخبط على الحيطان كطابة ، تجول ، من طرف في الغرفة ، إلى طرف آخر . شردت ، جانّ ، بطيران هذه الحشرة الصاخب ، رفعت عينيها لتراها . لكنها لم ترَ إلا ظلّها المتنقّل على بياض السّقف .

ثم ما عادت سمعت شيئاً . حينئذ انتبهت لتكتكة ساعة الحائط الخفيفة ، ولضجة أخرى بسيطة ، أو بالأحرى ، لحفيف يكاد لا يُسمع . إنها ساعة أمّها تُكْمِل دورانها ، نسوها في الثوب المرميّ على كرسيّ عند أقدام السّرير . وفجأة ، أضرمت ألماً حاداً ،

في قلب جانّ ، مقارنة بين هذه الميتة وهذه الآلة ما كانت توقّفت .

تطلّعت إلى ساعتها . بالكاد هي العاشرة والنصف . اعتراها خوف فظيع من هذه الليلة الطويلة تمضيها هنا .

عادت ، إلى بالها ، ذكريات أخريات : من حياتها هي - روزالي ، جيلبرت - خيبات قلبها المريرة . إذن فكل شيء بؤس ، كآبة ، تعاسة ، وموت . كل شيء يخدع ، كل شيء يكذب ، كل شيء يؤلم ويُبكي . أين نجد شيئاً من الراحة والفرح ؟ في وجود آخر ، ولا شكّ ! متى تتخلّص الروح من تجربة الأرض . الروح ! راحت تحلم في هذا السر المتعذّر سَبْرُه ، مرتمية ، بغتة ، في اقتناعات شاعريّة ، سريعاً ما تقبلها فرضيّات أخرى ليست أقلّ غموضاً . أين هي ، الآن ، إذن ، روح أمها ؟ روح هذا الجسد الجامد والبارد ؟ بعيداً ربما . في مكان من الفضاء ؟ لكن أين ؟ تبخّرت كما عطر زهرة يابسة ؟ أو متنقّلة كما عصفور لا مرئيّ فارّ من قفص ؟ .

مدعوّة إلى الله ؟ أو متناثرة لصدف المخلوقات الجديدة ، ممزوجة ببذور قريبة التفتّح ؟

هي قريبة جداً ، ربما ؟ في هذه الغرفة ، حول هذا الجسد الفاقد الحياة تركته !

وبغتة ظنّت ، جانّ ، أن نفساً لامسها ، كأنه ملامسة روح . خافت خوفاً شديداً ، عنيفاً إلى حدّ ما عادت تجرؤ معه على التحرّك ، ولا التنفّس ، ولا الاستدارة للالتفات وراءها . راح قلبها يخفق كما في هلع غريب .

وفجأة ، عادت الحشرة اللامرئيّة إلى الطيران ، وعادت إلى خبط الحيطان وهي تدور . ارتعشت من القدمين حتى الرأس ، ثم ، إذ تيقّنت من الحشرة ، نهضت واستدارت إلى الوراء . وقعت عيناها على المكتب وفي زواياه تماثيل ، مكتب « الذخائر » الثمينة .

فاعترتها فكرة حنونة وفريدة : أن تقرأ ، في هذه الليلة الأخيرة ، رسائل أمّها القديمة والعزيزة ، وكأنها تقرأ في كتاب صلاة . خطر لها أنها تُكمل واجباً لذيذاً ومقدّساً ، شيئاً بنويّاً حقيقة ، يُسرّ أمّها في العالم الآخر .

إنها مراسلات جدّها وجدّتها اللذين عرفتهما . أرادت تمدّ إليهما الذراعين ، من فوق جسد ابنتهما ، أرادت تذهب إليهما في هذه الليلة الجنائزية ، كأنهما ، بدورهما ، يتألمان ، هكذا تجعل صلة سريّة من العطف والحنان ، بين هؤلاء الماتوا من زمان ، اختفوا بدورهم ، وبينها ، هي ، ما تزال على الأرض .

نهضت ، فتحت خزانة المكتب ، وتناولت ، من الدُّرج الأسفل ، عشرات الحزم الصغيرة ذات الأوراق الصفراء ، محزومة بعناية ، ومرتبة قرب بعضها بعضاً .

وضعتها على السّرير ، بين ذراعي البارونة ، بنوع من اللباقة العاطفية ، وراحت تقرأ .

كانت رسائل قديمة نجد مثلها في مكاتب قديمة عند العائلات ، هذه الرسائل من غير عصر .

تبدأ الأولى بـ « حبيبتي » . أخرى بـ « ابنتي الصغيرة الجميلة » ، ثم تكرّ الرسائل بادئة بـ « حبيبتي الصغيرة » ـ

« صغيرتي اللطيفة » - « ابنتي المعبودة » ، ثم « ابنتي الحبيبة » - « حبيبتي أدلائيد » - « ابنتي الحبيبة » ، حسب ما كانت تتوجّه إلى الصغيرة ، إلى الصبيّة ، وأخيراً إلى المرأة الصبيّة .

وكل هذا كان مملوءاً بالحنان المتلهّف والصبيانيّ ، بألف أمر بسيط حميم ، بهذه الأحداث الكبيرة والبسيطة في العائلة ، البلا جدوى للّامبالين : « والدك مصاب بالرشح ، الخادمة أورتنس أحرقت اصبعها ، الهر « كروكيرا » مات ، قطعنا الصنوبرة إلى يمين السور ، فقدت أمّك كتاب صلاتها وهي عائدة من الكنيسة ، تظن أحداً سرقه » .

كانت هذه الرسائل ، أيضاً ، تتحدّث عن أشخاص تجهلهم جانّ ، إنما كانت تذكر ، بغموض ، أسماءهم ، كانت تسمعها ، من زمان ، في طفولتها .

حنّت لهذه التفاصيل وبدت لها تجلّيات ، كما لو هي دخلت ، فجأة ، في كل الحياة الماضية ، السريّة ، حياة قلب أمّها . التفتت إلى الجسد المسجّى ، وبغتة ، راحت تقرأ بصوت عال ، تقرأ للميتة ، كما لتسلّيها ، لتعزّيها .

وبدت الجثة الجامدة سعيدة .

صارت ترمي الرسائل ، واحدة واحدة ، على أقدام السرير ، وفكّرت أن تضعها في التابوت ، كما الزهور .

فكّت رزمة أخرى . كان الخطّ جديداً . بدأت : « لا يمكنني ، بعد ، أن أبقى بعيداً عن مداعباتك . أحبك حتى الجنون » .

ولا شيء ، أكثر . ولا اسم .

قلبت الورقة بدون أن تفهم . العنوان واضح : « سيّدتي البارونة لوبرتوي دي فو » .

فتحت الرسالة التالية : « تعالي هذا المساء ، فور خروجه . أمامنا ساعة . أعبدكِ » .

وفي أخرى : « أمضيت ليلة هذيان في اشتهائكِ سدى . تصوّرت جسدكِ بين ذراعيّ ، فمك بين شفتيّ ، عينيكِ تحت عينيّ . ثم أحسستني في غضب شديد حتى انني كدت أرمي بنفسي من النافذة حين فكّرت أنكِ ، حينها ، كنت تنامين إلى جانبه ، وأنه يمتلكك حسب ما يشاء . . . »

منذهلة ، جانّ ، لم تفهم .

ما كانت هذه ؟ لمن ، من أجل من ، ممّن كلمات الحبّ هذه ؟

وأكملت ، واجدة دوماً بوحاً عنيفاً ، ومواعيد مع نصائح بالحذر ، وفي النهاية ، أبداً ، هذه الكلمات الأربع : « خاصة احرقي هذه الرسالة » .

فتحت ، أخيراً ، ورقة عادية ، مجرد قبول دعوة عشاء ، إنما هي بنفس الخط وموقّعة : « بول دينّيمار » ، من كان يدعوه البارون ، حين كان يتكلّم عليه : « شيخي المسكين بول » ، الكانت زوجته أفضل صديقة للبارونة .

وسريعاً ، خامر جانّ شكّ صار يقيناً . كان ، إذن ، عشيق أمّها .

وفجأة ، تبلبل ذهنها ، فرمت ، دفعة واحدة ، هذه الأوراق السافلة ، كما لو كانت ترمي حيواناً سامًّا نزا عليها ، وركضت إلى النافذة وراحت تبكي بفظاعة وتصرخ صرخات لا إرادية مزّقت لها حلقها . ثم ، محطّمة كليًّا ، انهارت على الأرض ، ومخبّئة وجهها لئلا يسمعوا تأوّهاتها ، بدأت تشهق غاصّة في يأس لا يُعْرَف مداه .

كانت لتبقى هكذا طوال الليل ، ربما ، لو لم تسمع ، في الغرفة المجاورة ، ضجة جعلتها تنهض بقفزة واحدة . لربما كان والدها . وكل الرسائل متناثرة على السرير وفي أرض الغرفة ! يكفيه أن يفضّ واحدة ، فيعرف كل شيء .

أسرعت وتناولت ، بـرؤوس أصابعهـا ، كل الأوراق الصفر، من جدّيها ومن العشيق ، والتي لم تفضّها بعد ، والما تزال محزومة في أدراج المكتب ، ورمتها ، جميعها ، كدسات كدسات ، في المدفأة . ثم أخذت واحدة من الشمعتين المشتعلتين على المنضدة ، وأضرمت النار في كومة الرسائل هذه . اشتعل لهب كبير أنار الغرفة ، والفِراش ، والجثة ، بضوء قويّ وراقص ، راسماً بالأسود ، على الستار الأبيض عند طرف السرير ، الجانبية المرتجفة للوجه القاسي ، ولتقاطيع الجسد الضخم تحت الغطاء .

حين لم يبقَ في المدفأة إلا كومة رماد ، استدارت وجلست قرب النافذة المفتوحة كما لو هي ما عادت تجرؤ على البقاء قرب الميتة ، وراحت تبكي ، وجهها بين يديها ، نائحة بنبرة مؤلمة ، بنبرة شكوى موحشة : أواه ! يا أمي المسكينة ، آخ ! يا أمي المسكينة ! »

ألّمت بها فكرة مخيفة : لو لم تكن أمها ماتت ، صدفة ، لو لم

تكن إلا نائمة نوماً بليداً ، لو كانت ، بغتة ، ستستيقظ وتتكلّم ؟ - ألم تكن معرفتها السر المرعب ، لتخفّف تجاهها الحبّ البنويّ ؟ هل كانت لتقبّلها بالشفاه التقيّة ذاتها ؟ أكانت لتصادقها بالعاطفة المقدّسة نفسها ؟ كلا . ليس هذا ممكناً ! ومزّقت قلبها هذه الفكرة .

شحبت النجوم ؛ امّحى الليل ؛ إنها الساعة الطرية التي تتقدّم النهار . القمر الكان نزل ، سيغيب في البحر وأضاء صفحته بلون الصدف .

وعادت ، إلى جانّ ، ذكرى تلك الليلة الأمضتها ، إلى النافذة ، حين عودتها إلى غيضة الحور . كم هي بعيدة ، كم تغيّر كل شيء ، كم يبدو لها المستقبل مختلفاً !

وها السماء تصبح ورديّة ، هذا اللون السعيد ، العاشقٍ ، الناعم . تنظر ، متفاجئة ، الآن ، كما أمام ظاهرة ، هذا التفتّح المشعّ للنهار ، متسائلة إذا كان ممكناً ، مع هكذا إشراقات فجر في الأرض ، ألاّ يوجد لا فرح ولا سعادة !

ارتعشت لضجّة الباب . كان جوليان . سأل : « أخيراً ، ألست متعبة جداً ؟ »

تمتمت : « لا » ، وهي سعيدة لعدم بقائها وحيدة . أضاف : « إذهبي ، الآن ، ارتاحي » . قبّلت ، على مهل ، أمها قبلة بطيئة ، متألّمة ومحزنة . ثم دخلت غرفتها .

درج النهار في اهتمات بسيطة يتطلبها الميت . وصل البارون قبيل المساء . بكى كثيراً .

في الغد كان المأتم .

انسحبت جانّ بعد أن قبّلت ، لآخر مرّة ، الجبين البارد ، الزيّنته للمرّة الأخيرة ، ورأتهم يسمّرون التابوت . كان المدعوّون سيتوافدون .

وصلت جيلبرت الأولى ، وارتمت شاهقة على صدر صديقتها .

من النافذة ، يرون العربات آتية خلف السياج ، خبباً . أصوات يترجّع صداها في البهو . نساء ، بالأسود ، يدخلن ، رويداً رويداً ، إلى الغرفة ، نساء ما كانت جانّ ، تعرفهن . قبّلتها المركيزة دي كوتوليه ، كذلك الفيكونتيسه دي بريزفيل .

فجأة انتبهت إلى أن الخالة ليزون صارت وراءها . بحنان عانقتها ، فكادت العانس تنهار .

دخل جوليان ، بالأسود ، أنيقاً ، متشاغلاً ، مسروراً بهذا الحشد من الناس . تحدّث إلى امرأته بصوت منخفض ، يطلب إليها أمرًا . وبنبرة حميمة أضاف : « كل طبقة الأشراف هنا ، هذا رائع . » وعاد ، محيّياً ، السيّدات بعظمة .

الخالة ليزون والكونتيسّة جيلبرت بقيتا ، وحدهما ، حذّ جانّ ، أثناء الجنازة . كانت الكونتيسّة تقبّلها ، بدون انقطاع ، مردِّدة : « حبيبتي المسكينة ، حبيبتي المسكينة ! »

وحين عاد الكونت دي فورڤيل ليأخذ زوجته ، كان يبكي ، كأنه ، هو نفسه ، فقد أمه .

X

توالت الأيام حزينة جداً . أيام كئيبة في بيت بدا فارغاً لغياب كائن محبّب اختفى إلى الأبد . أيام مليئة بالآلام في لقاء كل غَرَض كان الفقيد يستعمله ويقلّبه . لحظة إثر لحظة ، تستفيق الذكريات في القلب الممزّق . هوذا كرسيّها ، شمسيّتها الباقية في الرواق ، كأسها التي ما مسّتها الخادمة بيديها ! وفي كل الغرف ، أشياء لها مبَعثرة : مقصّاتها ، قفازها ، الكتاب أوراقه تكاد تبلى للامسة أصابعها المتثاقلة ، وألف شيء آخر يؤلم لأنه يذكّر بألف جدث .

وصوتها يتبعك . يُظَنّ يُسْمَع . يرجى الهروب إلى أيّ مكان ، للخلاص من وسواس هذا البيت . إنما محتّم البقاء فيه ، لأن آخرين يحيون هنا ويتألمون أيضاً .

وبقيت ، جانّ ، محطّمة بوطأة تذكّرها ما اكتشفت . هذه الفكرة كان تثقل عليها . قلبها المحطّم ، ما كان ليشفى . وحدتها ، منذ الآن ، تتزايد لهذا السرّ المرعب . ثقتها الأخيرة تلاشت مع إيمانها الأخير .

بعد زمن ، راح الوالد ، كان بحاجة لأن يتحرّك ، لأن يغيّر أجواءه ، لأن يخرج من الحزن الأسود الذي راح فيه يغرق أكثر فأكثر .

واستعاد البيت الكبير ، الكان رأى ، بين وقت وآخر ، اختفاء واحد من سيّديه ، حياته الهادئة والمنتظمة .

ثم مرض پولْ . ففقدت جانّ صوابها ، بقيت اثني عشر يوماً دون أن تنام ، أو تأكل .

شفي ، لكنها بقيت مرعبة بفكرة أنه يمكن أن يموت . إذن ، ماذا تفعل ؟ ما يحلّ بها ؟ وتناهت إلى قلبها ، على مهل ، حاجة مبهمة لأن يكون لها ولد آخر . صارت به تحلم ، سكنها ، من جديد ، حلمها القديم بأن يكون حولها كائنان صغيران . صبي وابنة . وصار الأمر وسواساً .

لكنها ، منذ حادثة روزالي ، كانت تعيش منفصلة عن جوليان . اتصال واحد حتى ، يبدو مستحيلاً في مثل ظروفهما . كان جوليان يمارس الجنس في مكان آخر . تعرف ذلك ، وحين تفكّر في أنها ستستعيد مداعباته ، ترتجف نفوراً منه وكراهية .

لكنها ستستسلم له طالما أن رغبة الأمومة تحرّضها على ذلك . تتساءل كيف يستعيدان قبلاتهما ؟ تموت ذُلاًّ ولا تدعه يحزر نواياها . وما كان يبدو يفكّر فيها .

كانت لترفضه ربما ، إنما ، ها هي ، كل ليلة ، تفكّر بأن يكون لها ابنة تراها تلعب مع پول تحت الدلبة . ومرات ، هي تشعر بلهفة للنهوض ، وللذهاب ، بلا كلمة ، عند زوجها في غرفته . مرتين انسابت حتى بابه ، ثم عادت خجولة .

كان البارون ذهب ، وأمها ماتت . الآن ، لا أحد تستشيره ، تفضي إليه برغبات نفسها الحميمة .

قرّرت أن تذهب إلى الأب بيكو ، وتعرض عليه ، كما على سبيل الاعتراف ، مشاريعها الصعبة .

وصلت إليه يصلّي في «شحيمته» في بستانه الصغير المزروع أشجاراً مثمرة .

بعد أن تحادثا بعض الوقت بموضوعات عامة ، تمتمت محمرّة : « أريد أن أعترف ، يا أبتِ ؟ » .

فوجىء ، فرفع نظارتيه ليتأمّلها جيّداً ، ثم راح يضحك : « يجب ألّا تكون لديك خطايا كبيرة تثقل على ضميرك » .

اضطربت كليّاً ، وأكملت : « لا ، إنما أريد أن أسألك نصيحة ، نصيحة . . . شاقّة لا أجرؤ على قولها هكذا » .

تخلّى عن مظهره كرجل طيّب ، واتّخذ طابعه الكهنوتي : « إذن ، يا ابنتي ، سأستمع إليك في كرسيّ الاعتراف ، هيّا بنا » .

لكنّها استبقته ، متأرجحة ، أوقفتها حيرة عن الكلام بهذه الأشياء ، هي تخجلها في خلوة كنيسة فارغة .

بالأحرى كلا . . . ، سيّدي الخوري . . . أستطيع . . . أستطيع . . . إذا أردت . . . أن أقول لك ، هنا ، ما جاء بي إليك . هيّا ، سنجلس تحت عريشك هناك » .

ذهبا بخطى متمهّلة . تفتش كيف تعبّر ، كيف تبتدىء الكلام . جلسا .

انتظر مكتوف اليدين . وإذ رأى تلبّكها ، شجّعها : « وبعدُ ، يا ابنتي ، كأنّكِ لا تجرؤ ين . هيّا تشجّعي » .

قرّرت ، كما جبان يرتمي في الخطر : « أبتِ ، أتمنّى ولداً

آخر ».لم يفهم ، فما أجاب بشيء . ومذعورة ، فاقدة الكلمات ، شرحت أكثر .

« أنا ، الآن ، في الحياة وحيدة . والدي وزوجي لا يتفقان . أمّي ماتت . و . . . و . . . ».

همست بصوت منخفض كلياً ، مرتعشة : « كدت أفقد ابني ذاك النهار ! ماذا كان حلّ بي ؟ » . . .

سكتت . راح الكاهن ينظر إليها محتاراً .

- « هيّا تحدّثي في صلب الموضوع » .

كرّرت القول : « أتمنى ولداً آخر . » ابتسم ، حينها ، هو معتاد مزاح القرويّين ، ما كانوا يتضايقون أو يتحرّجون أمامه ، وأجاب مع رفعة رأس ماكرة :

- « هذا أمر يخصّك وحدك » .

فرفعت إليه عينيها البريئتين ، ثم متلعثمة من ارتباك : « ولكن . . . ولكن . . . تفهم أنت أنّه منذ . . . منذ . . . منذ ما تعرف عن . . . عن تلك الخادمة . . . نحيا زوجي وأنا . . . نحيا منفصلين كلياً » .

عجب لهذا الكشف . ثم ، بغتة ، ظنّ نفسه حزر حقيقة ما يدور في خلدها كامرأة صبيّة . نظر إليها بطرف عينه ، مليئاً عطفاً ومشاركة وجدانية لها في ضيقها :

- « أجل . فهمت تماماً . عرفت أنّ . . . أنّ وضعك يثقل عليكِ . أنت صبيّة ، وبصحة جيّدة . أخيراً ، هذا طبيعيّ ، طبيعيّ جداً » .

عاد إلى الابتسام ، غلبته طبيعته المراحة ككاهن قرويّ ؛ وربّت ، على مهل ، يد جانّ : « هذا مسموح لك ، مسموح لك تماماً ، بالوصايا ـ عمل الجسد لا يُشتهى إلاّ في الزواج . ـ متزوّجة أنت ، أليس كذلك ؟ ليس ذلك ، أبداً ، لغرس اللّفْت » .

هي ، أيضاً ، ما فهمت قصده ، أوّل الأمر . إنما ، سرعان ما فهمت ، فاحمرّت ، وتجمّعت الدموع في عينيها .

ـ « أوه ، سيّدي الخوري ، ماذا تقول ؟ ماذا تفكّر ؟ أقسم لك . . . أقسم لك . . . » وخنقتها الغصص .

فوجىء فخفّف عنها : « كلا يا ابنتي ، ما أردت تعذيبك . كنت أمزح قليلاً . ليس هذا ممنوعاً حين نحن شرفاء . إنما اعتمدي عليّ . يمكنك ذلك . سأقابل السيّد جوليان » .

ما عادت تعرف ما تقول . أرادت ، الآن ، أن ترفض هذا التدخل ، تحسبه بدون فائدة وخطراً ، لكنها ما جرؤت وانسحبت بعد أن تمتمت : « أشكرك ، سيّدي الخوري » .

انقضت ثمانية أيّام . كانت تحيا في قلق الكآبة .

ذات مساء ، على العشاء ، نظر إليها جوليان نظرة خاصة ، مع ثنيةٍ ما ، في الشفتين ، مبتسمة ، تعرفها عنده في ساعات تهكّمه . مازحها ، حتى ، بسخريّة مبطّنة . وإذ هما يتمشّيان ، بعد ذلك ، في ممرّ أمّها الكبير ، وشوشها قائلاً : « يبدو أننا تصالحنا » .

لم تقل شيئاً . كانت ترى ، في الأرض ، خطّاً مستقيماً يكاد يبان . إذ نبت العشب فوقه . إنها آثار أقدام البارونة ، تُمحى ، كما يُمحى التذكار . فأحسّت ، جانّ ، قلبها يتشنّج ، يغرق في

الحزن . أحسّت نفسها ضائعة في الحياة ، بعيدة عن كل الناس .

أكمل جوليان : « لا أطلب أكثر ، أنا . ظننتني بتّ لا أعجبك » .

تغيب الشمس ، والهواء لطيف . اعترت جانّ رغبة في البكاء ، واحدة من رغبات البوح لقلب صديق ، حاجة للعناق ، مع الهمس بالهموم . تشنّجت في حلقها شهقة . فتحت ذراعيها وانطرحت على صدر جوليان .

وبكت . فوجىء هو . راح ينظر إليها في شعرها ، كونه لا يستطيع رؤ ية وجهها الغارق في صدره . ظنّها ما تزال تحبّه ، فزرع قبلة متسامحة بتعجرف على شعرها .

دخلا ، بعدها ، ولم يتفوّها بكلمة . تبعها إلى غرفتها ، وأمضى الليل معها .

وعادت علاقاتها الماضية . يتمّانها ، كانا ، كواجب لم يكن يزعجه . وكانت ، هي ، تحتملها كضرورة منفّرة وشاقّة ، مع قرار بإيقافها ، نهائياً ، فور إحساسها بالحمل من جديد .

لكنها لاحظت مداعبات زوجها مختلفة عن مداعباته القديمة . هي أكثر نعومة ، ربما ، لكنها أقلّ كمالاً . يعاملها ، كان ، كعاشق حذر ، لا كزوج مطمئن .

تعجّبت ، لاحظت فانتبهت إلى أنّ كلّ « نشاطاته » كانت تتوقف قبل أن يكون بإمكانها أن تحمل .

ذات ليلة ، همست ، والفم على الفم : « لماذا لاتهبني ذاتك بكلّيتك كما من زمان ؟ »

راح يضحك هازئاً : « يا حمقاء ... لئلاّ تحملي »

ارتعدت : « لماذا ، إذن ، لا تريد ، بعد ، أطفالاً ؟ »

أقعدته المفاجأة : « إيه ؟ تقولين ؟ أمجنونة أنتِ ؟ ولد آخر ؟ أبداً ! واحد يكفي للصياح الدائم ، لإشغال الجميع ، ولإنفاق المال . ولد آخر ! لا . ! »

أخذته من ذراعيه ، قبّلته ، لفّته حباً ، وبدفء : « آه ! أرجوك ، إجعلني أماً ، مرّةً بعد » .

غضب كما لو أنه جُرح : « فقدت صوابك ، حقًّا . أريحيني من حماقاتك ، أرجوك » .

صمتت وقصدت أن تلزمه بالحيلة ليعطيها السعادة التي بها تحلم .

وحاولت إطالة قبلاتها ، ممثّلة بشوق جامح ، تلصقه بها بيديها المتشنّجتين بفورات مصطنعة . استعملت كل الحيل ، لكنّه بقي سيّد نفسه ، ولا مرّة نسي ذاته .

صارت مهووسة أكثر برغبتها الجامحة ، مستعدّة لكلّ مجابهة ، لكلّ تجرّؤ ، فعادت إلى الأب بيكو .

كان أنهى غداءه لتوّه . كثير الاحمرار ، كونه دائم الخفقان بعد وجبات طعامه . مذ رآها تدخل ، هتف : « وبعد ؟ » راغباً بمعرفة نتيجة مفاوضاته .

مقرّرة ، الآن ، وبدون خجل محتشم ، أجابت مباشرة : « زوجي لا يريد أطفالاً ، بعد . » استدار الكاهن صوبها ، كلي

الاهتمام ، مستعدًّا للتنقيب ، بحشريّة الكاهن ، في أسرار الفراش التي تجعل كرسيّ الاعتراف جميلة . سأل : « كيف هذا ؟ » حينئذ ، اضطربت ، رغم قرارها ، وهي تشرح : « هو . . . انه . . . إنه يرفض أن يجعلني أماً »

فهم الكاهن . كان يعرف هذه الأمور . وانصبّ يسأل بتفاصيل دقيقة ، بل غاية في الدقة ، بنهم إنسان محروم .

ثمّ فكّر للحظات ، وبصوت مطمئنّ ، كأنه يتحدّث عن محصول جيّد ، رسم لها خطة سلوك ماهرة ، منظِّماً كل شيء : « عزيزتي ، ليس لك سوى وسيلة واحدة ، أن توهميه أنّك حبلى . لن يضبط ، بعد ذلك ، ذاته ، فتصيرين بالفعل ».

احمرّت حتى الأذنين . لكنها ، بما هي حازمة ، سألت : « وإذا لم يصدّقني ؟ »

كان الخوري يعرف سبل قيادة الرجال والتحكُّم بهم ، قال : « أعلني حملك إلى الجميع ، أينما كان ، حينها ، هو نفسه ، يصدِّق »

ثم ، كمن يبرِّىء نفسه من هذه الحيلة ، أضاف : « هذا حقُّك ، لا تسامح الكنيسة العلاقات بين الرجل والمرأة ، إلا إذا هي في سبيل الإنجاب »

عملت بالنصيحة الماكرة ، وبعد خمسة عشر يوماً أخبرت جوليان باعتقادها انها حامل . قفز مذعوراً : « مستحيل ! ليس صحيحاً ».

أشارت إلى مؤشّر ظنها ذاك . فطمأن نفسه : « انتظري

قليلاً ، تري »

صار يسألها كل صباح : « هل من جديد ؟ » ودائماً يلقى الإجابة نفسها : « كلا ، حتى الآن . أكون مخدوعة تماماً إن لم أكن حاملاً » .

اكتأب ، غاضباً ونادماً ، بقدر ما كان مفاجأً . يردّد : « لا أفهم شيئاً ، أيّ شيء . لو أعلم كيف حصل هذا ! أريد أشنق نفسي »

خلال أشهر،أعلنت الخبرفي كل الأنحاء،إلاّ للكونتيسّة جيلبرت ، بنوع من الحياء المتشابك والرهيف .

منذ اكتئابه ، ما عاد اقترب منها جوليان ثم أعلن موقفه غاضباً : « هوذا أمر ما كان مرجوًّا » وعاد يدخل غرفة زوجته .

ما كان يراه الكاهن ، تحقّق تماماً . حبلت .

غمرتها فرحة لا توصف ، وصارت ، كل مساء ، تقفل بابها مكرِّسة ذاتها ، في انطلاقة عرفان ، للألوهة الغامضة الكانت تعبد ، ولعفّة أبديّة .

من جديد ، شعرت ، تقريباً ، بسعادتها ، متعجِّبة من سرعة نسيانها موت أمّها . كانت ظنّت نفسها لن تتعزّى ؛ وها ، بالكاد ، يمرّ شهران ، ويلتئم جرحها . لم يبقَ لها إلاّ حزن رقيق ، غلالة كآبة مرميّة على حياتها . لا تشعر بأي تطوّر محتمل . سيكبر ولداها ، يحبّانها ؛ ستشيخ مطمئنة ، سعيدة ، دون أن تهتمّ بزوجها .

قبيل أواخر أيلول ، جاء الأب پيكو في زيارة وداعية ، مرتدياً

جُبّة جديدة ، لا تحمل إلا بقع ثمانية أيام ، وقدّم خَلَفَه الأب تولبياك كاهن شاب ، ضعيف ، قصير ، ذو كلمة واثقة ، وعيناه المدوّرتان والمجوّفتان ، توحيان بروح عنيفة .

كان الكاهن القديم تعينّ عميداً في غودرڤيل .

حزنت ، جانّ ، حزناًحقيقيّاً لهذا الرحيل . وجه هذا الرجل الطيِّب يذكّرها بكلّ ذكرياتها كامرأة صبيّة . كان كلّلها ، عمّد بول ودفن البارونة . ما كانت تتخيّل ، أبداً ، إيتوڤان ، بدون بدانة الأب پيكو ماراً على طول ساحات المزارع . كانت تحبّه لأنّه فَرِح وطبيعيّ .

هو ، لم يبدُ مسروراً ، بالرغم من ترقيته . كان يقول : « هذا يكلّفني ، سيّدتي الكونتيسّة . مضى عليّ ، هنا ، ثمانية عشر عاماً . آه ! البلدة لا تُغني . بات الرجال غير متديّنين كما يجب . والنساء ، والنساء صرن بلا أخلاق . ولا تدخل الفتيات إلى الكنيسة ، للزواج ، إلاّ بعد حجّهن إلى سيّدة البطن - الضخم . مع ذلك ، أحِبُّ هذا المكان ، أنا .

بدا الخوري الجديد نافذ الصبر ، أحمر الوجه . بسرعة قال : « يجب أن يتغيّر كلّ شيء ، معي . » كان له مظهر ولد غضوب ضعيفاً هزيلاً في جبّته القديمة ، إنما نظيفة .

نظر إليه الأب پيكو ، مواربة ، كما كان يفعل لحظات هزله ، وقال : « لتمنع هذه الأمور ، حضرة الأب ، يجب تقييد أبناء رعيّتك . حتى هذا لن ينفع » .

أجاب الكاهن الصغير بنبرة قاطعة : « سوف نرى » .

فابتسم الخوري العتيق ماجاً سيكارته : « سوف يهدّئك العمر ، حضرة الأب ، وكذلك الخبرة . سوف تُقْصي ، من الكنيسة ، آخر مؤمنيك . هذا كلّ شيء . في هذا المكان ، هم مؤمنون ، إنما عنيدون : فاحذر . وإيماني ، حين أرى فتاة تدخل الكنيسة ، أثناء عظة الأحد ، وهي بادية قليلة الانتفاخ ، أقول في نفسي ، « هذا ابن رعيّة ، لي ، جديد ، تجلبه » ؛ - وأسرع لزواجها . لن تمنعهن عن الخطيئة ، إنما يمكنك أن تجد لهنَّ الشاب وتمنعه أن يترك الأم . زوّجهنّ ، حضرة الأب ، زوِّجهنّ ، لا تهتمّ بأمر آخر ».

أجاب الخوري الجديد ، بخشونة : « نحن مختلفا التفكير . الجدال عديم الفائدة ». وعاد الأب بيكو يتأسف على قريته ، على البحر الكان يراه من نوافذ بيته ، على الأودية بشكل قمع ، حيث كان يذهب ليصلّي في « شحيمته » ، وهو يرى ، في البعيد ، مرور الزوارق .

وانسحب الكاهنان . القديم منهما ، قبَّل جانّ الكادت تبكي .

بعد ثمانية أيام ، عاد الأب تولبياك . تحدّث عن إصلاحات سوف يتمُّها ، كما لو كان باستطاعة أمير يمتلك إمارته أن يفعل . ثم طلب إلى الفيكونتيسّة ألّا تُهمل قدّاس الأحد ، وأن تتناول القربان ، في كلّ الأعياد . « أنتِ ، وأنا ، قال ، رأس المنطقة . يجب أن نسوسه وأن نبدو دائماً القدوة . يجب أن نكون موحَّدَين لنكون قديرَين ومحترمَين . إذا ما تعاضدت الكنيسة والقصر ، يخشاهما الكوخ ويطيعهما ».

تَدَيُّن جانّ كان عاطفيًّا . كان لها ذاك الإيمان الحالم الذي تحتفظ به ، دائماً ، المرأة . وإذا ما أتمّت واجباتها ، فذلك ، خاصة ، بأمر العادة الملازمة لها من الدير . ففلسفة البارون المعارضة ، من زمان كانت ذهبت باقتناعاتها .

الأب پيكو ، كان قانعاً بالقليل الباقي لها ، ولم يكن يحرجها بطلب الأكثر . لكنّ خليفته ، إذ لم يرها في قدّاس الأحد ، أتى ، مسرعاً ، كئيباً وقاسياً .

ما أرادت أن تقطع العلاقة ببيت كاهن الرعية ، فوعدت ، متحفّظة ألاّ تبدو مثابرة ، إلاّ مسايرة ، في الأسابيع الأولى .

لكنها ، اعتادت الكنيسة شيئاً فشيئاً ، وخضعت لتأثير هذا الكاهن الضعيف ، المستقيم والمتسلّط . وكمتزهّد ، كان يعجبها بحماسه ونشاطه . يثير فيها وتر الشعر الديني الموجود في نفس كل النساء . كلّ صفاته كانت توحي ، لجانّ ، كيف يكون الشهداء : تقشُّف قاس ، احتقارٌ للعالم وللأمور الحسّيّة ، قرفٌ من الاهتمامات البشريّة ، حبّ لله ، كذلك تجربته الفتيّة والقاسية ، كلمته الصلبة ، وإرادته الحديديّة . وانساقت إليه ، هي المعذَّبة المستنيرة ، الآن ، بتعصّب هذا الرجل الخلوق ، رسول السماء .

قادها إلى المسيح المعزّي ، مبرهناً لها كيف أنّ الأفراح الدينيّة الورعة ، تهدِّىء كلّ الآلام ؛ وصارت تذهب إلى كرسيّ الاعتراف ، متواضعة ، شاعرة بنفسها صغيرة وضعيفة أمام هذا الكاهن اليبدو في الخامسة عشرة .

إنما سريعاً ما كرهه الريف كلّه .

يقسو على ذاته بعناد ، لكنّه يظهر للناس كأنّه عاجز عن التعصب لرأي . يثير غضبه وسخطه أمر واحد : الحبّ . يتحدَّث عنه في عظاته بحدّة ، بتعابير فجّة ، حسب الاستعمال الكنسي ، رامياً على جمهوره الخشن فترات متفجّرة ضدّ الاشتهاء . ويرتجف غضباً ، يخبط الأرض بقدميه ، ذهنه مسكون صوراً يستحضرها في غضباته .

في الكنيسة يروح الصبيان والبنات يلتفتون إلى بعضهم نظرات ماكرة . والقرويّون الشيوخ ، من يحبّون ، دائماً ، أن يمازحوا في مثل هذه الأمور ، يستهجنون تعصّب الخوري الصغير وهم عائدون إلى مزارعهم بعد قدّاس الأحد ، وبجانبهم الابن في قميصه الزرقاء ، والقرويّة بعباءتها السوداء . وكل القطر صار في هياج .

وراحوا يتوشوشون عن قساواته في كرسيّ الاعتراف ، وعقوباته الصارمة التي يفرضها . وامتزجت هذه الوشوشات سخريّة إذ كان يرفض إعطاء الحلّة للفتيات اللواتي تلطّخت طهارتهنّ . وصاروا يتضاحكون في القداديس الاحتفالية ، زمن الأعياد ، حين يرون الشباب ، في أماكنهم ، بدلاً من الذهاب للمناولة كما الآخرين .

وسريعاً راح يراقب العشّاق ليمنع لقاءاتهم ، كما حارس يطارد الصيّادين المخالفين . كان يطردهم من الحفر ، خلف الاهراءات ، في ليالي ضوء القمر ، وبين باقات الأسل البحزي على منحدرات الشواطىء الصغيرة .

اكتشف ، مرة ، اثنين لم يبتعدا عن بعضهما أمامه . متخاصرين كانا ، ويمشيان متعانقَين في وادٍ مليء حجارة .

صرخ الكاهن : « أنهيا هذه المهزلة ، يا قليلي الأدب ! »

استدار الصبي وقال له : « اهتمّ بأمورك ، سيّدي الخوري ، هذه لا تعنيك »

حينئذٍ التقط الكاهن حصى ورماهما كما يفعلون بالكلاب .

هربا ضاحكين . وفي الأحد التالي شهّر بهما في الكنيسة ، فامتنع كلّ شباب المنطقة عن ارتيادها .

كان الخوري يتعشّى في القصر ، كل خميس ، وغالباً ما يأتي خلال الأسبوع يحادث « أخته » . كانت تطوّف مثله ، تناقش في الأمور المجرّدة ، تعالج شؤون المجادلات الدينية القديمة المعقّدة والمتشابكة .

يتنزّهان معاًعلى امتداد ممّر البارونة الكبير متحدِّثَين عن المسيح والرسل ، عن السيِّدة العذراء وآباء الكنيسة ، كما لو أنهما عرفاهم جميعاً . يتوقفان ، كانا ، أحياناً ليطرحا أسئلة عميقة كانت تشرد بهما بطريقة صوفيّة ، تهيم ، هي ، في تهويمات شعريّة تتصاعد إلى السماء كما الصواريخ ، هو ، أكثر تركيزاً ، يستنتج كما محامٍ مكلَّف مهووس يبرهن ، رياضياً ، تربيع الدائرة .

أخذ جوليان يعامل الخوري الجديد باحترام كبير ، مردِّداً باستمرار : « يناسبني هذا الكاهن ، هو لا يتواطأ » يعترف ويتناول بطيبة خاطر ، مسرفاً في إعطاء القدوة .

يذهب الآن ، كل يوم ، تقريباً ، عند آل فورڤيل ، يصطاد

مع الزوج الذي ما عاد باستطاعته التخلّي عنه ، وراكباً الحصان مع الكونتيسّة ، بالرغم من المطر والطقس العاصف . كان يقول الكونت : « إنهما مسعوران هما وحصانهما ، لكنّ هذا يفيد امرأتي »

عاد البارون قبيل منتصف تشرين الثاني . كان تغيَّر ، شاخ ، انطفأ ، بات غائصاً في حزن أسود نفذ إلى روحه . وبدا حبّه لابنته متزايداً ، كما لو أنّ هذه الشهور من الوحدة الكئيبة كانت ضاعفت حاجته للعاطفة ، للثقة ، وللحنان .

ما أسرَّت له جانّ بأفكارها الجديدة ، ولا بصداقتها الحميمة والأب تولبياك ، ولا بحماستها الدينيّة . لكنه ، لأوّل مرّة رأى الكاهن ، أحسّ يستيقظ فيه ، ضدّه ، عداء عنيف .

وحين سألته ابنته ، مساء : « كيف وجدته ؟ » أجاب : « كأنّه محقِّق ، هذا الرجل ! لا شكّ أنه خطير » .

ثم ، بعد أن عرف من المزارعين ، أصدقائه ، قساوات الكاهن الشاب ، تعنيفاته ، هذا النوع من الاضطهاد الكان يمارسه ضد الشرائع وضد الميول الفطرية ، تفجّر ، في قلبه ، حقد .

كان ، هو ، من سلالة الفلاسفة القدماء ، مقدِّسي الطبيعة ، يرقّ قلبه لرؤيته حيوانين يتزاوجان ، يركع أمام إله حلوليّ ، ويشاكس اقتناعات كاثوليكية لإله ذي نوايا بورجوازية بحماقات يسوعية وانتقامات طاغية ؛ لا يخضع لإله يحتقر الكون البلا حدود ، الكلي القدرة ، الكون الحياة ، النور ، الأرض ، الفكر ، النبات ، الصخر ، الانسان ، الفضاء ، الحيوان ،

النجم ، الإله ، الحشرة في وقت معاً . يؤمن بالخلق لأجل الخلق ، أقوى من الارادة ، أعمق من التفكير ، ينجب بدون غاية ، بدون سبب ، وبدون نهاية ، في كل الاتجاهات ، وفي كل الأشكال عبر الفضاء اللامتناهي ، تبعاً لضرورات الصدفة وتقارب الكواكب التي تدفىء العوالم .

في الخلق كل الأصول ، الفكر والحياة ينموان فيه ، كأزهار وثمار الشجر .

بالنسبة إليه ، إذن ، عملية التناسل هي الشريعة الكبرى ، العمل المقدَّس ، المحترم ، الالهي ، يُكْمِل إرادة الكائن الشامل المبهمة والثابتة . ومن مزرعة إلى مزرعة ، ابتدأ يكرز ضدّ هذا الكاهن المتعصّب ، مضطهد الحياة .

حزينة ، جانّ ، راحت تتضرّع إلى المسيح ، تتوسّل إلى والدها . كان يجيبها دائماً : « يجب محاربة هؤلاء الرجال ، هذا حقنا وواجبنا . ليسوا إنسانيّين » . يردّد ، ملامساً شعره الأبيض الطويل : « ليسوا إنسانيين ، لا يفهمون شيئاً ، أبداً ، أبداً . يتصرّفون كما في حلم مشؤوم . إنهم ضدّ الطبيعة » ويصرخ : « ضدّ الطبيعة ! » كما لو كان يلعن .

أحسّ الكاهن بالخصم ، إنما ، بما أنه متشبّث بأن يبقى سيّد القصر وسيّد المرأة الشابة ، راح يسوّف ، واثقاً من النصر الأخير .

ثم راحت فكرة ثابتة تؤرّقه . كان اكتشف ، صدفة ، علاقات جوليان وجيلبرت ، وأرادها تتوقّف بأيّ ثمن .

أتى ، يوماً ، إلى جانّ ، وبعد حديث تقشّفي طويل ، طلب

إليها أن تنضم إليه لمحاربة الشرّ ، في عائلتها ، لانقاذ نفسَين يتهدّدهما الخطر .

ما فهمت شيئاً وأرادت تعرف . أجاب : « لم تأتِ الساعة بعد ، أراكِ قريباً » . وانصرف مسرعاً .

كان الشتاء صار في نهاياته ، شتاء عفن ، كما يقولون في الحقول ، رطب وفاتر .

عاد الكاهن بعد بضعة أيّام وتحدّث بتعابير مبهمة ، عن واحدة من هذه العلاقات غير الجديرة بأناس كان يجب أن يبقوا فوق الشبهات . ويركز على أنه يُطلب من عارفي هذه الأمور ، إيقافها بأيّة وسيلة كانت . ثم دخل في اعتبارات هامة ، آخذاً يد جانّ ، راجياً إيّاها أن تفتح عينيها ، أن تفهم وأن تساعده .

هذه المرة ، فهمت ، لكنها صمتت خائفة من الفكرة ، من كل ما يمكن أن يحدث في المنزل ، الهادىء حتى الآن ، من أمور شاقة ومتعبة . وظهرت بمظهر مَن لم يفهم ما أراد الخوري قوله . حينئذ ، ما عاد متأرجحاً أو متلبّكاً ، وتحدّث صراحة .

« هو واجب صعب ، ما عليّ إتمامه ، سيّدتي الكونتيسة ، إنما لا أستطيع غير ذلك . الرتبة التي لي ، تأمرني بألاّ أتركك تجهلين ما يمكنك صنعه . إعرفي ، إذن ، أن صداقة مجرمة تصل بين زوجك والسيّدة دي فورڤيل » .

خفضت رأسها ، مستسلمة وضعيفة .

تابع الكاهن : « ماذا ستفعلين ، الآن ؟ »

تمتمت متلعثمة : « ماذا تريد أن أفعل ، سيّدي الكاهن ؟ »

أجاب بعنف : « أن تندفعي ضد هذا الهوى الآثم » .

راحت تبكي . وبصوت دامٍ ، همست : « خانني مع خادمة . لا يصغي إليّ أبداً . بات لا يحبّني . يعاملني بفظاظة إذ أعلن رغبة لا تناسبه . فماذا أستطيع ؟ ».

صرخ الخوري ، بدون أن يجيب ، مباشرة : « إذن أنت تخضعين ! تستسلمين ! توافقين ! الزنا تحت سقف بيتك وتقبلين به ! الجريمة تتمّ أمام عينيك ، فتشيحين بنظرك ؟ أأنت زوجة ؟ أأنت مسيحيّة ؟ أمّ ؟ »

شهقت : « ماذا تريدني أفعل ؟ »

أجاب : « أيّ أمر ، إلّا التساهل مع هذا العمل الشائن . أيّ أمر ، قلت لك . أهجريه . أهربي من هذا البيت الملوّث » .

قالت : « إنما لا مال لي ، سيّدي الكاهن . ثم ، أنا لا أجرؤ ، الآن . ثم ، كيف أفعل ولا إثبات لي ؟ ليس من حقي أن أفعل هذا » .

نهض الخوري ، مرتجفاً : « هو التخاذل يرشدك ، سيّدتي ، ظننتك غير هذا . أنت لا تستأهلين رحمة الله ! » .

وقعت على قدميه : « آه ! أرجوك لا تهملني ، أرشدني ! » .

قال باختصار : « افتحي عيني السيّد دي فورڤيل . يعود إليه أمر قطع هذه العلاقة » .

مع سماعها هذه الفكرة ، اعتراها رعب : « لكنه يقتلهما ! سيّدي الكاهن ! وأكون اقترفت خطيئة الوشاية ! ليس هذا ! أبداً ! » .

رفع يده ، حينئذ ، كما ليلعنها ، قافزاً من غضب : « ظلّي في خزيك وفي جريمتك ، لأنك تفوقينهما إجراماً . أنت الزوجة المتواطئة ! لم يبقَ لي ما أفعله هنا » .

وراح غاضباً ، يرتجف جسده كلّه .

تبعته مشدوهة ، مستعدّة للرضوخ ، بادئة بالتأكيد . لكنه بقي يرتجف سخطاً ، سائراً بخطى سريعة ، هازاً ، بغضب ، شمسيّته الزرقاء الكبيرة التي تكاد توازيه طولاً .

لمح جوليان واقفاً قرب السياج ، يدير أشغال التشذيب . استدار ، لحظتذاك ، شمالاً ليجتاز مزرعة آل كويّار ، كان يردّد : « دعيني ، سيّدتي ، لم يبقَ لي ما أقوله لك » .

في طريقه ، وسط الساحة ، رأى جماعة أولاد ، أولاد البيت وأولاد الجيران ، متحلّقين حول كوخ الكلبة ميرزا ، يتأمّلون ، بحشريّة ، أمراً ما ، بانتباه مركّز وأخرس . كان البارون في وسطهم ، يداه وراء ظهره ، ينظر ، أيضاً ، باهتمام . يُظَنّ معلّم مدرسة . لكنه ذهب ، حين رأى الكاهن ، من بعيد ، ليتحاشى ملاقاته وتحيّته والحديث معه .

كانت جانّ تقول ، متوسّلة : « دعني لبضعة أيّام ، سيّدي الكاهن ، وعد إلى القصر ، أخبرك ما قدرت على فعله ، وما أكون حضّرته ، ثم نرى » .

وصلا قرب الأولاد . تقدّم الخوري ليرى ما كان يثير انتباههم . كانت الكلبة تلد . أمام حجرتها تجمهر خمسة صغار حول الكلبة يلعقون بحنان ، وهي ممدّدة على جنبها ، متألّمة . حين

انحنى الكاهن ليرى ، تمدّدت الكلبة وظهر كُلَيب صغير خامس . راح الصبيان الوقحون ، أخذهم الفرح ، يصرخون مصفّقين : « هوذا ، بعد ، واحد ، هوذا ، بعد ، واحد ! » كانت تسلية ، بالنسبة إليهم ، لعبة طبيعيّة لا يخالطها شيء عديم الطهارة . كانوا يتأمّلون عملية الولادة ، كما لو كانوا ينظرون تساقط التفّاح

أخذت المفاجأة الأب تولبياك ، أوّل الأمر ، ثم اعتراه غضب شديد ، فرفع شمسيّته الكبيرة وابتدأ يضرب الأولاد على رؤوسهم ، بكلّ قوّته . خافوا وهربوا . فوجد نفسه ، فجأة ، بمواجهة الكلبة المضّجعة التي حاولت النهوض . لكنه لم يدعها تنهض أقدامها ، وفاقداً صوابه انهال عليها بالضرب بكل قواه . كانت مربوطة ، ما استطاعت الهرب ، فراحت تنتحب بهول متخبّطة تحت وطأة الضربات . كسر شمسيّته . وإذ فرغت يداه ، صعد فوقها ، يدوسها مهتاجاً ، يسحقها ، يهرسها . جعلها تلد ، بعد ، صغيراً آخر ، برز بضغطه . وبضربة كعب حذاء ضارية ، أنهى الجسد الدامي الكان ما يزال يتحرّك وسط مواليده الجديدة المصأصئة ، العمياء والثابتة مكانها مفتّشة عن الضروع .

كانت جانّ انسحبت . لكن ، سرعان ما شعر الكاهن أنه أُمْسك من عنقه ، وصفعة قوية جعلت قبّعته المثلّثة القرون تطير في الهواء . وحمله البارون الغاضب حتى السور ورماه على الطريق .

حين استدار السيّد لويرتوي ، رأى ابنته راكعة ، شاهقة وسط الكلاب الصغيرة ، تجمعها بتنورتها . عاد إليها بخطى كبيرة وصرخ معبّراً بحركات يديه : « هذا هو ، هذا هو الرجل صاحب

العباءة ! أرأيته الآن ؟ » .

كان المزارعون تراكضوا، وكلهم رأوا الكلبة المبقورة .

قالت الأم كويّار : « معقول أن يكون متوحّشاً إلى هذه الدرجة ؟ » .

لكنّ جانّ ، كانت التقطت السبعة الصغار لتهتم بتربيتها .

حاولوا إطعامها حليباً ، مات ثلاثة في اليوم التالي . حينئذٍ جاب الخادم سيمون كلّ المنطقة باحثاً عن كلبة مرضعة . ما وجد إنما عاد بهرّة مؤكّداً أنها للمهمّة . فقتلوا ، إذن ، ثلاثة أخرى وأعطوا الأخير للمرضعة من غير جنس . حالاً تبنته ، أعطته ضرعها نائمة على جانبها .

فطموا الكلب بعد خمسة عشر يوماً ، لئلا ينهك أمه بالتبنّي ، واهتمّت جانّ بتغذيته بالرضاعة . أسمته توتو ، لكنّ البارون غيّر هذا الاسم .

لم يعد الكاهن ، في الأحد التالي ، وأطلق من علو المنبر لعنات واستمطر مصائب ووجّه تهديدات ضدّ القصر ، منادياً أنه يجب وضع الحديد الأحمر في الجراح ، حارماً البارون الذي تسلّى بهذا ، ملمّحاً ، بطريقة مقتضبة ، إلى غراميّات جوليان الجديدة . سخط الڤيكونت ، لكن الخوف من الفضيحة هدّأ غضبه .

وأكمل الكاهن ، في عظة بعد عظة ، أيام الآحاد ، انتقامه ، متكهّناً أنّ ساعة الرب تقترب ، وأنّ جميع أعدائه سيُصعَقون .

كتب جوليان رسالة احترام إلى المطران . لكنّها حازمة . أنذر على أثرها الأب تولبياك بنكبة . فسكت .

صاروا يلتقونه ، بعد هذا ، قائماً بنزهات طويلة ، وحيداً ، بخطى كبيرة ، ومظهر متحمّس . جيلبرت وجوليان ، كانا ، في نزهاتهما على الحصان ، يلمحانه باستمرار ، أحياناً في البعيد كنقطة سوداء في طرف السّهل ، أو على حدود الشاطىء الصخريّ ، وأحياناً أخرى ، مصلّياً « شحيمته » ، في وادٍ ما ، ضيّق حيث يكونان يهمّان بالدخول . فيديران اللجام ، في اتجاه آخر ، لئلا يمرّا قربه

جاء الربيع محيياً حبّهما ، رامياً كلاًّ منهما في ذراعي الآخر ، مرة هنا ، مرة هناك ، تحت كلّ ملجأ ، حيث تقودهما نزهاتهما .

وإذ كانت أوراق الأشجار غير كثيفة بعد ، والعشب طريّاً ، ولا يمكنهما ، كما في الصيف ، الاحتماء بين شجيرات الغابات ، صارا يذهبان ، أكثر الأحيان ، إلى كوخ راع نقّال مهجور منذ الخريف على قمّة شاطىء فوكوت قريباً من إيبور ، هناك يختفيان ، في عناقاتهما ، عن المراقبة .

وحيداً ، يقوم هذا الكوخ ، عالياً على دواليبه ، على بعد خمسمائة متر من الشاطىء الصخري ، تماماً حيث يبدأ انحدار الوادي القاسي . لا يفاجآن هنا ، هما يريان السهل كلّه . ويبقى الحصانان مربوطان ينتظران أن يتعبا من القبلات .

لكن ، ذات يوم ، وإذ هما يخرجان من ملجئهما هذا ، لاحظا الأب تولبياك جالساً ، يكاد يكون مختفياً بين الأسلات البحرية .

« يجب ترك الحصانين في الوادي الصغير ، قال جوليان ، يستطيعان ، هكذا ، إبلاغنا من بعيد » . واعتادا ، بعدها ، ربط

الحصانين في ثنية من الوادي مليئة بالأشواك .

ثم ، ذات مساء ، وهما يدخلان ڤـريّات للعشـاء مع الكونت ، التقيا خوري إتوڤان خارجاً من القصر . حاد قليلاً ليفسح لهما في الدخول ، وحتّى دون أن يريا عينيه .

غمرتها كآبة سرعان ما زالت .

بعد ظهر أحد الأيّام ، وجانّ تقرأ قرب النار ، وسط إعصار هوائي (نحن في بداية أيّار) ، لاحظت ، بغتة ، الكونت دي فورڤيل آتياً سيراً على الأقدام ومسرعاً كما لو أنّ كارثة وقعت .

بسرعة ، نزلت لتستقبله ، وحين صارت بمواجهته ، ظنّته مجنوناً ، صار . كان يعتمر « قبعة » كبيرة مبطّنة ، لا يعتمرها إلاّ في بيته ، مرتدياً قميص الصيد ، وشاحباً إلى حدّ بدا شارباه الأحمران ، وهما عادة لا يتميّزان عن لون بشرته ، كشعلة . وعيناه مهوّمتان ، زائغتان ، فارغتان .

لهث : « امرأتي هنا ، أليس كذلك ؟ » أجابت جانّ ، مبلبَلة : « لا ، ما رأيتها اليوم » .

حينئذ جلس ، كأن ساقيه تحطّمتا . نزع « قبعته » ومسح جبينه بمحرمته ، مرات كثيرة ، بحركة آليّة . ثم نهض دفعة واحدة ، تقدّم نحو المرأة الشابة ، يداه ممدودتان ، فمه مفتوح ، مستعدًّا للكلام ، ليفضي إليها بشيء مثير للألم مخيف . لكنّه توقّف ، نظر إليها بتركيز ، قال كمن يهذي : « لكنه زوجك . . . أنتِ أيضاً . . . » وركض جهة البحر .

ركضت جان لتوقفه ، تناديه ، تتوسّل إليه ، قلبها متقلّص

خوفاً ، فكّرت : « يعرف كلّ شيء ! ما سيفعل ؟ آه ! ليته لا يجدهما ! » .

وما كانت تستطيع أن تلحق به ، وما أصغى إليها . كان يسير بدون تأرجح ، واثقاً من هدفه . تجاوز الحفرة ، ثم ، مجانباً الأسلات البحريّة ، صار في الشاطىء الصخري .

تابعته جانّ طويلاً ، بعينيها ، واقفة في المنحدر المغروس أشجاراً . وحين لم تعد تراه ، دخلت معذّبة قلقة .

كان استدار ، يميناً ، وراح يركض . البحر الصاخب يقلّب أمواجه . الغيوم الكبيرة السوداء تصل ، بسرعة جنونيّة ، تعبر ، وتتبعها غيوم أخرى . وكل غيمة منها ، تجلد الشاطىء بزخّات مطر حانقة . الهواء يعصف ، ينوح ، يقطع الأعشاب ، يلوي المزروعات ، يحمل معه ، كما الزبد ، عصافير بيضاء كبيرة ، يجرّها إلى أراض بعيدة .

نقاطُ الماء المتتابعة ، تلفح وجه الكونت ، تبلّل خدّيه وشاربيه حيث يزلق الماء ، يملأ أذنيه ضجيجاً وقلبه اصطخاباً .

وادي ڤوكوت يفتح حلقه العميق هناك أمامه . لا شيء ، حتى الآن ، سوى كوخ راع قربه زريبة غنم فارغة . حصانان مربوطان بمحمل البيت النقّال . ـ ماذا يخشيان ، هما ، في مثل هذه العاصفة ؟ -

مذ رآهما ، انبطح الكونت أرضاً ، ثم سار على يديه وركبتيه ، شبيهاً بعملاق بجسمه الضخم الملطّخ وحلاً وقبّعته من شعر الحيوان . زحف صوب الكوخ المنفرد واختبأ تحته ، لئلا

يُكتَشَف من ثقوب الألواح الخشبيّة .

تحرّك الحصانان إذ رأياه . قطع ، على مهل ، رسنهما ، بسكّين يمسكه مفتوحاً . وإذ هبّت زوبعة هرب الحصانان مضايقَين من البرد الكان يجلد السّقف المنحني ، ويهزّ الكوخ على دواليبه .

قام الكونت على ركبتيه ؛ ألصق عينه تحت الباب ، وراح ينظر إلى الداخل .

ما عاد تحرّك . بدا ينتظر . مرّ زمن ليس بقصير . وفجأة نهض ، ملطّخاً وحلاً ، من رأسه حتى قدميه . وبحركة غضوبة ، أغلق الباب من خارج . وبعد أن أمسك محمل الكوخ ابتدأ يرجّه ، كما لو يريد تمزيقه قطعاً . ثم ، بغتة ، أكبّ عليه ، حانياً قامته الطويلة بجهد كبير ، ضاغطاً كثور ، لاهثاً . وجرّ هذا الكوخ النقّال ، إلى المنحدر الوعر ، بمن فيه .

راحا يصرخان في الداخل ، ضاربَين القفل بجماع الكف ، غير فاهمين ما يحدث لهما .

وحين وصل إلى أعلى النزلة ، ترك هذا المسكن الخفيف ، يتدحرج .

تدحرج بسرعة ، مدفوعاً بجنون، تتزايد سرعته ، قافزاً ، مترنّحاً كما حيوان ، ضارباً الأرض بحمّالاته .

رآه شحّاذ ، كان في حفرة ، يمرّ قافزاً فوق رأسه ، وسمع صراخاً مهولاً ينطلق من هذه الطوّافة الخشبيّة .

وفجأة ، إثر صدمة ، فُقد دولابٌ ، لكنّ التدحرج استمر كما الكرة ، كما بيت يتدهور من قمة جبل ، وإذ وصل هذا الكوخ إلى

طرف الوادي الأخير ، وثب بشكل قوس دائري ، ووقع في العمق ، وانشطر كما بيضة .

فور انكسر على الأرض الحجريّة ، نزل إليه بخطى صغيرة عبر الأشواك . ومدفوعاً بحماسه القرويّ ، وفي الوقت نفسه خائفاً الاقتراب ، ذهب إلى المزرعة المجاورة يعلن الحادث .

تراكضوا . رفعوا الحطام . فوجدوا جسدين . كانا ممزّقين ، مسحوقين ، داميين . كان الرجل مشقوق الجبين ، مسحوق الرأس . فك المرأة متدلّ ، إذ انفكّ بصدمة . وأطرافهما مكسورة ، رخوة ، كما لو لم يبق تحت الجلد عظام .

مع ذلك عرفوهما . وراحوا يفكرون طويلاً : ما يكون سبب هذه الكارثة . « ماذا كانا يفعلان داخل هذا الكوخ الحقير ؟ » سألت امرأة . حينئذٍ ، أخبر الزوج المسكين أنهما ، ظاهراً ، احتميا ، بداخله ، من العاصفة ، وأن الهواء الساخط أوقع هذا البيت . وتابع أنه هو نفسه كان سيلتجىء إليه ، لو لم يرَ الحصانين المربوطين ، فيعرف أنّ المكان مشغول .

وأضاف ، كأنه مسرور : « والاّ ، كنت أنا بدلاً منهما » .

قال أحدهم : « ألم يكن هذا أفضل ؟ »

غضب الرجل : « لماذا كان أفضل ؟ الأنّني فقير ، وهما غنيّان ! لاحظوهما ، الآن . . . » ومرتجفاً ، رثّ الثياب ، مبلّلاً بالمياه ، بشعاً بلحيته المختلطة بشعره الطويل المتدلّي من تحت قبّعته الغائصة ، دلّ ، بطرف عصاه المعقوفة ، إلى الجثتين ، وأعلن : « كلّنا متساوون أمام الموت » .

لكنّ قرويّين آخرين كانوا أتوا ، ونظروا بطرف عيونهم ، بكآبة ، وتكتّم ، وأنانيّة وتخاذل . ثم تحادثوا بما يجب فعله . تقرّر ، على أمل المكافأة ، أن يحملوا الجسدين كلاً إلى قصره . فأحضروا عربتين . لكنّ صعوبة جديدة طرأت . بعضهم أراد تجهيز العربتين بالتبن . آخرون أرادوا وضع فراشين لائقين .

هتفت المرأة الكانت تكلّمت : « لكنّ الفراشين يمتلئان دماً ، من يغسلهما ؟ » .

فأجاب فلّاح بادي السرور : « يدفعون بدل ذلك ، أكثر مما يجب » . وافقوا .

وانطلقت العربتان ، جاثمتين عالياً فوق دواليب لا نوابض لها ، واحدة إلى اليمين ، والأخرى إلى اليسـار ، هازّتـين ، خاضّتين ، مع كلّ رجّة ، بقايا هذين الكائنين الكانا انطفآ ولن يلتقيا ، أبداً .

كان الكونت ، مذ رأى تدحرج البيت النقّال ، اختفى ، بكل سرعته ، عبر المطر والزوابع . ركض ، هكذا ، ساعات ، مجتازاً الطرقات ، قافزاً فوق الحفر ، مخترقاً الحواجز . وعاد إلى بيته ، آخر النهار ، لا يدري كيف .

كان الخدم ينتظرونه خائفين ، وأعلنوا له عودة الحصانين بدون الفارسين .

تردّد السيّد دي فورڤيل ، وبصوت متقطّع : « قد يكون حدث لهما مكروه في هذا الطقس المخيف . ليذهب الجميع بحثاً عنهما » .

وعاد ، هو نفسه ؛ لكنّه ، مذ غاب عن الأبصار ، اختبأ تحت العلّيق ، مراقباً الطريق حيث ستعود ميتة ، أو محشرجة ، أو ربّما مشوّهة ، حتى آخر العمر ، هذه الكان أحبّها وما يزال ، بلهفة كبيرة .

ها عربة تمرّ أمامه ، حاملة شيئاً ما ، غريباً .

توقّفت أمام القصر ، ثم دخلت . كان ما توقّعه ، إنها هي ، لكنّ قلقاً غريباً سمّره مكانه ، خوفاً مرعباً ليعرف الحقيقة المهولة . ما عاد تحرّك ، جامداً كأرنب برّيّ ، مرتعشاً لأقل حركة .

انتظر ساعة ، ربما ساعتين . وما عادت العربة . فكّر في نفسه أن امرأته تحشرج ، وملأته فكرة رؤ يتها ، ورؤ ية منظرها ، خوفاً ، إلى حدّ خشي معه أن يُكْتَشَف في مخبئه ، ويؤ تى به عنوة ، ليحضر النزع الأخير ، فغاص ، بعد ، في أعماق الغابة . لكنّه ، فجأة ، فكّر أنها ، ربما ، بحاجة إلى إغاثة ، وأنّ أحداً لا يستطيع الاعتناء بها ، فعاد راكضاً منذهلاً .

التقى ، وهو سائد ، بستانيّه ، وهتف له : « وبعد ؟ » ما جرؤ الرجل على الاجابة . حينها ، زأر السيّد دي فورفيل : « ماتت ؟ » فتلعثم الخادم مجيباً : «نعم، سيّدي الكونت» .

أحسّ براحة وسيعة . هدوء سريع دخل دمه وعضلاته المهتزّة ؟ وبخطوة واثقة صعد درج مدخله الكبير .

كانت العربة الأخرى ذهبت إلى غيضة الحور . رأتهاجانّ ، من بعيد ، ورأت الفراش ، فهمت أن جسداً ممدداً فوقه ،وعرفت كل شيء . قويّاً ، كان انفعالها ، إلى حد خارت قواها بدون أن

تدري .

وحين عادت إلى وعيها ، كان والدها يمسك رأسها ، ويلطّخ صدغيها خلاً . بحيرة سألها : « تعرفين ؟ . . . » تمتمت : « نعم ، يا أبي . » لكنها ، حين حاولت النهوض ، لم تستطع لألمها الشديد .

في المساء ذاته وضعت ولداً ميتاً : ابنة .

ما رأت شيئاً من دفن جوليان ، وما عرفت عنه شيئاً . سوى أنها لاحظت ، خلال يوم أو يومين ، أنّ الخالة ليزون عادت . وفي كوابيسها المحمومة الكانت تراودها ، تروح تحاول ، بإصرار ، تذكّر متى غادرت العانس غيضة الحور ، في أية فتره ، في أية مناسبة . ما استطاعت ذلك ، حتى في ساعات صفائها ، واثقة ، فقط ، من أنها رأتها بعد موت أمّها .

XI

لثلاثة أشهر ، لازمت غرفتها . بعدها ، استحالت هزيلة شاحبة ، حتى ظُنّ أنها ستموت . ثم راحت تنتعش رويداً رويداً . والدها وخالتها ليزون ، ما كانا ليفارقاها ، ملازمَين غيضة الحور . كانت أصيبت بمرض عصبيّ ، بعد صدمتها . أدنى حركة كانت تجعلها تنهار ، وتقع في إغماءات طويلة لأتفه الأسباب .

ولا مرة طلبت تفاصيل حول موت جوليان . ما كان يهمّها ؟ كانت تعرف ما فيه الكفاية . الجميع ظنّوه حادثاً ، لكنّها لم تكن لتُخْدَع . وأخفت ، هذا السرّ الكان يعذّبها ، في قلبها : معرفة الخيانة الزوجيّة ، وزيارة الكونت السريعة والمخيفة ، يوم الكارثة بالذات .

هي ، الآن ، تخترق بالها ذكريات حنونة ، جميلة وحزينة ، أفراح حب قصيرة أحياها بها ، من زمانٍ ، زوجها . ترتعش ، كل لحظة ، لتيقّظ ذاكرتها المفاجىء . وراحت تراه ، الآن ، كما أيّام الخطوبة ، وكما أحبّته ساعات شوقها المتفتّح تحت شمس جزيرة كورسيكا . كل عيوبه تناهت ، كل قساواته اختفت ، وحتى خياناته نفسها ، كانت تلطّفت في البُعاد المتصاعد للقبر . وغفرت ، جانّ ، مغمورة بالشكران ، بعد الوفاة ، كل الاساءات الماضية ، كي

لا تفكّر إلاّ في اللحظات السّعيدة . وراح الزمن يدور ، والأشهر تتراكم ، فاشتعل النسيان وغلّف بالغبار كل تذكّراتها المبهمة وآلامها . وأعطت نفسها ، بجملتها لابنها .

صار المعبود ، مجال التفكير الوحيد للثلاثة الأشخاص من حوله ، والحاكم المستبدّ . ونشأ شكل من التحاسد بين خدّامه الثلاثة ، جانّ تنظر ، بعصبيّة ، قبلاته الكبيرة للبارون ، بعد « حفلات » الفروسيّة . والخالة ليزون ، المهمَلة منه كما من الجميع ، المعاملة كخادمة من قبل هذا السيّد الما كان يتكلّم بعد ، تدخل غرفتها تبكي ، مقارنة ملاطفاتها التي تشحذها وبالكاد تحصل عليها ، بالعناقات الطويلة لأمّه وجدّه .

سنتا انشغالٍ دائم بالولد ، مرّتا بهدوء ، دون أيّ حدث . وفي بداية الشتاء الثالث ، قرّروا سُكنى روّان حتى الربيع .

هاجرت العائلة كلّها . إنما ، بوصولهم إلى البيت المهجور والرطب ، أصيب پول بنزلة رئويّة خطيرة خشي معها من مضاعفات . فأعلن الثلاثة ، مذهولين ، أنّه ليس بالامكان التخلّي عن جو غيضة الحور . ومنذ أن شُفي ، أعيد .

وابتدأت سلسلة سنوات رتيبة هادئة .

دائماً ، معاً ، حول الصغير . مرة في غرفته ، مرة في البهو الكبير ، وأخرى في الحديقة ، ينتشون بتأتأته ، بتعابيره المضحكة ، بحركاته .

كانت أمّه تناديه پوليه دلعاً ، فما كان يستطيع لفظ هذه الكلمة ، فيلفظها بطريقة أخرى تثير ضحكات لا متناهية . ورافقه

هذا الاسم ، فما كانوا ينادونه إلّا به .

وبما أنّه كان يكبر بسرعة ، راح أهله الثلاثة ، وكان البارون يسمّيهم « أمّهاته الثلاث» ، يهتمون بلهفة في قياس قامته .

كانوا وضعوا على تلبيسة باب البهو ، سلسلة خطوط ، تدلّ على مقدار نموّه من شهر لآخر . هذا السّلّم ، واسمه « سلّم پوليه » ، يتخذ حيّزاً مرموقاً في حياة الجميع .

ثم دخل كائن جديد ، أخذ دوراً مهمّاً في العائلة ، هو الكلبة « مَسَّاكْر » وكانت أهملته جانّ المشغولة ، فقط ، بابنها . تهتم به ، كانت ، لوديڤين ، ويأوي في برميل قديم أمام الاصطبل ، وحيداً يعيش ، والطوق في عنقه .

لاحظه پول ذات صباح ، وأخذ يصرخ ، يريد تقبيله . أخذوه إليه ، مع خوف لامتناهٍ . سُرَّ الكلب كثيراً بالولد الذي بكى حين أرادوا إرجاعه . حينها ، أطلق « مسّاكْر » ، وأخذ مكانه في البيت .

صار لا يفترق عن پول ، صديق كل الأوقات . معاً يتقلّبان ، جنباً إلى جنب ، على السجّادة ، ينامان . وسريعاً ما نام « مسّاكْر » في سرير رفيقه الكان يرفض أن يغادره . مرات ، كانت تتضايق جانّ بسبب البراغيث . والخالة ليزون أرادت يأخذ الكلب حصّة كبيرة من عاطفة الصغير ، من العاطفة المسروقة من هذا الحيوان ، كما يبدو لها ، من العاطفة الكانت كثيرا ما تتمنّاها .

زيارات نادرة كانوا يتبادلونها مع آل بريزڤيل وآل كوتوليه . وحدهما ، المختار والطبيب ، يخترقان بانتظام وحدة القصر العتيق .

ومنذ مجزرة الكلبة ، والهواجس التي أثارها الكاهن حين الموت الفاجع للكونتيسة ولجوليان ، ما عادت دخلت ، جانّ ، الكنيسة . غضبت على الله الكان يقبل هكذا رسلاً .

بين وقت وآخر ، كان الأب تولبياك يلعن ، بإشارات واضحة ، القصر المسكون بروح الشر ، روح الثورة الدائمة ، روح الرعب والكذب ، روح البغي ، روح الفساد والتعهّر . كان يقصد ، بهذا ، البارون .

على كل حال ، كانت كنيسته أقفرت . وحين كان يذهب إلى الحقول حيث الفلّاحون يغرزون سككهم ، ما كان هؤلاء يتوقّفون للتحدّث إليه ، ولا يلتفتون لتحيّته . فوق ذلك راح يتصرف كمشعوذ ، لأنه طرد الشيطان من امرأة ممسوسة . يعرف ، قيل ، كلمات سحريّة تذيل أذى السحر الما كان ، حسب رأيه ، إلاّ خزعبلات من الشيطان . يضع يديه على البقرات الكانت تدرّ حليباً أزرق ، أو ذات الذنب الدائري ، وبكلمات غير معروفة ، كان يجعل الأشياء المفقودة تنوجد .

نفسيّته المستقيمة والمتعصّبة ، اتجهت بعطش ملهوف إلى دراسة الكتب الدينيّة المتحدّثة عن قصص ظهور الشيطان على الأرض ، عن مختلف أشكال تجلّيات قدرته ، عن تأثيراته الخفية والمتنوّعة ، عن منابعه وعن مهارات حيله . وبما أنه كان يعتبر نفسه المدعوّ الفريد لمحاربة هذه القدرة السحريّة والقَدَرية ، حفظ كل أنواع التعاويذ المشار إليها في الكتب الكنسيّة .

يحسب ، باستمرار ، أن الروح الشريرة ترافق الناس

كظلّهم ؛ والعبارة اللاتينية تتردّد ، كل لحظة ، على شفتيه : « يدور في كلّ اتجاه ، كما أسد يزأر ، باحثاً عن فريسة » .

عند هذا ، انتشرت خشية منه ، رعب من قوّته الخفيّة . زملاؤه ، أنفسهم ، كهنة الأرياف الجهلة ، المضطربون بالأوصاف الدقيقة للطقوس ، أثناء تجلّي قدرة الشرّ هذه ، باتوا يخلطون بين الدين والسحر ، وصاروا يعتبرون الأب تولبياك ، إلى حدّ ، ساحراً . إنما كانوا يحترمونه لقدرته التي يفترضونها له ، كما لتقشّفه ، اللاطعن عليه ، في حياته .

وهو ، صار ، حين يلتقي جانّ ، لا يحيّيها .

هذا الوضع أحزن الخالة ليزون وآلمها ، وماكانت تفهم ، أبداً ، لروحية العانس الخائفة فيها ، كيف لا يذهبون إلى الكنيسة . تقيّة ، كانت ، بلا شك ، وبلا شك ، كانت تعترف وتتناول . لكنّ أحداً لا يعرف هذا ، ولا يبحث لمعرفته .

حين تكون وحيدة ، وحيدة تماماً ، مع پول ، تروح تحدّثه ، همساً ، عن الله . يصغي إليها ، كان ، تقريباً ، حين تخبره قصص عجائب أزمنة العالم الأولى . ولكن ، حين تحدّثه بضرورة حبّ الله ، كثيراً كثيراً ، كان يجيبها أحياناً : « أينه ، يا خالتي ؟ » فتدلّ ، بإصبعها ، على السماء ، تقول : « فوق ، يا پوليه ، ولكن يجب ألّا تخبر بذلك . » تخشى ، كانت ، البارون .

لكن پوليه ، قال لها يوماً : « الله في كلّ مكان ، لكنّه ليس في الكنيسة . » كان حدّث جدّه بأحاديث الخالة السرّيّة .

وصار عمره عشراً . بدت أمّه في الأربعين . كان قوياً ،

فوضوياً ، جسوراً في تسلُّق الأشجار ، لكنّه لا يعرف شيئاً كثيراً : تضجره الدروس ، يوقفها بسرعة . وكل مرّة يحتبسه البارون ، إلى حدّ ، مع كتاب ، تصل جانّ ، قائلة : « أتركه يلعب الآن . يجب ألّا يتعب ، ما يزال صغيراً . » كان ما يزال ، بالنسبة إليها ، في شهره السادس ، أو في سنته الأولى ، على الأكثر . بالكاد كانت تشعر بأنه صار يمشي ، يركض ، يتكلّم كرجلٍ صغير . وتحيا بخوفٍ دائم من أن يقع ، أو يبرد ، أو يأكل كثيراً على معدته ، أو قليلاً لنموّه .

حين صار في الثانية عشرة ، طرأت صعوبة كبيرة : قربانته الأولى .

جاءت ليز ، في صباح ، إلى جانّ ، عارضة عليها أنه لا يستطاع ، أكثر ، أن يبقى الصبي بدون ثقافة دينية ، وبدون إتمام واجباته الأولية . احتجّت ، لذلك ، بكلّ الطرق ، مخترعة ألف سبب ، وفي المقدّمة رأي الناس الكانت تراهم . راحت الأم في حيرة وتلبُّك ، لكنها أكّدت أنه يمكن الانتظار ، بعد .

لكنها ، بعد شهر ، إذ كانت تقوم بزيارة ڤيكونتيسة دي بريزڤيل ، سألتها ، هذه المرأة ، صدفة : « هذه السنة ، سيتقدّم پول إلى قربانته الأولى ، أليس كذلك ؟ » فوجئت جانّ ، فأجابت : « بلى ، يا سيّدتي » . هذه الكلمة البسيطة جعلتها تقرِّر ، وبدون أن تقول شيئاً لوالدها ، وتوسّلت ليز لأن تأخذ الصبي إلى التعليم المسيحي .

وسار كلّ شيء على ما يرام ، خلال شهر . لكن پوليه عاد ،

في مساء ، مبحوح الحلق . وفي الغد طفق يسعل . خافت أمّه ، سألته السبب ، وعرفت أن الخوري كان أوقفه على باب الكنيسة ، في مهبّ هواء الرواق ، عقاباً له لسوء تصرُّف بدر منه .

أبقته في البيت ، وراحت ، هي نفسها ، تعلِّمه مبادىء الديانة . لكنَّ الأب تولبياك ، بالرغم من توسّلات ليزون ، رفض قبوله بين المتناولين حاسباً ثقافته الدينيّة ناقصة .

وهكذا في العام التالي . حينها ، حنق البارون ، وأقسم أن الولد ليس بحاجة إلى الايمان بهذه البلاهة ، بهذا الرمز المهترىء : استحالة القربان إلى جسد المسيح ودمه ، ليكون إنساناً نبيلاً . وتقرَّر أن ينشأ مسيحيا ، وليس ضرورياً أن يكون كاثوليكياً ممارساً ، هكذا يكون حرًّا ، في سنّ رشده ، في أن يكون ما يريد .

بعد زمن ، قامت جانّ بزيارة لآل بريزڤيل ، فلم تبادل زيارتها . عجبت كونها تعرف تهذيب جيرانها الذاهب حتى الوسوسة . لكنّ المركيزة دي كوتوليه ، ألمحت لها ، بتعالٍ ، سببَ هذا الامتناع .

كانت المركيزة ، بسبب وضع زوجها ، وبسبب مقامه الحقيقي ، وكذلك ، بسبب ثروته المحترمة ، تحسب نفسها ملكة الطبقة النورماندية النبيلة ، وهي تحكم كملكة حقيقيّة ، تتكلّم بحريّة ، تبدو لطيفة أو قاطعة ، حسب الظروف ، توبِّخ ، تقوِّم ، تهنّىء في كلّ ظرف . وإذ زارتها ، مرّة ، جانّ ، قالت لها ، هذه المرأة ، بنبرة قاسية ، بعد كلمات باردة : « ينقسم المجتمع طبقتين : مَن يؤمنون بالله ، ومَن لا يؤمنون . الأوّل ، حتى أكثرهم بساطة ، هم أصدقاؤنا ، نظراؤنا . أما الآخرون فلا يعنون لنا شيئاً » .

أحسَّت ، جانّ ، بالحملة عليها : « ألا يمكن الإيمان بالله بدون التردُّد إلى الكنيسة ؟ »

أجابت المركيزة : « كلا ، يا سيّدة . يذهب المؤمنون يصلّون إلى الله في كنيسته ، كما نذهب نبحث عن الرجال في منازلهم »

جُرحت جانّ ، وأجابت : « الله ، سيّدتي ، موجود أينما كان . أما بالنسبة إليّ ، أنا المؤمنة من أعماق قلبي ، برحمته ، فبتّ لا أشعر بحضوره ، حين يفصلني عنه بعض الكهنة »

نهضت المركيزة : « سيِّدتي ، يحمل الكاهن شعار الكنيسة . كل مَن لا يتبع الشعار ، هو ضدّه ، وضدّنا »

نهضت ، جانّ ، بدورها ، مرتجفة : « تؤمنين أنت ، سيّدتي ، بإله فئة . أما أنا ، فأؤمن بإله الناس المخلصين »

ثمّ حيَّت وانصرفت .

حتى المزارعون لاموها ، في ما بينهم ، لكونها لم تقدِّم پوليه إلى المناولة الأولى . ما عادوا يذهبون إلى قداس الأحد ، ولا تقدَّموا ، مطلقاً ، من الأسرار ، بالأحرى ما اقتبلوها إلّا في الفصح ، كما تنص حرفية قوانين الكنيسة . إنما ، بالنسبة للأطفال ، الأمر مختلف . كلهم تراجعوا أمام الجرأه في تربية ولد خارج هذا القانون العام ، إذ الديانة هي الديانة .

عاشت تماماً هذا النَّبْذ ، وسخطت في نفسها ، من كل هذه الاتفاقات ، من ترتيبات الضمير ، هذه ، من هذا الخوف العام ، من الجُبن الكبير المقيم في أعماق كل القلوب ، وحين الخروج ، تتزيّن بأقنعة كثيرة .

تسلَّم البارون إدارة دروس پول ، وجعله يتعلَّم اللاتينية . لم يكن للأم إلاَّ وصيّة واحدة : « خاصّة لا تُتْعِبْه » ، وراحت تدور ، حزينة ، قرب غرفة الدروس ، إذ كان والدها منعها من الدخول لأنها كانت تقطع التعليم ، كل لحظة ، لتسأل : « هل قدماك باردتان ، يا پوليه ؟ » أو : « يؤلمك رأسك ، يا پوليه ؟ » أو هي توقف المعلِّم : « لا تجعلْه يتكلّم كثيراً ، تُتْعِب له حلقه . »

منذ يتحرّر الصغير ، ينزل يعتني بالحديقة مع أمّه وخالته . كان صار يحبّ استصلاح الأرض . وراح الثلاثة يزرعون أشجاراً فتيّة في الربيع ، يبذرون الحبوب ويتشوَّقون لتفتُّحها ونموِّها، يشذبون الأغصان ، يقطفون الأزهار ليشكّلوا باقات جميلة .

همّه الكبير كان إنتاج بقول السَّلَطة . اهتمّ بمربعات أربعة كبيرة في البستان ، حيث يعتني عناية كبيرة بالخسّ ، والخسّ الروماني ، والهندباء ، والهندباء البريّة ، وكل الأنواع المعروفة من هذه الأوراق التي تؤكل . كان يحرث ، يسقي ، يعزق ، يشتل ، تساعده أمّاه اللتان يجعلهما تشتغلان كما النساء العاملات باليوم . كانوا يرونهما راكعتين ، طوال ساعات كاملة في المساكب ، رافعتين أطراف أثوابهما وأكمامهما ، مهتمَّتين بغرس جذور الشتول في ثقوب تحفرانها ، بإصبع واحد ، عموديًّا في الأرض .

صار پوليه في السادسة عشرة ؛ وأشار « سلّم » البهو إلى المتر والثمانية والخمسين سنتمتراً ، لكنّه بقي طفلاً في الروح ، جاهلاً ، غبياً ، متشبِّثاً بوالدتيه ، وبهذا الشيخ الحبيب الما كان متعلِّقاً بهذه الدنيا .

وأخيراً ، تحدّث البارون ، ذات مساء ، عن المعهد ، وسرعان ما راحت جانّ تبكي . وخافت الخالة ليزون فانزوت في زاوية مظلمة .

أجابت الأم : « ليس بحاجة ليعرف الكثير . نجعل منه رجل مزارع ، ريفيا طيِّباً . يستصلح أراضيه كما يفعل كثير من النبلاء . يحيا ويشيخ ، سعيداً في هذا المنزل ، حيث عشنا قبله ، وحيث سنموت . ماذا نطلب أكثر من هذا ؟ »

أخذ البارون يهزّ برأسه . « بماذا تجيبينه إذا جاءَكِ ، في الخامسة والعشرين ، يقول : « لستُ شيئاً ، ولا أعرف شيئاً بسببك ، بخطأ أنانيّتك الأموميّة . أحسُّني غير قادر على العمل ، غير قادر أن أكون شخصيّة ، ومع ذلك ما كنت للحياة المظلمة ، البسيطة ، والحزينة حتى الموت ، كبّلتني بها عاطفتك عديمة التبصُّر »

طفقت تبكي ، باستمرار ، متوسِّلة ابنها : « قل ، يا پوليه ، لن تلومني ، أبداً ، لأنني أحببتك كثيراً ، أليس كذلك ؟ »

فوجىء الطفل الكبير ، فوعد : « كلا ، يا أمّي »

- أتقسم ؟
- نعم ، يا أمّي .
- هكذا ستبقى ، أليس كذلك ؟
- بلى ، يا أمّي »

حينها ، تحدّث البارون ، قاطعاً ، وبصوت عال : « جانّ ! لا يحقُّ لك التصرُّف بهذه الحياة . ما تفعلينه عقيم وإجراميّ ؛ إنّكِ

تضحّين بابنك لأجل سعادتكِ الشخصيّة »

أخفت وجهها بيديها ، مصعّدة شهقات متسارعة ، ثمّ تمتمت من خلال دموعها : « كنت جدّ تعيسة . . . جدّ تعيسة ! الآن ، إذ أنا مطمئنّة معه ، يبعدونه عنّي . . . ماذا يحلّ بي . . . وحيدة . . . بعده ؟ . . . »

نهض والدها ، جاء وجلس قربها ، أخذها من ذراعيها . « وأنا ، يا جانّ ؟ » غمرته ، فجأة ، وقبّلته بعنف ، ثم ، غاصّة ، لفظت وسط اختلاجاتها : « بلى . الحق معك . . . ربما ، يا أبي . كنت مجنونة ، لكنني تألّمت كثيراً . أريد ، فعلاً ، أن يذهب إلى المعهد ».

وطفق پوليه ، بدوره ، يبكي ، دون أن يدري ما يقرّرون له .

فراحت أمّهاته الثلاث ، تشجّعنه ، تقبّلنه ، تغنّجنه . وحين صعدوا للنوم ، كانوا جميعاً ، منقبضي القلب ، وبكوا في أسرّتهم ، حتى البارون نفسه الكان كبت عاطفته .

وتقرّر أن يرسلوه إلى معهد هافر ، ودلّلوه ، في الصيف ، كما لم يفعلوا من قبل .

كانت أمّه تنتحب مراراً لفكرة الانفصال . حضّرت له جهازه كمالوكان لرحلة عشر سنوات . وفي صباح تشرينيّ ، بعدليلة بدون نوم ، صعدوا ، كلّهم ، في عربة وتوجّهوا ، على خبب الحصانين إلى هافر .

كانوا انتقوا ، في غير رحلة ، مكان نومه ، ومطرحه في الصف .

وراحت جانّ ، تساعدها الخالة ليزون ، ترتّب له أمتعته في خزانته الصغيرة . وبما أنها لم تسع ربع ما جلبوا له ، ذهبت تبحث عن مدير الثانوية لتطلب إليه أخرى . نودي المسؤول ، فرأى أن كثرة البياضات والثياب مزعجة ولن يستعملها ، أبداً . ورفض ، باسم النظام ، أن يعطيها أخرى . حزنت الأم وقرّرت ، حينها ، استئجار غرفة في فندق صغير مجاور ، موصية صاحب الفندق نفسه ، ليحمل إلى پوليه كلّ ما يحتاجه الصبي ، من أول طلب .

ثم طافوا بنزهة على الرصيف ليروا خروج ودخول الزوارق .

هبط الليل الحزين على المدينة البدأت تضيء قليلاً قليلاً . دخلوا يتعشّون في مطعم . أيًّا منهم لم يكن جائعاً . راحوا ينظر بعضهم بعضاً بعيون مبلّلة ، في حين تأتيهم الأطباق وتعود شبه ملأى .

ومشوا ، ببطء ، إلى المعهد . كان أولاد ، من كل القامات ، وكل الجهات ، يتوافدون ، مع عائلاتهم أو مع خدمٍ . كثيرون كانوا يبكون . وسُمع صوت الدموع في الملعب الكبير ، الذي يكاد يكون مضاء .

طويلاً تعانقت جانّ وپوليه . منسيّة ، الخالة ليزون كلياً ، بقيت في الخلق ، ووجهها في محرمتها . لكنّ البارون ، الكان رقّ قلبه ، اختصر الوداع ، وقاد ابنته . كانت العربة تنتظر أمام البوّابة ، صعدوا إليها وعادوا ، ليلاً ، إلى غيضة الحور .

أحياناً كانت تُسمع شهقة كبيرة في العتمة .

في الغد ، بكت جانّ ، حتى المساء . وفي اليوم الذي تلا ،

حضّرت المركبة الخفيفة وانطلقت إلى هافر . بدا پوليه مسروراً للانفصال . لأوّل مرّة ، في حياته ، يكون له رفاق . واللهفة إلى اللعب ، ما كنت تتركه ليهدأ على كرسيّه أثناء لقائه أمّه .

وصارت ، جانّ ، تعود كلّ يومين ، ونهار الأحد لتأخذه نزهة . ثم ، إذ لا يدري ما تفعل أثناء الدرس ، وبين فترات الاستراحة ، تبقى وحيدة في غرفة الاستقبال ، ليس لها القوّة ، ولا الشجاعة للابتعاد عن الثانويّة . طلبها المدير تصعد إليه ، وطلب إليها المجيء أقلّ . لكنها ما أعارت انتباهاً لهذه الوصيّة .

حينئذٍ أخطرها بأنّها إذا استمرّت تؤخّر ابنها عن اللعب أثناء ساعات اللهو ، وعن الدراسة لكونها تُقْلِقُه بدون انقطاع ، فسيرى نفسه مضطراً لردّه إليها ، وأُنذر البارون برسالة قصيرة . فاحتجزوها في غيضة الحور ، كما أسيرة .

وراحت تنتظر كلّ عطلة بقلق يفوق قلق ابنها .

شرّشت كآبة فيها ، راحت تثير روحها . طفقت تطوف المنطقة ، وحيدة تتنزّه ، مع الكلب « مسّاكر » ، خلال أيام كاملة ، حالمة بلا شيء . أحياناً تبقى جالسة طوال بعد الظهر ، ترى البحر من أعلى الشاطىء الصخري . وأحياناً أخرى ، تنزل إلى إيپور عبر الغابة ، مستعيدة نزهات قديمة ، ذكراها تتبعها . كم هو بعيد ، بعيد ، ذلك الزمن الكانت فيه تجتاز هذه الناحية نفسها ، صبيّة ضاجّة بالأحلام .

كل مرّة تعود فترى ابنها ، كان يبدو لهاأنهما انفصلا منذ عشر سنين . كان يكبر شهراً فشهراً ، وهي ، من شهر لشهر ، تشيخ .

صار والدها يبدو كأخيها ، والخالة ليزون ، الما عادت تشيخ ، والباقية على ذبولها منذ الخامسة والعشرين من عمرها ، بدت تظهر كأختها البكر .

ما كان پوليه يدرس ، أبداً ، . أعاد صفّه الرابع . واجتاز الثالث بصعوبة ، إنما وجب أن يعيد الثاني ؛ وفي العشرين من عمره ، وجد نفسه في الصف الأوّل .

كان صار شابًّا كبيراً أشقر ، بوبرذقن كثيف، وشاربين . صار هو يأتي ، الآن ، إلى غيضة الحور كل أحد . وبما أنّه يتعلّم الفروسية ، صار يستأجر ، وحده ، حصاناً ويجتاز الطريق بساعتين .

يتمشّون ، من الصباح ، جانّ أوّلاً معه ، والخالة ليزون والبارون الكان يحدودب رويداً رويداً ويسير كشيخ صغير ، يداه خلف ظهره لئلاّ يقع على أنفه .

كانوا يسيرون ، على مهل ، على امتداد الطريق ، جالسين مرّات فوق الحفرة ، وناظرين إلى البعيد حتى اختفاء الفارس . حين ظهوره كنقطة سوداء في الأفق ، يلوّح أقرباؤه الثلاثة بمحارمهم ، ويجعل حصانه يثب ليصل باندفاع ، مما يجعل قلب جانّ وليزون يرتعش ، وجدّه ينتشي ويهتف « براڤو » بحماس الحاجز .

وبالرغم من أن پول صار أكثر طولاً من أمّه ، كانت ما تزال تعامله كما طفل ، وتسأله : « أليست بردانة قدماك ، يا پوليه ؟ » وحين يكون يتنزّه أمام المدخل ، بعد الغداء ، مدخّناً سيكارة ، تفتح النافذة لتهتف له : « لا تخرج حاسر الرأس ، أرجوك ،

تصاب بخبطة ».

وترتجف كآبة حين يخرج ، من جديد ، في الليل ، على حصانه : « لا تسرع ، يا صغيري پوليه ، كن حذراً ، فكّر بأمّك المسكينة التي تهلك إن أصابك شيء ».

وذات سبت صباحاً ، تسلّمت رسالة من پول تخبرها بأنه لن يأتي غداً ، أصدقاؤه يقيمون حفلة كان مدعواً إليها .

نكّلت بها الهواجس طوال نهار الأحد ، كما لو يتهدّدها شقاء ما . وإذ ما عادت تستطيع ضبط أعصابها ، ذهبت يوم الخميس إلى هاڤر .

بدا لها متغيّراً ولا تعرف بماذا . بدا لها نشطاً ، يتكلّم بصوت رجولي . وفجأة ، قال لها ، كما لو الأمر طبيعي : « تعرفين ، يا أمّي ، بما أنك أتيت اليوم ، فلن أذهب إلى غيضة الحور ، الأحد المقبل ، لأننا سنحتفل من جديد »

بقيت مبهورة ، مخنوقة ، كما لو كان أعلن ذهابه إلى العالم الجديد ، ثم قالت ، حين استطاعت ، أخيراً ، التحدُّث : « آه ! ما بك ، يا پوليه ؟ قل لي ماذا يجري ؟ » أخذ يضحك ، قبَّلها وقال : « لا شيء ، يا أمّي . أذهب أتسلّى مع أصدقاء . هذا يناسب عمري »

ما وجدت كلمة بها تجيب ، وحين صارت وحدها في العربة ، أخذتها أفكار غريبة . ما عرفته پوليه ، پوليه صغيرها في هاتيك الأيام . لأوّل مرّة ، تنبّهت أنّه كبر ، أنه لم يعد لها ، أنه سيعيش كما يحلو له بدون أن يهتمّ بالشيوخ . بدا لها تبدّل بيوم واحد . ماذا !

كان هو ابنها ، ابنها الصغير المسكين الكان يجعلها تغرس البقول ، صار ، الآن ، الشاب الملتحي ، صاحب الإرادة الثابتة .

وخلال ثلاثة أشهر ، ما كان يأتي لرؤ ية أهله ، إلّا بين وقت وآخر ، يلازمه دائماً ، توق ظاهر للذهاب بأقصى سرعة ، مفتّشاً ، كلّ مساء ، عن ساعة . تخاف ، جانّ ، فيهدّئها البارون ، باستمرار ، مردِّداً : « دعيه يفعل ، عمره عشرون ، هذا الصبي ».

ولكن ، في صباح ما ، وصل رجل متقدّم السنّ ، مهمل الثياب ، وسأل بفرنسية ذات لكنة ألمانية : « سيّدتي الكونتيسّة » . وبعد كثير من التحيّات الرسمية ، سحب ، من جيبه ، محفظة نقود كريهة معلناً : « إنها رسالة قصيرة لك » وقدّم إليها ورقة ملطّخة بالشحم . قرأت ، أعادت القراءة ، تطلّعت إلى اليهودي ، قرأت ، من جديد ، وسألت : « ماذا يعني هذا ؟ »

شرح الرجل المجامل : « سأقول لك . كان ابنك بحاجة إلى قليل من المال ، وبما أنني أعرفك أمًّا طيِّبة ، أقرضته القليل لقضاء حاجته »

ارتجفت : « لكن لماذا لم يطلب مني ؟ » راح اليهوديّ يشرح ، طويلاً ، أنّ الأمر يتعلّق بدين من جراء المقامرة كان يجب أن يُدْفَع قبل ظهر اليوم التالي، وبما أن پول ما كان راشداً بعد ، ما أقرضه أحد فكاد شرفه يلطّخ لولا خدمته الصغيرة .

أرادت جانّ أن تنادي البارون ، لكنها ما استطاعت النهوض لشدّة الانفعال الذي شلّها . أخيراً قالت للمرابي : « لطفاً منك ،

إقرع الجرس »

تأرجح ظانًّا في الأمر حيلة . قال بصوت متلجلج : « إذا كنت أزعجك ، أعود في ما بعد » أشارت برأسها أن لا . فقرع ، وانتظرا ، صامتين ، بمواجهة أحدهما الآخر .

حين وصل البارون ، فهم ، بسرعة ، الوضع . كانت الورقة بألف وخمسمائة فرنك . دفع ألفاً قائلاً للرجل ، مركِّزاً نظره في عينيه : « وخاصة ، لا تعد » شكره الرجل ، حيّى واختفى .

وسريعاً ما ذهب الجدّ والأمّ إلى هافر . وحين وصولهما المعهد ، أُعلما أنّ پول ، منذ شهر ، كان غائباً . كان تلقّى الرئيس رسائل أربعاًموقّعة من جانّ تعلمه فيهاأنّ توعّكاًأصاب تلميذه، وتعده بأخبار جديدة . وكل رسالة كانت مرفقة بتقرير طبيب ، كلّها مزوّرة ، بالطبع . ذُهلا وجمدا مكانهما يتبادلان النظرات .

مكتئباً ، الرئيس ، أخذهما إلى ضابط الشرطة . ناما في فندق .

في الغد ، وجدوه عند خليلة ينفق عليها . أخذاه إلى غيضة الحور ، ولم يتبادلوا أيّة كلمة طوال الطريق . كانت جانّ تبكي ، وجهها في محرمتها . هو ، پول ، راح ينظر إلى الريف ، غير مبالٍ .

بعد ثمانية أيام ، اكتشف أهله أنه مدينٌ بخمسة عشر ألف فرنك . ما كان ظهر ، بعد ، الدائنون . يعرفون أنه ، قريباً ، سيبلغ سنّ الرشد .

ما طُلب إليه أي إيضاح . أرادوا استعادته باللطف . أطعموه مأكولات مختارة ، دلّلوه ، غنّجوه . كان الوقت ربيعاً ،

فاستأجروا له زورقاً في إيبور ، بالرغم من مخاوف جانّ الشديدة ، ليقوم بنزهات ، في البحر ، كما يحلو له .

لكنهم لم يتركوا له حصاناً خوف الرجوع إلى هاڤر .

بدون عمل ، بقي ، سريع الانفعال ، فظ الطبع ، أحياناً .

اغتمّ البارون لعدم متابعته الدروس . وراحت جانّ تسأل ، ما ينبغي أن يفعلوا له ، خائفة لفكرة انفصال ما .

ذات مساء ، لم يعد . عرفوا أنه خرج في نزهة ، مع بحّارين ، في الزورق . مضطربة أمّه ، نزلت ليلاً ، حاسرة الرأس ، إلى إيبور .

كان بعض رجال ، على الشاطىء ، ينتظرون إياب الزورق .

ظهرت نار خفيفة في عرض البحر ، راحت تقترب متارجحة . ما عاد پول ، كان طلب أخذه إلى هارڤر .

بحثت ، طويلاً ، عنه الشرطة ، ولم تجده . واختفت ، كذلك ، الفتاة الكانت أخفته ، في المرة الأولى ، بدون آثار . الأمتعة مباعة وقسطها مدفوع . داخل غرفة پول ، في غيضة الحور ، اكتشفوا رسالتين له من تلك الفتاة البدت مجنونة بحبّه . تتحدّث ، كانت ، عن رحلة إلى إنكلترا ، بعد أن وجدت الدعم اللازم ، كما تقول .

وعاش سكان القصر الثلاثة صامتين ، مغتمّين ، في جحيم هذه العذابات النفسيّة الكئيبة . شعر جانّ الرماديّ ، أبيض ، الآن . راحت تتساءل ، بسذاجة ، لمَ يلاحقها القدر بهذا الشكل .

وصلتها على رسالة من الأب تولبياك : « سيّدتي ، إن يد الله أثقلت عليك . كنتِ رفضتِ تقديم ابنك له . بدوره ، أخذه يرميه في أحضان عاهرة . ألن تفتحي عينيك على هذا الدرس السماويّ ؟ إن رحمة الله لامتناهية . لربما غفر لكِ إن أتيته تائبة . إنني خادمه البسيط ، أفتح لك باب مسكنه حين تطرقين ».

بقيت وقتاً طويلاً ، وهذه الرسالة على ركبتيها . صحيح ربما ، ما يقوله هذا الكاهن . وكل الشكوك الدينيّة ، انصبّت تهشّم ضميرها . أيمكن أن يكون الله منتقماً ، كما البشر ، وحسوداً ؟ ولكن ، إن لم يظهر هكذا ، لن يخافه أحد ، ولن يعبده أحد كذلك . فلكي تعرفه أكثر ، هو ، ولا شكّ ، يتراءى للبشر بعواطفهم ذاتها . وإذ كان شكُّها ضعيفاً ، وهو ، يقود ، إلى الكنيسة ، المترجِّحين والمضطربين ، تراكضت ، ذات ليلة ، خائفة ، إلى بيت الكاهن ، ركعت عند أقدام الأب الضعيف ، واعترفت طالبة الغفران .

أعطاها نصف غفران ، كون الله لا يمكن أن ينزل كلّ نعمه على بيت يسيطر عليه رجل كما البارون ، مؤكّداً لها : « ستشعرين ، قريباً ، بنتائج الحلم الإلهي » .

وبعد يومين ، تماماً ، وصلتها رسالة من ابنها ، فحسبتها ، في هواجسها ، بداية الانفراج الوعدها به الأب .

« أمي ، العزيزة ، لا تكتئبي . أنا في لندن ، بصحة جيدة . لكني بحاجة ماسة إلى المال . لم يبقَ لنا فلس ، وبتنا لا نأكل كلّ يوم . رفيقتي التي أحبّها بكلّ روحي ، أنفقت كلّ ما كان معها لئلا

تهجرني : خمسة آلاف فرنك . وتفهمين أنني ملتزم ، شرفياً ، بأن أردّ لها المبلغ ، أوّل الأمر . تكونين لطيفة لو ترسلين إليّ ، حوالي الخمسة عشر ألف فرنك ، من ميراث أبي ، فأنا سأكون راشداً في وقت قريب . هكذا ، وتنشلينني من ورطة كبرى .

وداعاً ، أمي الحبيبة ، أقبّلك من كلّ قلبي ، وهكذا جدي وخالتي ليزون . أتمنى رؤيتك قريباً »

ولدك

« الفيكونت بول دي لامار »

كتب إليها ! إذن ، هو ، لم ينسها . ما فكّرت أبداً ، بأنه يطلب مالاً . سترسل إليه المال ، ما دام ليس معه . ما يهمّ المال ! كان كتب لها !

وركضت ، باكية ، تحمل هذه الرسالة إلى البارون . نوديت الخالة ليزون ، وأعادوا قراءة هذه الورقة المتحدِّثة عنه ، كلمة كلمة . تفحّصوا كلّ عبارة .

جانّ ، طافرة من اليأس الكلّي ، إلى نوع من سكرة الأمل ، طفقت تدافع عن بول : « سيعود ، سيعود طالما كتب »

كان البارون أكثر هدوءاً ، قال : « لا فرق ، تركنا لأجل هذه المخلوقة . فهو ، إذن ، يحبّها أكثر منا ، لأنه ما تأرجح ».

اخترق قلب جانّ ألم مفاجىء ومخيف واشتعل فيها ، بالسرعة نفسها ، حقد على هذه العشيقة الكانت سرقت إبنها منها . حقد لا يُهَدّأ ، وحشيّ ، حقد أمٍّ غيورة . حتى الآن ، كل فكرها كان مع بول . بالكاد كانت تحسب أن امرأة حقيرة هي سبب

ضلاله . إنما ، فكرة البارون ، ذكّرتها بهذه المنافسة ، أوضحت لها قَدرتها اللامردّ لها ، وأحسّت أنّ صراعاً بدأ عنيفاً بينها وبين هذه المرأة ، وأحسّت بنفسها تفضّل أن تضيّع ابنها من أن تتقاسمه مع المرأة الأخرى .

واضمحلّت كلُّ فرحتها .

أرسلوا الآلاف الخمسة عشر ، ولم يتلقّوا أخباراً ، خلال أشهر خمسة .

ثم حضر رجل أعمال ليسوّي تفاصيل تركة جوليان . جانّ والبارون ، قدّما الحسابات بدون نقاش ، تاركَين حتى ، حقّ الانتفاع العائد إلى الأم . وفي عودته إلى باريس ، قبض پول مئة وعشرين ألف فرنك . بعدها ، كتب رسائلَ أربعاً في ستة شهور ، مخبراً عن أحواله بأسلوب مقتضب ، ومنهياً ، كلَّ رسالة ، بتأكيد عاطفته ببرودة : « إني أعمل ، وجدت مكانة لي في البورصة . آمل أن ألقاكم وأقبّلكم في غيضة الحور ، يا أهلي الأحبّاء » .

ما كان ليذكر شيئاً عن عشيقته . وهذا الصمت ، يعني أكثر مما لو كان تحدّث عنها على امتداد صفحات أربع . تشعر جانّ ، في هذه الرسائل الباردة ، بتلك المرأة المتربِّصة ، القاسية القلب ، وكأنها العدوّة الأبدية للأمهات .

وراح الثلاثة يتناقشون في ما يمكن فعله لإنقاذ پول ، وما وجدوا حلا . رحلة إلى باريس ؟ ماذا تجدي ؟

قال البارون : « يجب تركه يستهلك شهوته . سيعود إلينا لوحده »

وصارت حياتهم مثيرة للشفقة .

كانت جانّ وليزون تذهبان ، خفية عن البارون ، إلى الكنيسة .

انقضى زمن طويل دون أخبار ، وذات صباح ، أرعبتهم رسالة يائسة :

« أمّي المسكينة ، تحطّمتُ ، لم يبقَ لي إلاّ أن أطلق رصاصة في رأسي ، ولن تأتي إلى مساعدتي : فشلت مضاربة حسبت فيها كلّ الحظوظ للنجاح ، وها أنا مدين بخمسة وثمانين ألف فرنك . إن لم أدفع ، فالعار ، الدمار ، استحالة أي عمل من جديد . تدمّرت . أكرّر لك القول ، سأطلق رصاصة في رأسي ، ولا أحيا في هذه الفضيحة . ولولا تشجيع امرأة لا أحدّثك عنها ، وهي قدري ، لربما كنت فعلتها وانتحرت .

أقبّلك من عمق قلبي ، يا أمي الحبيبة . الوداع ، ربما إلى الأبد .

پول

وإلى هذه الرسالة ، كانت رزمة أوراق أعمال تشرح ، بالتفصيل ، أخبار الكارثة .

أجاب البارون منبِّهاً . ثم ذهب إلى هافر ليستعلم ؛ ورهن أراضي ليحصل على المال الذي أرسل إلى پول .

أجاب الشاب برسائل شكر ، ثلاث ، حماسيّة ، فيها حنان ملتاع ، معلناً عودته الفوريّة ليقبِّل أهله الأحبّاء .

لم يجيء .

وانقضت سنة ، بكاملها .

كادت جانّ والبارون يذهبان إلى باريس ليجداه ، محاولَين محاولة أخيرة ، حين علما ، بكلمة ، أنه ، من جديد ، في لندن معدًّا لمشروع مراكب بخاريّة باسم « پول دي لامار وشركاه » . كان كتب : « إنها الثروة الأكيدة بالنسبة لي ، ربما الغنى . ولا أغامر بشيء . من هنا ، ترون كلّ الحسنات . حين أعود فأراكم ، تكون لي مكانة مرموقة بين الناس . ليس إلّا الأعمال ، تنقذنا ، اليوم ، من التخبُّط »

لكن الشركة أفلست، بعدثلاثة أشهر، ولوحق المديرلمخالفات في الحسابات التجارية . أصيبت ، جانّ ، بنوبة عصبيّة ، طالت ساعات ، لزمت ، بعدها ، الفراش .

عاد البارون إلى هاڤر . استخبر ، قابل محامين ، رجال أعمال ، وكلاء دعاوى ، محضّري دعاوى ، فعرف أن عجز شركة دي لامار هو من مئتين وخمسة وثلاثين ألف فرنك ، فرهن ، مجدَّداً ، ماله . أُرهقت غيضة الحوروالمزرعتان بمبلغ ضخم .

وذات مساء ، إذ كان ينهي الاجراءات الأخيرة عند رجل أعمال ، سقط على الأرض ، انتابته سكتة دماغية .

أُعلمت جانّ ، لكنّها ، حين وصلت ، كان مات .

أخذته إلى غيضة الحور ، مرهقة ، وألمها أقرب إلى الذهول منه إلى اليأس .

رفض الأب تولبياك جنازة الرجل في الكنيسة ، بالرغم من توسُّلات المرأتين . دُفن البارون ، ليلاً ، بلا رسميات .

عرف پول بالحدث من أحد عملاء تصفية تفليسته . كان ما يزال متخفياً في إنكلترا . كتب يعتذر لعدم مجيئه . عرف ، مؤخّراً ، بالمصيبة . « الآن ، بعدما أنقذتني من ورطتي ، يا أمّي الحبيبة ، أعود إلى فرنسا ، وقريباً سأقبّلك ».

وعاشت ، جانّ ، في انهيار ذهني ، وبدت لا تفهم شيئاً .

وفي أواخر الشتاء ، بلغت الخالة ليزون الثامنة والستين ، وأصيبت بالتهاب في القصبات الهوائية ، تحوّل نزلة صدريّة ، فماتت ، على مهل ، وهي تتمتم : « يا للصغيرة المسكينة ، جانّ ، سوف أطلب إلى الله أن يرأف بك ، ».

تبعتها جانّ إلى المقبرة ، رأت ينهال التراب على التابوت ، وإذ هي تنهار مع رغبة بالموت أيضاً ، كي لا تتألّم بعد ، ولا تفكّر ، أخذتها قرويّة قويّة بذراعيها ، وحملتها كما لو كانت تحمل ولداً صغيراً .

في العودة إلى القصر ، وبعد أن قضت جانّ ، قرب العانس ، ليالي خمساً ، تركت الرفيقة المجهولة ، تضعها في السرير ، بدون مقاومة . كانت تديرها بعذوبة وسلطة . واستغرقت في نوم عميق ، مثقلة بالتعب والألم .

استيقظت حوالى منتصف الليل . كان ضوء خافت قائماً على المدفأة ، وامرأة تنام في كرسي واسع . مَن كانت ، هذه المرأة ؟ ما استطاعت أن تعرفها ، وراحت تبحث ، منحنية حتى طرف الفراش ، لتميّز ، بوضوح ، معالم وجهها في ضوء الفتيلة المرتجفعلى الزيت في كأس خاصة .

مع ذلك ، يبدو لها انها رأت هذا الوجه . لكن متى ؟ أين ؟ تنام المرأة بهدوء ، رأسها محنيٌ على كتفيها ، قبّعتها على الأرض ، تبدو في الأربعين أو الخامسة والأربعين . قويّة ، نضرة ، مربّعة ، قادرة . يداها الواسعتان تتدلّيان من جانبي المقعد . شعرها وخطه الشيب . بعناد ، راحت جانّ تنظر إليها في قلق ذهني ، يُعْرَف بعد نوم محموم يلي الآلام الكبيرة .

متأكدة هي ، أنها رأت هذا الوجه ! هل كان ذلك من زمان ؟ أم حديثاً ؟ ما عرفت ، وبدأ الوسواس يحرّكها ، يثيرها . بهدوء ، قامت ، لتنظر إليها عن قرب ، وتقدّمت على رؤوس أصابع قدميها . إنها المرأة الكانت ساعدتني عند القبر ، ثم اعتنت بي . بغموض ، تذكّرت هذا .

ولكن ، هل كانت التقتها ، في فترة ، من حياتها ، غير هذه ؟ أم هي عرفتها ، فقط ، لكونها رأتها في اليوم الأخير التعيس ؟ ثم ، كيف هي هنا ، في غرفتها ! لماذا ؟

فتحت المرأة عينيها ، رأت جانّ ، فنهضت بسرعة . وُجدتا وجهاً لوجه ، قريبتين حتى يكاد صدرهما يتلاصقان . تذمّرت المجهولة : « كيف ! لماذا أنتِ هنا ؟ يصيبك سوء في مثل هذه الساعة . عودي إلى النوم »

سألت جانّ : « مَن أنتِ ؟ »

لكن المرأة ، فتحت ذراعيها ، أمسكت بها ، حملتها ، من جديد ، وأعادتها إلى سريرها ، بقوّة رجل . وإذ هي تمدّدها ، بلطف ، في فراشها ، محنيّة ، تكاد تكون نائمة فوقها ، راحت

تبكي وهي تقبّلها على الخدّين ، الشّعر ، العينين ، مبلّلة لها وجهها بدموعها ، هامسة . « سيّدتي المسكينة ، جانّ ، سيّدتي المسكينة ، ما عرفتِني ، إذن ؟ »

فهتفت ، جانّ : « روزالي ، ابنتي » وطوّقت عنقها ضمّتها وقبّلتها . وراحتا تشهقان ، كلتاهما ، متضامّتين ، مازجتين دموعهما ، لا تستطيعان فكّ أذرعهما .

هدأت روزالي أوّلاً : « هيّا ، يجب التعقّل ، قالت ، لئلا نصاب بالبرد ». ولمت الأغطية ، سوّت السرير ، أعادت المخدّة تحت رأس سيّدتها القديمة الكانت تتابع الشهيق ، مهتزّة لذكريات قديمة استفاقت في بالها .

استطاعت ، أخيراً ، أن تسأل : « كيف عدت ، يا ابنتي المسكينة ؟ »

أجابت روزالي : « بالتأكيد . وهل كنت لأتركك هكذا ، وحدك ، الآن ! » .

أكملت جانّ : « أضيئي الشمعة ، إذن ، لأراكِ » وحين قرّبت الضوء ، نظرتا إلى بعضهما البعض طويلاً ، وبصمت . ثم ، مادّة ، جانّ ، يدها إلى خادمتها القديمة ، همست : « ما كنت ، أبداً ، عرفتك ، يا ابنتي ، تغيّرت كثيراً ، إنما ليس بقدر ما تغيّرت أنا »

تأمّلت روزالي هذه المرأة البيضاء الشّعر ، الضعيفة والذاوية ، الكانت تركتها صبيّة ، جميلة ونديّة ، وأجابت : « صحيح أنك تغيّرت ، سيّدتي ، وأكثر ممّا يُتَوَقَّع . ولكن فكّري

بأننا ، منذ أربع وعشرين سنة ، لم نتقابل »

صمتتا ، مفكّرتين من جديد . أخيراً ، سألت جانّ : « أسعيدة أنت ، على الأقل ؟ ».

خافت روزالي من أن توقظ ذكرى مؤلمة ، تلعثمت وهي تقول : « إنما . . . نعم . . . نعم . . . سيّدتي . ليس عندي الكثير أشكو منه ، كنت أكثر سعادة منك . . . شيء واحد كان يعذّب قلبي ، كوني لم أبقَ هنا . . . » بغتة ، سكتت ، إذ رأت نفسها ذكرت هذا ، دون انتباهٍ منها . لكنّ جانّ أردفت بعذوبة : « ماذا تريدين ، يا ابنتي ، لا نحقّق ، دوماً ، ما نريده . ترمّلتِ أنتِ أيضاً ، أليس كذلك ؟ » ثمّ قلقٌ داهمها ، أرجف صوتها السائل : « أعندك . . . أعندك أطفال سواه ؟».

ـ كلّا سيّدتي .

ـ وهو ، ابنك . . . ماذا صار ؟ أأنتِ سعيدة به ؟

ـ نعم ، سيّدتي ، هو شابّ نشيط يعمل بحماس . تزوّج لستة أشهر خلت ، أخذ ، الآن ، مزرعتي ، طالما عدت أنا إليك » .

ارتعشت جانّ ، منفعلة ، سألت : « إذن ، لن تغادريني أبداً ، يا ابنتي ؟ »

بسرعة أجابت روزالي : « طبعاً ، سيّدتي ، تصرّفت أنا ، على هذا الأساس »

وصمتتا لبعض وقت .

وبالرغم منها ، راحت جانّ تقارن بينهما ، بدون غصّة في القلب ، مستسلمة ، الآن ، لظلم القدر . قالت : « كيف كان

زوجك ـ معك ؟

ـ آه ! كان رجلاً طيِّباً ، سيِّدتي ، وليس تنبلاً ، عرف كيف يجني ثروة . مات بمرض الرئتين »

استوت جانّ ، في سريرها ، سكنها حبّ الاستطلاع : « هيّا ، أخبريني ، يا ابنتي ، كل حياتك . ينعشني ، هذا اليوم »

قرّبت روزالي كرسياً ، جلست ، راحت تحدِّث عنها ، عن بيتها ، عن عالمها ، ذاكرة التفاصيل الدقيقةالعزيزة على قلوب أهل الريف ، واصفة حياتها ، ضاحكة ، أحياناً ، من أمور قديمة ذكّرتها لحظات سعيدة ماضية ، رافعة صوتها شيئاً فشيئاً كربّة مزرعة معتادة على إصدار الأوامر . وانتهت ، أخيراً ، إلى القول : « آه ! لي مكان تحت الشمس ، الآن . لا أخشى شيئاً » ثم اضطربت وتابعت بصوت خفيض : « هذا بفضلك أنتِ ، سيّدتي . وتعرفين ، طبعاً ، أنني لا أريد شيئاً منك . لا ! لا ! وإذا كنتِ لا تريدين ، أرحل »

قالت جانّ : «مع هذا يجب ألاّ تقدّمي خدماتك مجاناً » .

ـ لا ، سيّدتي . مالاً ! تعطينني مالاً ! إنما معي ، تقريباً ، ما يوازي ثروتك أتعرفين ما يبقى لك بعد كل خربشات رهوناتك وقروضك والفوائد غير المدفوعة والتي تتزايد ، باستمرار ؟ أتعرفين ؟ لا ، أليس كذلك ؟ لم يبقَ لكِ أكثر من عشرة آلاف فرنك كدخل . أقلّ من عشرة آلاف ، أتسمعين ؟ لكنني سأسوّي كلّ هذا ، وبسرعة »

راحت تتحدّث بصوت مرتفع ، مندفعة ، غاضبة بسبب

هذه الفوائد المهملة ، وهذا الانهيار المحتَّم . وإذ لحظت بسمة خفيفة في وجه سيّدتها ، صرخت ثائرة : « يجب ألاّ تضحكي ، سيّدتي ، بدون مال تصبحين قرويّة بسيطة ».

أخذت ، جانّ ، يدي روزالي ، مجدَّداً ، وقالت ، متمهِّلة ، مسكونة بفكرة تتملَّكها : « آه ! لا حظّ لي أنا . كل أمر كان سيئاً لي . كأن القدر المشؤوم استبسل ضدّي طوال حياتي »

لكن روزالي رفعت رأسها أن لا ، قائلة : « يجب ألاّ تقولي هذا ، سيّدتي ، يجب ألاّ تقولي هذا . ما عرفتِ ، أنتِ ، كيف تتزوّجين ، هذا كلّ ما في الأمر . يجب ألاّ يتزوّج أحد كيفما كان ، قبل أن يعرف ، تماماً ، شريكه الآخر ، في الأقلّ »

وراحتا تتحدّثان عن نفسيهما ، كما لو كانتا صديقتين من زمان .

وكانت أشرقت الشمس ، حين كانتا ما تزالان تتحدّثان .

XII

تسلّمت روزالي ، بثمانية أيام ، زمام الأمر في كلّ ما يتعلّق بأعمال القصر وسكانه . مستسلمةً، جـانّ ، أطاعت بـدون اعتراض . مستندة إلى ذراع خادمتها ، تخرج تتنزّه بخطى بطيئة ، ضعيفة ، تجرّ رجليها جرا ، كما ، من زمانٍ ، أمُّها . تبكّتها روزالي ، تقوّي عزمها بكلمات سريعة وحنونة ، تعاملها كما طفل مريض .

تتحدّثان ، دائماً ، عن الماضي . جانّ غاصّة ، روزالي بنبرة هادئة كما القرويّات هادئات الأعصاب . غالباً ما تتحدّث الخادمة عن قضايا الفوائد بألم ؛ ثم أصرّت على استلام أوراق ، كانت جانّ تخفيها لئلا يلحق العار بابنها ، وهي تجهل كلّ أمر .

حينئذٍ ، وخلال أسبوع ، كانت روزالي تقوم ، كلّ يوم ، برحلة إلى فيكام لتستعلم من كاتب عدل كانت تعرفه .

وذات مساء ، بعد أن وضعت سيّدتها في السرير ، جلست بجانبها ، وفجأة : « الآن ، إذ استلقيت في الفراش ، سيّدتي ، يجب أن نتحدّث » .

وشرحت الوضع .

عندما يتسوّى كلّ شيء ، سيبقى الدخل حوالى سبعة إلى

ثمانية آلاف فرنك . لا أكثر .

أجابت جانّ : « ماذا تريدين ، يا ابنتي ؟ أحسّ تماماً أنني لن أجوع . يبقى لي ما يكفيني »

لكنّ روزالي غضبت : « بالنسبة إليك ، سيّدتي ، الأمر ممكن . إنما ألا تتركين شيئاً للسيّد پول ؟ »

ارتجفت جانّ : « أرجوكِ ، لا تحدّثيني ، بعد ، عنه . أتألّم كثيراً عندما أفكّر فيه .

ـ بالعكس ، يجب أن أحدّثك عنه ، لأنك لست قديرة ، سيّدة جانّ . يقوم بحماقات ، لن يبقى عليها . ثم سيتزوّج ، ويرزق أطفالاً . يلزمه مال لتربيتهم . اسمعيني جيّداً : ستبيعين غيضة الحور ! . . . »

بقفزة ، جلست جانّ في سريرها : « بيع غيضة الحور ! معقول ؟ آه ! أبداً ! »

لكنّ روزالي لم تضطرب : « أقول لك ستبيعينها ، لأنه يجب ذلك »

وعرضت حساباتها ، مشاريعها ، براهينها .

بعد بيع غيضة الحور والمزرعتين الملاصقتين ، تبقى مزارع أربع في سان ليونارد ، تغلّ ، بعد فكّ رهنها ، ثمانية آلاف وثلاثمائة فرنك . يمكن ادّخار ألف وثلاثمائة فرنك ، سنويًّا ، للتصليحات والتحصينات ، تبقى سبعة آلاف ، منها خمسة آلاف لمصاريف السنة . هكذا يُحْتَفَظ بألفين في صندوق الادّخار .

أضافت : « كل ما عدا ذلك انتهى . وأنا من يحتفظ

بالمفتاح . وبالنسبة إلى السيّد پول ، لن يكون له شيء ، أبداً ، لا شيء . كان يسلبك حتى آخر فلس »

همست ، جانّ ، الباكية بصمت :

« وإذا لم يبقَ له ما يأكل ؟ »

ـ يأتي يأكل عندنا ، إذا جاع . سيجد ، دوماً ، سريراً وأطعمة . أتظنّين أنه كان قام بكلّ تلك الحماقات ، لو لم تكوني أعطيته أيّ فلس ، منذ البداية ؟

ـ لكنه كان مديوناً ، كان وقع في العار .

ـ حين لا يبقى لك شيء ، أيمتنع عن ذلك ؟ دفعت ، وهذا جيِّد ؛ إنّما لن تدفعي ، بعد ؛ أنا أقول لك هذا . والآن ، طبت مساء ، سيّدتي »

وانسحبت .

ما نامت جانّ ، أبداً ، قلقة لفكرة بيع غيضة الحور ، وتركها ، لترك هذا البيت الكائن ، كل حياتها ، متعلِّقة به .

في الصباح ، حين رأت روزالي تدخل غرفتها ، قالت لها :

« يا ابنتي ، لا أستطيع أن أبتعد عن هذا المكان »

لكن الخادمة غضبت : « مع هذا ، يجب أن يتم ما قلته لك ، سيّدتي . سيصل كاتب العدل مع الراغب بالقصر . بدون هذا ، لن يبقى لك فجلة ، بعد أربع سنوات »

منهارة ، جانّ ، طفقت تردّد : « لا أستطيع ؛ لا أستطيع ، أبداً »

بعد ساعة ، وصل ساعي البريد برسالة من پول يطلب

فيها ، بعد ، عشرة آلاف فرنك . ما العمل ؟ مدهـوشة ، استشارت روزالي التي رفعت يديها : « ماذا قلت لك، ياسيّدتي ؟ آخ ! كنتما في وضع سيّىء لو لم أعد ! » وكتبت جانّ ، بإرادة خادمتها ، تجيب پول :

« ولدي الحبيب ، بتّ لا أستطيع شيئاً لأجلك . حطّمتني ، أرى نفسي مضطرّة لبيع غيضة الحور . ولكن لا تنسَ أن لك ملجأ ، حين تريد الاحتماء ، بجانب أمّك الهرمة التي آلمتها كثيراً »

جان

وحين وصل كاتب العدل مع السيّد جيوفران ، وهو مكرِّر سكّر عجوز ، استقبلتهما بنفسها ، ودعتهما إلى زيارة كل مكان ، بتمهّل وإمعان .

وقّعت ، بعد شهر ، عقد البيع ، وفي الوقت عينه ، اشترت بيتاً بورجوازيًّا صغيراً قرب غودرڤيل ، على طريق مونتيڤيليه الواسعة ، في منطقة بتقيل .

ثم قامت بنزهة ، وحيدة ، في « ممرّ أمّها » ، ممزّقة القلب ، كئيبة الروح ، مخاطبة الأفق ، الأشجار ، المقعد المنخور تحت الدلبة ، كل الأشياء التي عرفتهاوالبدت لها مرتسمة في عينيها وفي ذهنها ، الغيضة ، المنحدر أمام الأرض البائرة حيث كانت تجلس أكثر الأحيان ، من حيث رأت الكونت دي فورڤيل يركض صوب البحر ، ذلك اليوم المخيف حين قُتل جوليان ، ومخاطبة ، كذلك ، شجرة الدردار الهرمة الكانت إليها تتكيء أحياناً كثيرة ، والبستان المألوف ، تودّعها كلّها وداعاً يائساً مليئاً بالآهات .

أتت روزالي ، أمسكتها بذراعها ، وأعادتها إلى الداخل .

كان قرويّ ، كبير على الخامسة والعشرين ، عمره ، ينتظر أمام الباب . حيّاها بنبرة ودِّيّة كما لو هو يعرفها من زمان . « مرحبا ، سيِّدة جانّ ، أأنت بخير ؟ طلبت إليّ أمّي أن آتي من أجل عملية الانتقال . أحبّ أن أعرف ما ستنقلين . أقوم ، أنا ، بمثل هذه الأعمال من وقتٍ لآخر كي لا أملّ العمل في الأرض »

كان هذا ابن خادمتها ، ابن جوليان ، شقيق پول .

بدا لها كأن قلبها توقّف . أرادت ، مع ذلك ، لو تقبّل هذا الشاب .

راحت تنظر إليه ، ترى إن كان يشبه زوجها ، إن كان يشبه ابنها . كان أحمر ، قويًّا ، ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين كأمّه . ويشبه ، مع ذلك ، جوليان . كيف ؟ في أيّ شيء ؟ ما كانت تعرف ، لكنه يحمل بعض ملامح منه .

قال ، من جديد : « لو تقدرين أن تُريني ما تنقلين ، العمل يضطرّني إلى هذا »

لكنّها ، ما كانت عرفت ، بعد ، ما تأخذ معها ، لكون بيتها الجديد صغيرًا جدًّا . وطلبت إليه العودة بعد أسبوع .

تبديل المنزل شغلها ، أدخل تسلية حزينة ، على حياتها الكئيبة والرتيبة .

تنتقل من غرفة إلى غرفة ، باحثة عن الأثاث الكان يذكّرها أحداثاً ، هذا الأثاث الصديق اليؤلف قسماً من حياتنا ، من كياننا ، أكاد أقول ، نعرفه منذ شبابنا ، وبه تتعلّق ذكريات لنا ، سعيدة أو

حزينة ، تواريخ من حياتنا ؛ أثاث كان رفيقنا الأخرس في أوقاتنا المضيئة والمظلمة ، وهو شاخ ، مثلنا ، واستُعمل ، وتمزّقت بطانته ، وتهتزّ مفاصله ، ولونه امّحى .

كانت تنتقيه ، قطعة قطعة ، متأرجحة أحياناً ، مضطربة كما أمام قراراتها الرئيسية ، عائدة عن خيارها ، موازنة بين قيمة كرسيّين مريحين ، أو بين مكاتب قديمة وطاولة عمل عتيقة .

تفتح الأدراج ، تحاول تذكُّر أحداث معيَّنة . ثم تقرِّر تقول : « بلى ، سآخذ هذا » ، ويأخذون الغرض إلى غرفة الطعام .

أرادت تحتفظ بكلّ أثاث غرفتها ، سريرها ، زخارفها ، ساعتها الدقّاقة ، كلّ شيء .

أخذت بعض مقاعد من الصالون ، هذه الكانت أحبَّت رسومها منذ هي طفلة صغيرة ؛ الثعلب واللقلق ، الثعلب والغراب ، الصرصور والنملة ، المالك الحزين التعيس .

وذات يوم ، إذ هي تطوّف في كلّ زوايا المنزل الكانت ستتركه ، صعدت إلى غرفة المؤن .

لبثت مأخوذة من عجب . رأت ركاماً لأغراض من كل نوع ، بعضها مكسور ، بعضها متّسخ ، بعضها وضعوه هنا ولا تعرف لماذا ، ربما لأنها ما عادت تعجبهم ، أو لأنها كانت استُبدلت . رأت الف تحفة كانت تعرفها ، ثم اختفت فجأة دون أن تنتبه لذلك ، أشياء لا قيمة لها ، قلّبتها ، أشياء قديمة صغيرة لا معنى لها كانت بقيت بجانبها خمسة عشر عاماً ، كانت رأتها كلّ يوم بدون أن تلاحظها ، وها هي ، الآن ، تجدها ، فجأة ، في هذه الغرفة إلى

جانب أخرى أقدم منها ، تذكّرت ، بوضوح ، أماكنها في الأيام الأولى لمجيئها ، وأخذت أهمية كشواهد منسيّة ، كأصدقاء وُجَدوا من جديد . ذكّرتها بأشخاص عاشوا ، معاً ، طويلاً ، بدون أن يكونوا تكاشفوا ، وفجأة ، في مساءٍ ، وحول لا شيء ، ابتدأوا يتحدّثون بلا نهاية ، ويبوحون بكلّ جوانب نفسيّاتهم الما كانت تخطر في بال .

طفقت تنتقل من غرض إلى آخر ، راعشة القلب ، قائلة في ذاتها : « هه . هذه أنا ، من صدع هذه الآنية الصينية ، ذات مساء ، قبل أيام من زواجي . ـ آه ! هذا هو فانوس أمّي الصغير ، وهذه هي العصا الكسرها أبي وهو يحاول فتح السور الكان خشبه انتفخ بفعل المطر .

كانت أيضاً أشياء كثيرة لا تعرفها ، ولا تذكّرها بشيء ، أتت من جدودها ، أو من جدود جدودها ، من هذه الأشياء المغبرّة والتي تبدو منفيّة من زمن غير زمانها ، وتبدو حزينة لإهمالها ، ولا أحد يعرف قصتها ، أخبارها ، ولا أحد رأى من كان انتقاها ، واشتراها ، وأحبّها ، لا أحد عرف الأيدي التي أدارتها بطريقة أليفة ، ولا العيون الكانت تنظر إليها بلذّة .

جعلت جانّ تتلمّسها ، أدارتها نحوها ، بانت أصابعها في الغبار المتراكم ؛ ولبثت ، هنا ، وسط هذا الأثاث القديم ، في الضوء الشاحب العابر عبر بعض مربّعات الزجاج المرصّع .

راحت تتفحّص ، بدقّة ، كراسي بأرجل ثلاث ، متسائلة إن كانت هي لا تذكّرها بشيء ، مدفئة فراش نحاسيّة ، مدفئة

قدمين منقوبة ظنّت نفسها تعرفها ، وكدسات من أثاث باتت غير مستعملة .

ثم أفردت ما تريد أخذه ، وحين نزلت ، أرسلت روزالي لحمله . سخطت الخادمة ورفضت إنزال هذه « التفاهات » . لكنّ جانّ ، الكائنت أضحت بلا إرادة ، تصلّبت هذه المرّة ، فأطاعت روزالي .

حضر ، صباحاً ، المزارع الشاب ، ابن جوليان ، دني لوكوك ، مع عربته لرحلة أولى . رافقته روزالي كي تهتم بترتيب الأثاث .

وإذا بقيت وحدها ، راحت جانّ تطوّف في غرف القصر ، مصابة بنوبة يأس مخيفة ، مقبِّلة ، في انطلاقات حبّ حماسي ، كل ما كانت لا تستطيع أخذه معها ، العصافير البيضاء الكبيرة التي لزخارف الصالون ، الشمعدانات القديمة ، كل ما كانت تلتقيه . تنتقل من غرفة إلى أخرى ، كأنّ بها مسًّا ، عيناها تسيلان دماً ، ثم خرجت لتودّع البحر .

كان الوقت حوالى آخر أيلول . بدت السماء المتلبّدة تثقل على الكون ، كانت الأمواج الحزينةالمصغّرة تمتدّ إلى آخر النظر . بقيت ، طويلاً ، واقفة على الشاطىء الصخري ، في رأسها تدور أفكار مؤلمة . وإذ هبط الليل ، عادت ، وتأمّلت ، هذا اليوم ، أكثر مما في أحزانها الكبرى .

روزالي كانت عادت وانتظرتها ، مفتونة بالبيت الجديد ، معلنة أنه أجمل ، بكثير ، من هذا البيت ـ الصندوق ـ الكبير .

وبكت جانّ طوال الليل .

مذ عرف المزارعون أنّ القصر بيع ، ما كان لهم ، تجاهها ، إلاّ ، تماماً ، المراعاة اللازمة لها ، ناعتينها ، في ما بينهم ، بالمجنونة ، دون أن يعرفوا لماذا ، بدون شكّ لأنهم حزروا بفطرتهم البدائيّة ، عاطفيّتها المرضية والمتصاعدة ، أحلامها المتطرّفة ، كل فوضى ذهنها البسيط المرصودة على الألم .

ليلة رحيلها ، دخلت ، صدفة ، الإصطبل . تذمُّر جعلها ترتجف . كان « مسّاكر » الما عادت تذكّرته منذ شهور . أعمى ومقعد إذ وصل إلى عمر لا تصل إليه هذه الحيوانات ، وكان ما يزال يعيش على سرير من تبن ، تعتني به لوديڤين الما كانت تنساه . أخذته في ذراعيها ، قبّلته وحملته إلى البيت . ضخم كبرميل ، كان بالكاد يجرّ نفسه ، بقوامه الأربع البعيدة عن بعضها واليابسة ، وينبح كما كلب خشبي للأولاد .

أخيراً ، طلع الصباح الأخير . كانت جانّ نامت في غرفة جوليان القديمة ، غرفتها كانت صارت بلا أثاث .

نهضت من سريرها ، منهكة لاهثة ، كما لو انها قامت بسباق طويل . كانت الحقائب في العربة ، وما تبقّى من أثاث في الساحة . عربة أخرى ، بدولابَين ، كانت مقطورة ، لتقلّ السيّدة والخادمة .

كان سيبقى سيمون ولوديڤين وحيدَين حتى مجيء المالك الجديد ، ثم ينسحبان عند أقرباء لهما ، إذ كانت جانّ أحضرت لكلّ منهما ثروة بسيطة . وكانا جمعا غير هذه . هما ، الآن ، خادمان عتيقان جدًّا ، غير نافعَين وثرثارَين . ماريوس كان اتّخذ له امرأة ،

وغادر من زمان .

ابتدأ المطر حوالى الثامنة . مطر خفيف بارد يقذفه هواء البحر . فوجب مدّ الأغطية فوق العربة . وراحت الأوراق تتطاير من الأشجار .

على طاولة المطبخ ، كانت آنية مملوءة قهوة بحليب ، يتصاعد منها البخار . جلست جانّ أمام إنائها وشربته بجرعات صغيرة ، ثم ، إذ نهضت ، قالت : « هيّا بنا ! »

اعتمرت قبّعتها ، وضعت شالها ، وإذ كانت روزالي تنعلها ، لفظت ، بحلق يغصّ : « أتذكرين ، يا ابنتي » كم كانت تمطر حين انطلقنا من روّان لنأتي هنا . . . »

انقبضت ، حملت يديها إلى صدرها ، ووقعت على ظهرها ، فاقدة الوعي .

لبثت أكثر من ساعة وكأنها ميتة . فتحت عينيها ثانية ، أصابتها اختلاجات مصحوبة بفيضان من الدموع .

حين سكنت قليلاً ، أحسّت بنفسها ضعيفة إلى حدّ لا تستطيع معه النهوض . لكنّ روزالي الكانت تخشى نوبات أخرى فيما لو تأخّر الانتقال ، أتت بابنها . أمسكا بها ، أنهضاها ، حملاها ، وضعاها في العربة ، على المقعد الخشبي من جلد مصقول . وصعدت الخادمة إلى جانب جانّ ، لفّت لها رجليها ، غطّت لها كتفيها بمعطف ضخم ، ثم ، آخذة شمسيّة مفتوحة فوق رأسها ، هتفت : « أسرع ، يا دني ، لنذهب من هنا »

صعد الشابّ حدّ أمّه ، جلس بنصفه ، لضيق المكان ،

أطلق حصانه بسرعة مرتجّة جعلت المرأتين تقفزان مكانهما .

حين داروا في زاوية القرية ، لاحظوا شخصاً يتمشّى طولاً وعرضاً ، إنه الأب تولبياك ، كأنه يراقب هذا الرحيل .

توقّف يُفسح مجالاً لمرور العربة ، آخذاً ، بيده ، عباءته ، يرفعها خوف مياه الطريق ، ساقاه الضعيفتان ، المرتديتان جوارب سوداء ، كانتا تنتهيان بحذاء ضخم ملطّخٍ وَحْلاً .

خفضت جانّ عينيها لئلا تلتقيا عينيه . أمّا روزالي ، الما كانت تجهل شيئاً ، فحنقت . وتمتمت : « قليل الأدب ، قليل الأدب ! » ثم ، آخذة بيد ابنها ، « إصفعه سوطاً ».

لكنّ الشابّ ، وهو يجاوز الكاهن ، أنزل دولاب عربته المسرعة بأخدود ، فطرطشه من رأسه حتى أخمص قدميه .

استدارت روزالي صوبه ، فرحة ، رافعة بوجهه قبضة يدها ، في حين راح الكاهن ينظّف نفسه بمنديله الكبير .

وبعد مسير دقائق خمس ، صرخت جانّ ، فجأة : « نسينا مسّاكر » .

توقّفوا ، نزل دني وعاد ليأتي بالكلب ، بينما أمسكت روزالي بالزمام .

بعد قليل ، ظهر الشاب حاملاً بين ذراعيه الكلب الضخم بشكله البشع والمجرّد من الشعر ، ووضعه أرضاً بين المرأتين .

XIII

توقّفت العربة ، بعد ساعتين ، أمام بيت قرميديّ صغير مبني وسط بستان مزروع تفّاحاً عليه فطر مؤذ ، حدّ الطريق الرئيسية .

في كلّ زاوية من الأربع ، عرزال عريش تلفّه نباتات دائمة الخضرة ، في هذا البستان المقسّم إلى مربّعات صغيرة فيها خضار ، تفصلها عن بعضها البعض ممرّات ضيّقة على جانبيها أشجار مثمرة .

يحيط بهذه الملكيّة ، من كلّ صوب ، حاجز عال ، وبينها وبين المزرعة المجاورة حقل . يتقدّمها ، بمئة متر على الطريق ، كور حدادة . سوى ذلك من الأماكن الآهلة كان أقربها على كيلومتر .

يمتدّ المنظر حواليها على سهل بلاد الكو ، المزروع كلّه مزارع تلفّها صفوف أربعة من شجر كبير تضمّ حديقة التفّاح .

أرادت جانّ ، الواصلة حديثاً ، أن ترتاح . لكن روزالي ما تركتها تفعل ، تخشى عليها العودة إلى الأحلام .

كان نجّار غوردقيل هنا ، أتى للتصليحات . وبسرعة ابتدأوا بنقل الأثاث ، في انتظار العربة الأخيرة الكانت ستصل قريباً .

كان عملاً مهماً يتطلّب تفكيراً طويلاً ومنطقا .

خلال ساعة ، بدت العربة عند السور ، ووجب أن

يفرغوها تحت المطر .

البيت في فوضى تامّة ، حين هبط الظلام ، مليئاً بأغراض مكدّسة كيفما اتفق . ونامت جانّ مذ صارت في السرير . كانت جدّ متعبة .

في الأيّام التالية ، ما وجدت وقتاً للتذكّر . كانت كثيرة الأعمال . اهتمّت بجعل بيتها الجديد جميلاً ، وتعيش فيها ، باستمرار ، فكرة عودة ابنها إليها . زخارف غرفتها القديمة ، وضعتها في غرفة الطعام ، الكائنت ، في الوقت نفسه ، صالوناً . ورتّبت ، بعناية فريدة ، غرفة من الاثنتين في الطابق الأول ، وسمّتها ، بينها وبين ذاتها ، « مقرّ پوليه » .

احتفظت لنفسها بالثانية ، أمّا روزالي فسكنت فوق ، بجانب غرفة المؤن .

كان البيت المرتّب بذوق ، لطيفاً ، وسرَّت جانّ في الفترة الأولى ، بالرغم من أنّ أمرًا كان ينقصها ، ولم تعره اهتماماً كبيراً .

ذات صباح ، حمل إليها موظّف كاتب العدل في فيكام ، ثلاثة آلاف وستمائة فرنك ، ثمن الأثاث المتروك في غيضة الحور ، خمّنه نجّار . شعرت بارتعاشة لذّة ، حين تلقّت هذه الكميّة . ومذ خرج الرجل ، استعجلت اعتمار قبّعتها ، تريد الذهاب إلى غودرڤيل بأسرع وقت ممكن ، لترسل إلى پول هذا المبلغ غير المنتظر .

إنما ، إذ كانت تسرع في الطريق ، التقت روزالي عائدة من السوق . خالج الخادمة شكّ دون التوصّل إلى حقيقة الأمر ، ثم

حين اكتشفته ، إذ ان جانّ ما عادت تعرف تخفي عنها شيئاً ، وضعت سلّتها أرضاً ، ليتسنى لها الغضب على مزاجها .

وصرخت واليدان على خاصرتيها ، أمسكت ، بيدها اليمنى سيّدتها ، وباليسرى سلّتها ، ودائمة الغضب ، جهدت في السير إلى البيت .

فور دخولهما ، أصرّت الخادمة على استلام المبلغ . أعطتها إياه جانّ محتفظة بالستمائة فرنك ، لكنّ حيلتها لم تمرّ ، فأعطتها كلّ شيء .

لكن روزالي وافقت ، مع ذلك ، على إرسال هذه البقيّة إلى يول .

شكر خلال بضعة أيّام . « أسديت إليّ خدمة كبيرة ، يا أمّي الحبيبة ، لأنّنا كنّا في فقر مدقع ».

وما تأقلمت جانّ مع بَتَفْيل ، كان يتراءى لها أنّها لم تعد تتنفّس كما من زمان ، أنها صارت أكثر وحشة ، أكثر إهمالاً ، أكثر ضياعاً . راحت تخرج لتقوم بنزهة ، تذهب حتى ڤرنوي ، تعود عن طريق البحيرات الثلاث ، وفور عودتها ، تنهض من جديد ، تستبدّ بها رغبة في الخروج ثانية ، كما لو انها نسيت الذهاب حيث تريد تماماً ، حيث كانت رغبتها في التنزُّه .

كلّ يوم يتكرّر الأمر نفسه ، دون أن تفهم سبب هذه الحاجة الغريبة . إنما ، ذات مساء ، طرأت في بالها ، لا شعورياً ، عبارة كشفت لها سرّ كآبتها . قالت ، وهي تجلس للعشاء : « آه ! كم أرغب في رؤية البحر ! ».

هو البحر ، ما كان ينقصها كثيراً ، جارها الأكبر منذ خمس وعشرين سنة ، البحر بهوائه المالح ، بثوراته ، بصوته الهادر ، برياحه المزمجرة ، البحر الكانت تراه ، كلّ يوم ، من شبّاكها في غيضة الحور ، الكانت تتنفّسه ليلاً نهاراً ، الكانت تحسُّه قربها ، وتحبُّه كشخص لا ترتاب به .

كذلك « مسّاكر » ، كان يحيا في إثارة دائمة . كان سكن ، منذ مساء وصوله ، في قصر صوان المطبخ ، واستحال تبديل مسكنه . يبقى فيه طوال النهار ، يكاد يكون جامداً ، فقط ، بين فينة رأخرى ، يستدير بتذمُّر .

إنّما ، مع حلول الليل ، ينهض ويجرّ نفسه صوب باب الحديقة مصطدماً بالجدران . وبعد أن يقضي خارجاً دقائقه اللازمة له ، يدخل ، يقعي أمام المدفأة ، وفور ذهاب سيّدتيه إلى النوم ، يروح ينبح .

ينبح ، هكذا ، الليل كلّه ، بصوت شاك مثير للشفقة ، يتوقف لساعة ، أحياناً ، ليعاود بصوت أكثر تمزُّقاً . رُبِط إلى برميل أمام البيت . صار ينبح تحت النوافذ . وإذ عجز وشارف الموت ، أعيد إلى المطبخ .

صار رقاد جانّ مستحيلاً لسماعها الحيوان الهرم ينتحب ويحفر بأظافره بلا انقطاع ، باحثاً عن أن يعرف ذاته في البيت الجديد هذا ، متيقّناً أنه ، ليس بعد ، في مأواه .

ما كان شيء ليهدِّئه . ساكناً ، يبقى ، طوال النهار ، كأنّ عينيه المنطفئتين ، وإحساسه بجموده ، يمنعانه من التحرُّك ، في

حين كلّ الكائنات تحيا وتتحرّك ، فيروح يجول بدون استراحةمنذ هبوط المساء ، كأنه بات لا يجرؤ على الحياةوالتنقّل إلاّ في الظلمات التي تجعل الجميع عمياناً .

ذات صباح ،وُجد ميتاً . فكان موته راحة كبرى .

راح الشتاء يتقدّم ، وجانّ تحسّ بنفسها ، يأساً لا يقاوم . ما كان الأمر آلاماً مبرّحة تمزّق الروح ، لكنّه حزن كئيب جِداديّ .

لا تسلية توقظها . لا يهتمّ بها أحد . الطريق الكبرى أمام بيتها ، تمتدّ يميناً وشمالاً بشبه فراغ . ومن وقت لآخر ، تمرّ تلبرية [1] ، يقودها رجل ذو وجه أحمر ، قميصه المنتفخة في الهواء ، تبدو كطابة زرقاء ، أوتكون ، أحياناً ، عربة بطيئة ، أويُلْمَح ، في البعيد ، قرويّان ، رجل وامرأة ، صغيران في الأفق ، يكبران ، وإذ يتجاوزان البيت ، يعودان صغيرين ، كبيرين كحشرتين ، في آخر الخط الأبيض الممتدّ حتى ضياع النظر ، مصعّدة أو منحدرة ، حسب تموّجات الأرض الطريّة .

وحين ابتدأ العشب ينبت ، صارت تمرّ ، كل صباح ، أمام السور ، بنت صغيرة ترتدي تنّورة قصيرة ، تقود بقرتين ضعيفتين ترعيان على امتداد الطريق . في المساء تعود ، بالمظهر الهادىء نفسه ، خطوة كلّ عشر دقائق خلف بقرتيها .

كلّ ليلة ، تحلم جانّ ، أنها ما تزال تسكن غيضة الحور . تجد نفسها ، هناك ، كما من زمان ، مع أبيها وأمّها ، وحتى

---

١ - عربة خفيفة بدولابين أخذت اسم صانعها .

أحياناً مع الخالة ليزون . تستعيد أشياء منسية ومنتهية ، تتصوّر نفسها تعين السيّدة أدلائيد متنزّهة في ممرّها ، وحين تستفيق من كلّ حلم ، تروح تبكي .

تفكّر دائماً في پول ، متسائلة : « ماذا يعمل ؟ كيف هو ، الآن ؟ أيفكّر بي ؟ » وهي تتمشّى ، على مهل ، في الطريق المحفّر ، تدور في رأسها كلّ هذه الأفكار ، تعذّبها . لكنها تتألّم ، بخاصة ، بحقد لا محدود ضدّ هذه المرأة المجهولة الكائنة أغوت ابنها . وحده ، هذا الكره ، كان يمسكها ، يمنعها عن العمل ، عن البحث عنه والدخول عليه . يتراءى لها أنها ترى عشيقته واقفة بالباب تسأل : « ماذا تريدين ، هنا ، سيّدتي ؟ » كرامتها ، كأمّ ، تنتفض لإمكانية هذا اللقاء . وكِبَر امرأة دائمة الطهارة ، دون خور أو شائبة ، يجعلها تغضب أكثر فأكثر ، ضدّ انحطاط الانسان المستعبَد لهذه الوساخات في الحبّ الجنسي الذي يجعل ، القلوب نفسها ، منحطّة سافلة . وتبدو لها البشريّة نجسة ، حين تفكّر في كلّ أسرار الحواس القذرة ، وفي المداعبات المذلّة ، في كلّ خفايا الزواج اللاافكاك منه .

وانقضى الربيع ، والصيف أيضاً .

إنّما ، مع حلول الخريف والأمطار المتواصلة ، والسماء الرماديّة ، والغيوم المتلبّدة ، غمرها ملل ، أو تقزّز من العيش هكذا ، فقرّرت ، بجهد كبير ، أن تحاول استعادة پوليه .

يكون استنفد عواطفه الآن ، وشهوته .

فكتبت إليه رسالة حزينة .

« ولدي الحبيب ، أتوسّل إليك كي تعود . فكّر أنّي صرت كبيرة ومريضة ، وحيدة ، كلّ السنة ، مع خادمة . أسكن ، الآن ، بيتاً صغيراً قرب الطريق . هذا حزين جداً . لكنّك ، لو أنت هنا ، لتغيّر كلّ شيء بي . ليس لي سواك في الوجود ، ولسبع سنوات لم أرك ! لن تستطيع أن تعرف كم حزنت وكم كنتَ ، أنت ، راحة قلبي وسعادته . كنت حياتي ، حلمي ، أملي الوحيد ، حبي الوحيد ، وها إنك بعيد عني ، تخليت عنّي .

« آه ! عد ، يا پوليه الصغير ، عد ضمّني ، عد قرب أمّك الشيخة التي تمدّ إليك ذراعين فاقدتي الأمل .

جانّ »

بعد بضعة أيّام ، أجاب : .

« أميّ الحبيبة ، لا أتمنّى إلاّ العودة لأراك ، إنما ليس معي فلس واحد . أرسلي لي بعض مال وأعود كان في نيّتي المجيء إليك لأتحدّث معك بمشروع يسمح لي أن أعمل ما تطلبين .

« إن نزاهة من كانت رفيقتي في أصعب الأيام ومحبّتها ، تبقيان بلا حدود . ليس ممكناً أن أبقى مدّة أطول بدون الاعتراف ، علانية ، بحبّها وتفانيها المخلصين . ثم إنها تمتاز كذلك ، بخصال حميدة سوف تقدّرينها . وهي مثقّفة ، تقرأ كثيراً . أخيراً ، أنت لا تدركين ما كانت بالنسبة إلي . أكون فظًّا لو تخلّيت عنها . أتيت ، إذن ، أسألك أن تسمحي لي بالزواج منها . ستغفرين أعمالي الطائشة ونسكن معاً في بيتك الجديد .

كنت لتعطيني موافقتك الفوريّة ، لو أنت تعرفينها . أؤكّد

لكِ أنها كاملة ومميّزة . متأكّد أنا ، أنك ستحبّينها . وبالنسبة إلي ، لن يمكنني العيش بدونها .

أنتظر جوابك بفارغ الصبر ، يا أمّي الحبيبة ، ونحن نقبّلك من كلّ قلوبنا » .

ابنك

« الفيكونت پول دي لامار . »

ذُهلت جانّ . لبثت جامدة مكانها ، على ركبتها الرسالة ، تفكّر بمكر هذه الفتاة التي احتفظت دون انقطاع ، بابنها ، وما تركته يزورها ولا مرّة ، منتظرة ساعة تكون الأم فاقدة الأمل ، تعود لا تستطيع مقاومة لهفة احتضان ابنها ، فتضعف ، وتوافق على كلّ أمر .

ومزّقت قلبها ، من جديد ، آلام كبيرة بسبب تفضيل پول لهذه المخلوقة . راحت تردِّد : « هو لا يحبّني . لا يحبّني ».

دخلت روزالي . قالت جانّ متلجلجة : « يريد أن يتزوّجها ، الآن ».

قفزت الخادمة : « أوّاه ! سيّدتي . لن تسمحي بهذا . لن يلتقط السيّد پول هذه المومس »

أجابت جانّ ، مثقلة ، إنما ثائرة : « أبداً ، يا ابنتي . وبما انه لا يريد المجيء ، سأذهب أنا لآتي به ، وسنرى من منّا نحن الاثنتين ستحتفظ به ».

وكتبت إلى پول تعلن وصولها إليه ، ولتقابله خارج محلّ سكنه مع هذه العاهرة .

راحت تتحضّر لذلك ، منتظرة جوابه . وأخذت روزالي تحضّر ، في حقيبة قديمة ، بَياض سيّدتها وأشياءها الأخرى . وإذ هي تطوي ثوباً ريفياً قديماً ، هتفت : « ليس عندك ما تضعين على ظهرك . لن أسمح لك بالذهاب هكذا . تُلحقين العار بالجميع . وسيّدات باريس ينظرن إليك كخادمة » .

تركتها جانّ تتصرّف . وذهبتا معاً إلى غودرڤيل لانتقاء قماشة بمربّعات خضراء ، أحضرتاها إلى خياطة البلدة . ثم دخلتا عند السيّد روسِّيل ، كاتب العدل ، الكان يقوم ، كلّ سنة ، برحلة إلى العاصمة ، تقارب الخمسة عشر يوماً ، قصد الحصول منه على التعليمات اللازمة . لأنّ جانّ ، ما كانت رأت پاريس منذ ثمانية عشر عاماً .

قدّم تعليمات كثيرة حول طريقة تجنّب العربات ، وحول طرق لئلاّ تُسرق ، ناصحاً لها بأن تضع النقود في بطانة ثيابها ، وألاّ تضع في جيبها إلاّ الضروريّ . وتحدّث طويلاً عن المطاعم المتوسّطة الأسعار ، وسمّى اثنين أو ثلاثة تدخلها النساء ، وأشار عليها بفندق النورماندي حيث كان يحلّ هو نفسه ، قرب محطّة سكّة الحديد . ولتقدّم نفسها من قِبَله .

خطوط الحديد الكانوا يتحدّثون عنها أينما كان ، كانت تعمل بين پاريس وهاڤر ، منذ ستّ سنوات . لكنّ جانّ ، يمتلكها الحزن ، وما كان تسنىّ لها ، بعد ، أن ترى هذه العربات البخاريّة ، التي جعلت كلّ البلد ثائرًا .

ولم يُجب پول .

انتظرت ثمانية أيام ، ثم خمسة عشر يوماً ، ذاهبة ، كلّ صباح في الطريق أمام موزّع البريد ، وهي طريق كثيراً ما كانت تسلكها وهي ترتعش : « أليس عندك شيء لي ، يا مالاندان ؟ » ويجيب الرجل دائماً بصوت أبحّته تقلّبات الفصول : « بعد ، لا شيء ، سيّدتي الطيّبة ».

أكيداً ، هي هذه المرأة تمنعه من الإجابة !

فقرّرت الذهاب للحال . أرادت تأخذ روزالي معها ، لكنّ الخادمة رفضت كي لا تزيد نفقات الرحلة .

ولم تسمح لسيّدتها بأكثر من ثلاثمائة فرنك : إذا احتجّت لسواها ، فاكتبي لي ، أذهب عند كاتب العدل وهو يؤمّنها لك . إذا ما أعطيتك أكثر ، يأخذها السيّد پول .

وفي صباح من كانون الأوّل ، صعدتا عربة دني لوكوك الكان أتى لأخذهما إلى المحطّة ، وكانت روزالي ما تزال ترشد سيّدتها .

استعلمتا أوّلاً حول سعر التذاكر ، وحين تدبّر كلّ شيء ، وسُجّلت الحقيبة ، راحتا تنتظران أمام خطوط الحديد ، باحثتين عن كيفيّة عمل هذا « الشيء » ، مأخوذتين كليًّا بهذا السرّ ، حتى انهما ما عادتا تفكّران بالأسباب الحزينة لهذه الرحلة .

صفرة في البعيد ، أدارت رأسيهما ، فلاحظا آلة سوداء تكبر . وصلت بضجيج هائل ، مرّت أمامهما ساحبة خلفها سلسلة طويلة من البيوت الصغيرة النقّالة ؛ وإذ فتح موظف باباً ، قبّلت جانّ روزالي باكية ثم صعدت في خصّ منها .

متعجّبة روزالي ، هتفت :

« إلى اللقاء ، يا سيّدتي ، رحلة موفّقة ، إلى اللقاء القريب !
- إلى اللقاء ، يا ابنتي »

انطلقت صفّارة ، وابتدأت سلسلة البيوت تتلاحق ، متمهّلة أوّلاً ، ثم أسرع ، وأخيراً بسرعة مخيفة .

في مقصورة جانّ سيّدان نائمان مستندين ، كلٌّ إلى زاوية .

طفقت تنظر الأرياف ، الأشجار ، المزارع ، القرى ، مذعورة من هذه السرعة ، أحسّت نفسها مأخوذة في حياة جديدة ، محمولة إلى عالم جديد لم يكن عالمها ، عالم شبابها السّاكن ، وحياتها الرتيبة .

كان المساء ، حين وصل القطار إلى باريس .

حمل عميل حقيبة جانّ ، وتبعته مرتبكة ، متعجّلة ، غير ماهرة في المرور بين الجموع المتماوجة ، تكاد تكون راكضة وراء الرجل ، خوف أن يضيع عن نظرها .

ولما وصلت مكتب الفندق ، استعجلت أن تعلن :

« إنّي آتية من قبل السيّد روسّيل ».

كانت المسؤولة امرأة ضخمة وقورة ، جالسة إلى مكتبها ، فسألتها :

« مَن هذا ، السيّد روسّيل ؟ ».

مشدوهة ، أجابت جانّ : « كاتب عدل غودرڤيل ، ينزل عندك كلّ سنة ».

أعلنت المرأة الضخمة :

« هذا ممكن . أنا لا أعرفه . تريدين غرفة ؟

ـ نعم ، سيِّدتي »

حمل صبيّ حوائجها ، وصعد الدرج أمامها .

أحسَّت نفسها منقبضة القلب . جلست إلى طاولة صغيرة وطلبت حساء مع جناح دجاجة . ما كانت أكلت شيئاً منذ الفجر .

بحزن ، أكلت على ضوء شمعة ، مفكّرة بألف أمر ، متذكِّرة مرورها في هذه المدينة ذاتها ، في العودة من رحلة زواجها . أولى ملامح نفسيّة جوليان ظهرت حين إقامته في باريس . لكنّها ، صبيّة كانت ، وواثقة وشجاعة . الآن ، هي تشعر بأنها ختيارة ، مرتبكة ، وحتى خائفة ، ضعيفة ومضطربة للاشيء .

حين أنهت وليمتها ، انتقلت إلى الشباك وراحت تتطلّع إلى الشارع المليء بالناس . انتابتها رغبة بالخروج ، وما جرؤت . فكّرت أنها ستضيع ، حتماً . نامت وأطفأت شمعتها .

لكن الصخب ، والإحساس بمدينة مجهولة ، وتعب الرحلة ، كلّها خلّتها مستيقظة . انقضت الساعات . خفّت ضوضاء الخارج شيئاً فشيئاً ، وما استطاعت الإغفاء ، منزعجة لنصف الراحة هذه في المدن الكبرى . معتادة ، كانت ، على هدوء الريف ونومه العميق ، الذي يأخذ كلّ شيء : الناس والحيوانات والمزروعات ، وأحسّت ، الآن ، حواليها ، هيجاناً غريباً . أصوات تكاد لا تُسمَع تنسلّ إليها عبر جدران الفندق . تخبط أحياناً سقفية غرفتها ، ينغلق باب ، يقرع جرس صغير .

فجأة ، حوالى الثانية صباحاً ، إذ كادت تنعس ، صرخت امرأة في غرفة مجاورة . جلست ، بسرعة ، في سريرها ، ثم تراءى

لها أنها سمعت ضحكة رجل .

وبمقدار ما كان يتقدّم النهار للبروز ، راحت فكرة پول تسكنها . ارتدت ثيابها مع بزوغ الفجر .

يسكن ، كان ، شارع « المتوحش » ، في المدينة . أرادت الذهاب إليه سيراً على الأقدام ، إطاعة لتوصية روزالي بالاقتصاد . كان الطقس جميلاً ، الهواء البارد يقرص الجلد ، رجال مستعجلون يسرعون على الرصيف . تمشي ، كانت ، بأقصى سرعة ، تابعة شارعاً أشاروا إليها به ، في طرفه كان عليها أن تدور إلى اليمين ، ثم إلى الشمال ؛ ثم ، إذ وصلت إلى ساحة ، كان عليها أن تستدلّ من جديد . لم تجد المكان ، استدلت من خبّاز ، فأعطاها تعليمات مختلفة . ذهبت ، من جديد ، تاهت ، طوّفت ، تبعت تعليمات أخرى ، ضاعت تماماً .

ارتعبت ، فصارت تمشي مع الصدفة . وكانت على شفا استدعاء حوذيّ ، حين لمحت نهر السين . فاخترقت الرصيف .

وبعد ساعة ، دخلت شارع « المتوحّش » . نوع من شويرع أسود كلّه . توقّفت أمام الباب ، منذهلة إلى حدّ لا تستطيع معه أن تخطو ولو خطوة .

پوليه كان هنا ، في هذا البيت .

أحسّت ركبتيها ترتجفان ، وهكذا يديها . أخيراً دخلت ، تبعت ممشى ، فرأت حجرة البوّاب ، سألته وهي تعطيه قطعة نقود : « أتستطيع الصعود لإبلاغ السيّد پول دي لامار ، أن امرأة متقدّمة السنّ ، صديقة لأمه ، تنتظره في أسفل »

أجاب البوّاب :

« لم يعد يسكن هنا ، يا سيّدتي ».

اخترقتها ارتعاشة كبرى . تلعثمت قائلة :

« آه ! أين . . . وأين يسكن الآن ؟

ـ لا أدري » .

شعرت أنها ذُهلت وستقع ولبثت ، لفترة ، لا تقدر على الكلام . أخيراً ، وبجهد كبير ، استعادت روعها ، فقالت :

« منذ متى غادر ؟ »

بإهمال ، أجابها الرجل . « منذ خمسة عشر يوماً . ذهبا ، بغتة ، ذات مساء ، ولم يعودا . . . كان عليهما ديون في كلّ الحيّ ، تفهمين أنتِ ، إذن لماذا لم يتركا عنوانهما »

أخذت جانّ ترى أضواء ، لهباً كبيراً ، كما لو أنّ أحداً ، يطلق النار أمام عينيها . استبدّت بها فكرة واحدة ، أوقفتها ، هادئة ، في المظهر ، ومفكّرة . تريد أن تعرف أين پول لتجده .

لم يقل شيئاً ، وهو ذاهب ؟

ـ كلاّ ، أبداً . انسحبا كي لا يدفعا . هذا هو الواقع .

ـ لكنه يجب أن يرسل أحداً لاستلام رسائله .

ـ أكثر الأحيان أنا من يعطيه إياها . وهو لم يكن يستلم عشراً خلال السنة . كنت حملت إليهما رسالة قبل يومين من ذهابهما »

هي رسالتها بلا شك . قالت بسرعة : « إسمع ، أنا أمّه ، وأتيت لأخذه . هاك عشرة فرنكات . إذا عرفت أخباراً أو معلومات عنه ، أبلغنيها ، أنا في فندق النورماندي ، شارع هاڤر ، وأدفع لك جيِّداً » .

أجاب : « اعتمدي عليّ ، يا سيّدتي »
وانسحبت .

وعادت تمشي دون أن تتساءل إلى أين . كانت تسرع كأنها مستعجلة في سباق مهمّ . تطوف على امتداد الجدران ، مصطدمة بأناس يحملون رزماً . تخترق الشوارع دون أنَ ترى العربات تأتي ، يشتمها الحوذيّون . تتعثّر بدرجات الأرصفة الما كانت تنتبه إليها . تركض ، مع وجهها ، ذاهلة .

وجدت نفسها ، فجأة ، في حديقة ، وأحسّت أنها متعبة جدًّا ، فاستلقت على مقعد ، مكثت وقتاً طويلاً ، باكية دون انتباه منها ، إذ ان بعض المارّة كانوا يتوقّفون للنظر إليها . ثم شعرت بالبرد . نهضت لتعود . بالكاد كانت ساقاها تحملانها ، لفرط ما هي متعبة .

تريد ، كانت ، تناول حساء في أحد المطاعم ، لكنها ما جرؤت على الدخول إلى هذه المؤسّسات ، مأخوذة بنوع من الخجل ، من الخوف ، بنوع من سذاجة كئيبة لإحساسها بأنها تُرى . توقّفت ، لثانية ، أمام الباب ، نظرت إلى الداخل ، رأت كلّ الناس إلى الموائد يأكلون ، فهرعت مكتئبة ، قائلة في ذاتها : « أدخل المطعم التالي ». ولم تدخل .

اشترت ، أخيراً ، من خبّاز ، قطعة خبز صغيرة بشكل قمر ، وراحت تقضمها وهي سائرة . كانت عطشى عطشاً كبيراً ، لكنها ما عرفت أين تشرب ، وتناست الأمر .

اخترقت قنطرة فوجدت نفسها في حديقة أخرى محاطة

بالقناطر . فعرفت ، حينئذٍ ، القصر الملكيّ .

وبما أنّ الشمس والمشي كانا ألهباها ، إلى حدٍّ كبير ، جلست ، بعد ، ساعة أو ساعتين .

تدخل جموع ، جموع أنيقة تتكلّم ، تبتسم ، تحيّي ، هذه الجموع السعيدة ، التي نساؤها جميلات ورجالها أغنياء ، لا تحيا إلاّ لمباذل الحياة وأفراحها .

مشدوهة جانّ ، لكونها وسط هذه الجمهرة ، نهضت لتهرب . ولكن ، فجأة ، أتتها فكرة أن سوف تلتقي پول في هذا المكان . وراحت تطوف ، متفحِّصة الأوجه ، ذاهبة عائدة بدون توقّف ، من طرف الحديقة إلى طرفها الآخر ، بخطاها البسيطة والسريعة .

راح أناس يستديرون للنظر إليها ، آخرون راحوا يضحكون وهم يتملّونها . لاحظت الأمر فانسحبت ، مفكّرة أنهم ، حتماً ، يهزأون بدورانها وبثوبها ذي المربّعات الخضراء الذي انتقته روزالي ، ونفّذته ، بناء لتعليماتها خيّاطة غودرڤيل .

ما عادت جرؤت ، حتى ، أن تسأل أحداً عن طريقها . فراحت تمشي كيفما اتفق ، حتى انتهت إلى فندقها .

أمضت ما بقي من نهارها على كرسيّ ، إلى أقدام سريرها ، بدون حراك . ثم تعشّت كما في الليلة الماضية ، حساءً مركّزاً وقليلاً من اللحم . بعد ذلك نامت ، متمّمة ، كلّ حركة ، بشكل آلي معتاد .

في الغد ، حضرت إلى مديرية الشرطة كي يجدوا لها ابنها . ما

وعدوها بشيء ، مع ذلك سيحاولون .

وراحت تهيم في الشوارع ، آملة ، دائماً ، أن تلتقيه . ووجدت نفسها أكثر وحدة في هذه الجموع المتحرِّكة ، أكثر ضياعاً ، أكثر شقاء من كونها وسط حقول مقفرة .

حين عادت ، مساء ، إلى الفندق ، أعلموها أن رجلاً أتى من قبل السيّد پول ، وأنه سيعود في الغد . تدفّق الدم في قلبها ، وما غمض لها جفن طوال الليل ، إذا كان هو ؟ نعم ، بالطبع إنه هو ، بالرغم من أنها لم تعرفه من التفاصيل التي شرحوها لها .

طُرق بابها حوالى التاسعة صباحاً ، فهتفت : « أدخل ! » مستعدّة للانطلاق ، مفتوحة الذراعين . تقدّم مجهول . وفي حين راح يعتذر لإزعاجها ويشرح حاجته : « دين على پول » . أحسّت بنفسها تبكي بدون أن ترغب في ظهور دمعها ، ماسحة دمعها بطرف إصبعها ، بمقدار ما كان ينزلق في زاوية عينيها .

كان عرف بقدومها من بوّاب شارع « المتوحش » ، وبما أنّه لم يكن يحظى ببول ، اتجه إلى أمّه . ومدّ ورقة أخذتها دون أن تفكّر بشيء: قرأت رقماً : تسعون فرنكاً ، أخذت مالها ودفعت .

ما خرجت طوال ذلك النهار .

في الغد ، تقدّم دائنون آخرون . أعطت كلّ ما بقي لها ، غير محتفظة إلّا بحوالي العشرين من الفرنكات . وكتبت إلى روزالي تعلمها بوضعها .

أمضت أيامها في التطواف ، منتظرة جواب خادمتها ، لا تعرف ما تعمل ، ولا أين تقتل الساعات الحزينة حتى الموت ،

الساعات اللامتناهية ، لا أحد معها يبثها كلمة حنان ، ما عرف أحد شقاءها . وتركت نفسها للصدفة ، تنكّدها ، الآن ، حاجة للذهاب ، للعودة هناك ، إلى بيتها الصغير ، على طرف الطريق المتوحِّدة .

ما كانت تعرف كيف تحيا فيه ، من قبل ، لطالما أثقل عليها الحزن ، والآن تحسّ ، تماماً ، أنها ، على العكس ، لا تستطيع أن تحيا إلّا هنا ، حيث عاداتها الكئيبة كانت تجذّرت .

وذات مساء ، وجدت ، رسالة مع مئتي فرنك . كانت روزالي تقول : « سيّدتي جانّ ، إرجعي حالاً ، لن أرسل لك سواها . وبالنسبة إلى السيّد پول ، أنا أذهب للبحث عنه حين نعرف عنه شيئاً .

أحيّيكِ . خادمتك »

روزالي

وعادت جانّ إلىٰ بتّفيل ، ذات صباح كانت فيه الثلوج تنهمر ، والبرد قارساً .

XIV

وما عادت لتخرج ، ما عادت لتتحرّك . صارت تنهض كلّ صباح ، في الساعة ذاتها ، تنظر إلى الطقس عبر نافذتها ، ثم تنزل تجلس قرب النار في الغرفة .

كانت تبقى هكذا طوال أيام كاملة ، جامدة ، عيناها مستغرقتان في اللهب ، تاركة أفكارها الحزينة تهوّم لاحقة بتشعُّبات بؤسها . تخيّم الظلمات في الغرفة الصغيرة بدون أن تقوم بأية حركة إلّا إضافة الحطب إلى النار . فتجلب روزالي الضوء وتهتف : « هيّا ، سيّدة جانّ ، يجب أن نهزّك ، أو لن تجوعي هذا المساء .

غالباً ما كانت تلاحقها أفكار ثابتة تتملّكها ، ومعذّبة باهتمامات لا معنى لها ، كانت أتفه الأمور ، في رأسها المريض ، تأخذ أهميّة قصوى .

وراحت تحيا في الماضي ، في الماضي القديم ، مسكونة بطفولتها وبرحلة زواجها ، هناك في جزيرة كورسيكا . ومن جمرات موقدها ، صارت تنبجس فجأة ، مناظر من هذه الجزيرة ، من زمان منسيّة . وراحت تتذكّر كلّ التفاصيل ، كل الأحداث ، كل الوجوه الكائنت التقتها هناك . رأس الدليل جانّ رافولي يلاحقها . وتحسب ، مرات ، أنها تسمع صوته .

ثم انتقلت إلى التفكير بسنوات طفولة پول ، حين كان يجعلها تعيد غرس الخضار ، وتركع على الأرض الخصبة بجانب الخالة ليزون ، تتنافسان في العناية لإرضائه ، تكافحان أيهما تزرع أكثر وببراعة ، وأيهما ستحصل على نتاج أفضل .

وتتحرّك شفتاها ، همساً : « پوليه ، يا صغيري پوليه » ، كما لو انها تحدّثه . وإذ تتوقّف أحلامها عند هذه الكلمة ، تحاول ، أحياناً ، خلال ساعات ، أن تكتب ، في الفراغ ، بإصبعها الممدودة ، الأحرف التي تؤلف اسمه . بتمهّل ترسمها ، أمام النار ، متخيّلة أنها ترى الأحرف ، وإذ تحسب نفسها أخطأت ، تعيد حرف الـ ب بذراع مرتجفة تعباً ، مجتهدة أن ترسم الاسم كاملاً . وحين تنتهي ، تعيد من جديد .

وفي النهاية ، تعود لا تقدر ، فتخلط كلّ شيء ، تشكّل كلمات أخرى ، غاضبة حتى حدود الجنون .

تملّكتها كلّ خصال المتوحّدين المستوحشين . أي أمر ، يحيد عن مكانه ، يثيرها .

وكثيراً ما ترغمها روزالي على السّير ، تأخذها إلى الطريق . لكنها ، بعد عشرين دقيقة ، تعلن : « بتّ لا أستطيع ، يا ابنتي » ، وتجلس على الحافة .

ثم صارت كلّ حركة ، كريهة لها ، ولبثت تبقى في السرير ، لأطول مدّة ممكنة .

عادة واحدة لم تتغيّر منذ طفولتها ، هي النهوض ، دفعة واحدة ، فور شرب قهوتها مع الحليب . متمسّكة ، كانت ، بهذا

المزيج ، بطريقة مفرطة في المبالغة ، ومنعها عنها تؤثّر فيها أكثر من أيّ أمر آخر . تنتظر ، كانت ، كل صباح ، وحول روزالي بنفاد صبر لهيف . ومذ توضع الكأس ، ملأى ، على الطاولة الصغيرة ، تجلس بوضع ملائم ، وتفرّغها بحيويّة وبطريقة نهمة . ثم رافعة أغطيتها ، تروح ترتدي ثيابها .

وتدريجيا ، اعتادت على الاستغراق بالأحلام لبضع ثوان ، بعد وضعها الكأس مكانها ، ثمّ تتمدّد ، من جديد في السرير ، ثم راحت تطيل ، من يوم ليوم ، هذا الكسل ، حتى اضطرّت روزالي للعودة ، غاضبة ، وإلباسها ثيابها رغماً عنها .

لم تعد تظهر لك أيّة إرادة ، وكلّ مرّة تسألها خادمتها نصيحة ، أو سؤالاً ، أو تستعلم عن رأيها ، تجيب : « إفعلي ما تشائين ، يا ابنتي ».

كانت تحسب نفسها ملاحقة بسوء حظّ مستمرّ ، فأصبحت قدريّة كشرقيّ . وما عادت تجرؤ على أمر إذ اعتادت رؤ ية أحلامها تتلاشى ، وآلامها تنهار ، وصارت تتأرجح نهارات كاملة قبل تحقيق أبسط الأمور ، مسكونة ، كانت ، بفكرة انها ستنخرط في الطريق السيّء فينقلب الأمر .

وصارت تردّد ، كلّ آن : « لم يكن لي حظ في الحياة » فتقول لها روزالي : « ما كنت تقولين لو كان عليك العمل للحصول على الرغيف ، لو كنت مجبَرَة على النهوض ، كلّ يوم ، في السادسة صباحاً للذهاب إلى العمل النهار كلّه ! هناك كثيرات ملزمات على هذا ، ومع ذلك ، حين يصبحن مسنّات ، يمتن بؤساً ».

تجيب جانّ : « فكّري بوحدتي ، بأن ابني هجرني » وتحنق روزالي : « ما هذا ؟ والأولاد الذين في الخدمة العسكرية ! والذين يستقرّون في أميركا »

كانت أميركا ، بالنسبة إليها ، بلداً غامضاً ، إليه نذهب لجمع ثروة ومنه لا نعود ، أبداً .

وتكمل : « ثمة ، دوماً ، ظرف ، فيه نفترق ، لأن المسنّين والشباب ليسوا للبقاء معاً »وتستنتج بنبرة قويّة : « وبعد ، ماذا تقولين ، لو كان مات ؟ » .

حينئذ ، ما تعود ، جانّ ، تجيب بشيء .

وحين لان الهواء في أيام الربيع الأولى ، عادت إليها بعض قوّة ، لكنّها ما استفادت من عودة نشاطها هذه ، إلاّ للارتماء ، أكثر فأكثر ، في أفكارها المظلمة .

ذات صباح ، إذ صعدت إلى غرفة المؤ ن ، باحثة عن غرض ما ، فتحت ، صدفة ، صندوقاً ما ، مليئاً بتقويمات قديمة . كان أهلها ، وهي أيضاً ، احتفظوا بها ، على عادات بعض أهل الريف .

بدا لها انها وجدت سنوات ماضيها ذاتها ، فلبثت مأخوذة في انفعال غريب ، أمام كدسة الكرتون المربّع هذه .

حملتها وأنزلتها إلى الغرفة ، تحت . كان هناك من كل الأحجام ، كبيرة وصغيرة . راحت تنسّقها ، بتسلسل السنوات ، على الطاولة . وجدت ، بغتة ، الأول ، التقويم الكانت حملته ، هي نفسها ، إلى غيضة الحور .

طويلاً ، تأمّلته ، مع الأيّام المشطوبة بيدها ، منذ ذهابها من روّان ، غداة خروجها من الدير . وبكت . بدموع كئيبة وبطيئة ، بكت ، دموع مسنّة بمواجهة حياتها البائسة ، معروضة أمامها ، على هذه الطاولة .

واعترتها فكرة ، سريعاً ما صارت وسواساً غريباً ، دائماً ، مستبسلاً . أرادت تجد كل ما عملت ، يوماً بيوم .

علّقت ، في الحائط ، هذه التقويمات المصفرّة ، واحدة بعد الأخرى ، وراحت تمضي ساعات ، أمام تقويم أو آخر ، متسائلة : « ما جرى لي ، في هذا الشهر ؟ » .

كانت شطبت التواريخ الجديرة بالذكر من سيرة حياتها ، ومرات ، كانت تتوصّل إلى معرفة أحداث شهر بكامله ، واحداً فواحداً ، جامعة ، مسلسلة ، الواحد بعد الآخر ، كل الأعمال الصغيرة الكائنت تقدّمت أو تبعت حدثاً مهمّاً .

نجحت ، لانتباهها العنيد ، لإجهاد ذاكرتها ، لإرادتها المركّزة ، في إعادة بناء عاميها الأولين في غيضة الحور ، بشكل يكاد يكون تاماً ، واستعادت ذكريات قديمة من حياتها ، بسهولة فريدة ، وبوضوح .

لكن السنوات التالية ، بدت لها تضيع في الضباب ، تمتزج ، تحاذي ، الواحدة الأخرى . وتظلّ ، مرّات ، زمناً لامتناهياً ، محنية الرأس على تقويم ، شاردة البال صوب القدم ، دون أن تستطيع ، حتى ، أن تعرف أنّ ذكرى ما تجدها في هذا التقويم أم في سواه . تمضي ، من واحد إلى آخر ، في الغرفة التي تحيطها ، كما

صور درب الصليب ، هذه اللوحات للأيام المنتهية . فجأة ، توقف كرسيّها أمام واحد منها ، وتبقى ، حتى الليل ، جامدة تحدّق فيه ، غارقة في بحثها .

وإذ استيقظ ، كل نسغ للحياة ، بحرارة الشمس ، والبذور بدأت تنمو في الحقول ، والأشجار تخضرّ ، وحين تفتّح التفّاح ، في البساتين ، ككرات زهريّة وأنعش السهل بطيب الرائحة ، لازمتها ثورة كبيرة .

ما عادت تثبت في مكان . تروح وتجيء ، تخرج وتعود ، عشرين مرّة ، في النهار ، وتهيم ، أحياناً ، حتى آخر المزارع ، متخذة بنوع من حمّى الندم .

رؤية أقحوانة متجمّعة في باقة عشب ، وشعاع شمس منزلق بين الأوراق ، كما تجمُّع ماء في حفرة ، حيث تبدو زرقة السماء ، كل هذه تحرّكها ، تجعلها ترقّ متحنّنة ، تثيرها ، إذ تذكّرها بأحاسيس بعيدة في الزمن ، كما صدى انفعالاتها يوم كانت ، بعد ، صبية ، تحلم عبر الريف .

كانت أحسّت بتلك الارتعاشات ذاتها ، وتذوّقت هذه اللطافة وهذه النشوة المثيرة الهي للأيام الفاترة ، حين كانت تنتظر المستقبل . وجدت ، الآن ، كل هذه ، إذ المستقبل تسكّر . تفرح بها ، في قلبها ، لكنّها تتألّم منها ، في الوقت ذاته ، كأن الفرح الدائم للعالم المستيقظ ، مع الربيع ، وهو يخترق جلدها اليابس ، ودمها البارد ، وروحها المثقلة ، ما كان يستطيع إلاّ يرسل حلاوة ضعيفة ومؤلمة .

بدا لها أيضاً ، أنّ أمراً ما تغيّر حواليها . كأنّ الشمس أقلّ حرارة ، والسماء أقلّ زرقة ، والعشب أقلّ اخضراراً ، عن زمن شبابها . وكذلك الزهور ، الأكثر شحوباً ، والأقلّ عبيراً ، ما عادت تسكر وتنعش كما من زمان .

مع ذلك ، فإنها ، بعض الأيام ، كانت تحسّ حالة من السعادة ، فتروح تستغرق في الأحلام ، تأمل ، تنتظر . لأنه ، بالرغم من قسوة القدر المستبسل ، لا نقدر إلّا أن نأمل ، دائماً ، حين يكون الطقس جميلاً .

وتروح ، مع وجهها تروح ، لساعات وساعات ، كما مثارة بهيجان نفسها . وأحياناً ، تقف فجأة ، وتجلس على حافة الطريق لتفكّر بهذه الأمور الحزينة . لماذا هي لم تُحَبّ كما أخريات ؟ لماذا هي لم تعرف ، ولو سعادة بسيطة ، في كينونة هادئة ؟

وتنسى ، مرّات ، أنها شاخت ، ولم يبقَ أمامها شيء ، إلّا بضع سنوات حداديّة مستوحشة ، وأنها اجتازت كلّ طريقها . وتروح تبني ، كما من زمان ، في السادسة عشرة ، مشاريع عزيزة على قلبها ، تخطّط لمستقبل زاهر . ثم يهبط عليها ، إحساس الواقع القاسي . تنهض ، محدودبة ، كما تحت ثقل حمل يسحق ظهرها ، وتعود ، بطيئة ، في طريق بيتها ، هامسة : « أوه مجنونة هرمة ! مجنونة هرمة ! » .

تردّد ، روزالي ، على مسمعها ، كل لحظة : « إهدئي ، سيّدتي ، ما يثيرك هكذا ؟ » .

وتجيب جانّ ، حزينة : « ماذا تريدين ، صرت كـ

« مسّاكر »(Massacre) في أيّامه الأخيرة ».

في صباحٍ ما ، دخلت الخادمة باكراً عليها ، وإذ هي تضع على طاولتها الصغيرة ، كأس القهوة مع الحليب ، قالت : « هيّا اشربي . دني أمام الباب ينتظرنا . سنذهب إلى غيضة الحور ، إني مشغوله هناك ».

ظنّت نفسها ، جانّ ، تتلاشى ، لفرط شعورها بالذهول . ارتدت ثيابها مرتعشة من الانفعال ، مذهولة وخائرة القوى لفكرة انها سترى بيتها الحبيب .

تمتدّ فوق الكون سماء مشعّة ، والكديش ، مأخوذاً بالسرور ، يروح ، بين وقت وآخر ، يثب . حين دخولهم إيتوفّان ، شعرت ، جانّ ، أنها ، بصعوبة ، تتنفّس ، لارتجاف صدرها . وحين رأت أعمده السور القرميدية ، قالت بصوت منخفض ، مرّتين أو ثلاثاً ، رغماً عنها : « أوه ! أوه ! أوه ! »كما أمام الأشياء التي تثير القلب .

رفعوا العربة عند آل كويّار ، وإذ ذهبت روزالي وابنها إلى أعمالهما ، عرض المزارعون على جانّ أن تجول في القصر ، وأعطوها المفاتيح ، فأربابه غائبون .

وحيدة ، ذهبت ، وحين هي أمام القصير الريفيّ ، لجهة البحر ، توقّفت تتأمله . لا شيء تغيّر في الخارج . البناء الرماديّ الواسع ، كان يتلقّى ، اليوم ، على جدرانه الكامدة ، ابتسامات من الشمس . كل الشبابيك ، مقفلة ، كانت .

وقع عليها غصن شجرة يابس ، رفعت عينيها ، إذا به من

الدلبة . فتقدّمت من الشجرة الضخمة ، الناعمة الملمس والشاحبة ، وداعبتها بيدها كحيوان . اصطدمت قدمها ، في العشب ، بحطبة مهترئة . كانت آخر قطعة من المقعد حيث كانت تجلس ، مراراً ، مع كلّ أقربائها ، من المقعد الكانوا وضعوه ، في اليوم ذاته ، لزيارة جوليان الأولى .

اتجهت ، حينها ، إلى باب الرواق المزدوج ، وتعذّبت لفتحه ، رفض المفتاح الثقيل الصدىء أن يدور ، أخيراً ، سُمِعَ صرير كل زنبرك فيه . وإذ قاوم المصراع نفسه ، انفتح بقبضة يد .

وبسرعة ، صعدت جانْ ، شبه راكضة ، إلى غرفتها . ما عرفتها ، مغطّاة ، كانت ، بورق مضيء ، وإذ فتحت النافذة ، لبثت متأثرة حتى أعماق جلدها أمام هذا الأفق الكانت أحبّته كثيراً ، الغيضة ، الدردار ، الأرض البور ، والبحر المزروع أشرعة سمراء تبدو ، في البعيد ، ثابتة مكانها .

وراحت تطوّف في أرجاء المسكن الفارغ . رأت ، على الجدران ، لطخات أليفة لعينيها . توقّفت أمام ثقب في الجصّ أحدثه البارون الكان يتلهّى ، متذكّراً شبابه ، حين كان يشنّ هجوماً ، بقصبته على القاطع ، حين مرَّ بهذا المكان .

وجدت ، في غرفة أمّها ، وراء الباب ، وفي زاوية مظلمة من الجدار ، قرب السرير ، دبّوساً برأس ذهبي ، كانت وضعته هنا من زمانْ (تذكّرته الآن) ، ومن حينها راحت تبحث عنه طوال سنوات . ما كان وجده أحدْ . تناولته كأثر لا يقدَّر بثمن ، وقبّلته .

طفقت تدور في كلّ مكان ، تبحث ، تتعرّف آثاراً تكاد تكون

غير مرئية ، في بُسُط الغرف الباقية هي نفسها ، ترى ، من جديد ، هذه الوجوه النادرة ، التي يعطيها الخيال لرسوم القماش ، والمرمر ، لظلال السقوف ، الوسخة مع الزمن .

كانت تمشي بخطوات صامتة ، وحيدة ، في هذا القصر الواسع والصامت ، كما عبر مقبرة . كل حياتها كانت تطوّف هنا .

نزلت إلى الدار . كان مظلماً بشبابيكه المغلقة ، ومضى عليها وقت ما ، قبل أن تميّز شيئاً . وإذ اعتاد نظرها الظلام ، عرفت ، شيئاً ، فشيئاً ، الزخارف العالية حيث كانت العصافير تتنزّه . كرسيّان واسعان كانا بقيا أمام المدفأة ، كما لو كانوا للحظات غادروهما ، ونفذت ، إلى جانّ ، وغمرتها بالذكريات ، أثارت ذاكرتها ، رائحة الغرفة ، الرائحة نفسها الكانت تحتفظ بها ، كما الكائنات ، رائحة غامضة ، لكنها مميّزة . وبقيت لاهثة ، متنفّسة نسمة الماضي ، وعيناها ثابتتان على المقعدين . وبغتة ، في تخيّل ولّدته فكرتها الثابتة ، ظنّت نفسها ترى ، فرأت ، كما من زمان ، أباها وأمّها يدفئان أقدامهما في النار .

رجعت خائفة ، صدمت ظهرها بطرف الباب ، تعلّقت به لئلّا تقع ، وعيناها دائماً على الكرسيّين .

كانت اختفت الرؤ يا .

لبثت مذهولة لبضع دقائق ، ثم عادت فتملّكت ذاتها وأرادت تهرب ، كانت خافت أن تُجَنّ . وصدفة ، وقع نظرها على تلبيسة الباب العليها استندت ، ورأت سلّم پوليه .

كلّ العلامات الخفيفة ، تقاوم الدهان على مسافات متفاوتة

غير متوازية . وأرقام محفورة بالسكين ، كانت تدلّ على تطوّر عمره ومقدار نموّ ابنها . أحياناً هو خط البارون ، كبير ، وأحياناً خطها هي ، أصغر ، وأحياناً خط الخالة ليزون ، مرتجف قليلاً . وبدا لها أن طفل ذاك الزمان ، كان هنا ، أمامها ، بشعره الأشقر ، لاصقاً جبهته الصغيرة بالحائط ليقيسوا قامته .

ويهتف البارون : « جانّ ، لقد كبر سنتيمتراً خلال ستة أسابيع ».

وراحت تقبّل التلبيسة ، بحبّ مهتاج .

لكنّهم نادوها من خارج . كان صوت روزالي : « سيّدة جانّ ، يا سيّدة جانّ ، ننتظرك للغداء . »خرجت ، فاقدة الرأس . وما عادت فهمت شيئاً من كل ما قالوا لها . أكلت أشياء قدّموها لها ، تسمع حديثاً ولا تفهم منه شيئاً . تحدّثت ولا شكّ ، مع المزارعين يسألونها عن صحتها ، تركت نفسها يقبّلونها ، وبدورها قبّلت خدوداً مُدّت إليها ، وصعدت إلى العربة .

حين لم تعد ترى ، من خلال الأشجار ، سقف القصر العالي ، أحسّت تمزُّقاً غريباً في قلبها . أحسّت نفسها تقول وداعاً أبديًّا للبيت ، بيتها .

كانوا عائدين إلى بتّفيل .

لحظة كانت تدخل بيتها الجديد ، لاحظت شيئاً أبيض تحت الباب ، إنها رسالة كان ساعي البريد مرّرها ، هنا ، أثناء غيابها . عرفت ، مباشرة ، أنها من پول ، فتحتها ، وهي ترتجف قلقاً ، كان يقول :

« أمّي الحبيبة ، ما كتبت إليك لئلاّ أجعلك تقومين برحلة إلى باريس ، تكون غير مجدية ، إذ كان عليّ أنا ، أن آتي لرؤ يتك . أنا ، الآن ، مصعوق تماماً ، وأعاني صعوبة كبرى . زوجتي تكاد تموت بعد أن وضعت ابنة ، لثلاثة أيام مضت ، ولا فلس معي . لا أدري ما أفعل بالطفلة التي أخذتها خادمتي تربّيها على قارورة الرضاعة كما تستطيع ، لكني أخاف أفقدها . ألا تستطيعين الاهتمام بها ؟ لا أدري ، أبداً ، ما يجب فعله ، ولا مال لي لأضعها عند مرضعة . أجيبيني بسرعة » .

« ابنك الذي يحبّك ،

پول . »

تهاوت جانّ على كرسيّ . بالكاد استطاعت أن تنادي روزالي . وحين أتت ، معاً أعادتا قراءتها ، صمتتا ، طويلاً الواحدة بمواجهة الأخرى .

تكلّمت روزالي أخيراً : « سأذهب أنا ، وآتي بالبنت ، يا سيّدتي . لا نستطيع أن نهملها هكذا » .

جاوبت جانّ : « إذهبي ، يا ابنتي » .

وسكتتا ، بعد ، ثم قالت الخادمة : « اعتمري قبّعتك ، سيّدتي ، سنذهب إلى غودرڤيل ، عند كاتب العدل . إذا كانت تلك ستموت ، فيجب أن يتزوّجها پول ، لأجل الصغيرة فيما بعد » .

وبدون أن تجيب بكلمة ، اعتمرت ، جانّ ، قبّعتها . غمرت قلبها فرحة عميقة لا يمكن البوح بها ، فرحة خادعة

أرادت إخفاءها كيفما دار الأمر، واحدةمن تلك الفرحات المقيتة المنها نخجل ، ولكن نُسَرّ ، بحرارة ، في سرّ أرواحنا : ـ كانت ستموت عشيقة ابنها .

أعطى الكاتب العدل تعليمات مفصّلة ، صارت تردّدها ، ثم ، حين وثقت من أنها لن تخطىء بها ، أعلنت : « لا تخشي شيئاً ، سأتدبّر الأمر ».

في الليلة ذاتها ، انتقلت إلى باريس .

قضت يومين في قلق فكري ، معه باتت لا تستطيع التفكير في شيء . في صباح اليوم الثالث ، استلمت كلمة واحدة من روزالي تعلن عودتها ، مساء ، في القطار . فقط ، لا شيء سوى هذا .

في نحو الثالثة ، طلبت عربة جار أخذها إلى محطة بوزڤيل تنتظر خادمتها .

ظلّت ، على الرصيف ، واقفة ، عينها على خط اليمين الكان يمتد متلاقياً في البعيد ، هناك ، عند الأفق . تلتفت إلى ساعتها ، بين الفينة والفينة ـ عشر دقائق ، بعد ـ خمس دقائق ـ دقيقتان ـ هوذا الساعة ـ ما بدا شيء في الخط البعيد . ثم ، فجأة ، رأت بقعة بيضاء ، دخاناً ، ثم تحتها ، نقطة سوداء راحت تكبر ، تكبر ، منطلقة بسرعة كبيرة أخيراً ، خفّفت الآلة الضخمة سرعتها ، ومرّت صاخبة ، أمام جانّ ، التي راحت تراقب ، بنهم ، بوّابات القطار . كثيرات فُتِحَت . نزل كثيرون ، قرويّون بالقمصان ، قرويّات ومعهن السّلال ، بورجوازيون صغار بقبّعة رخوة . وأخيراً رأت روزالي تحمل ، بين يديها ، شكل رزمة ثياب .

أرادت تنطلق نحوها ، لكنها خافت الوقوع ، لفرط ما كانت قدماها رخوتين . وإذ رأتها خادمتها ، أتت إليها بمظهر هادىء عادي ، وقالت : « مرحباً سيّدتي . ها أنا عدت دون تعب »

تمتمت جانّ : « ثمّ ماذا ؟ »

أجابت روزالي : « وبعد ، فقد ماتت هذه الليلة . تزوّجا ، هاكِ الطفلة » ومدّت إليها الطفلة ، لا تكاد تُرى ، أبداً ، من بين ثيابها البيض .

تناولتها جانّ ، آليًّا ، وخرجتا من المحطة وصعدتا إلى العربة .

أردفت روزالي : « السيِّد پول يعود بعد الدفن . غداً ، نفس الساعة صدّقي » .

همست جانّ : « پول . . . » ولم تزد .

كانت الشمس تنزل صوب الأفق ، غامرة ، بضيائها ، السهول المخضوضرة ، المطرطشة ، بين مكان وآخر ، بذهب اللفت المزهّر ، وبدم الخشخاش المنثور . سكينة لامتناهية تحوّم على الأرض المطمئنّة حيث بدأ نموّ النسغ . تسرع العربة على وقع لسان القرويّ يثير الحصان .

جانّ ، تنظر أمامها ، كانت ، في الفضاء ، إلى السماء ، الكانت تخترقها ، كما الصواريخ ، سنونوات ذات طيران مجنون . وفجأة ، اعترت ركبتيها ، حرارة ناعمة ، حرارة حياة ، عبر ثيابها ، واخترقتها حتى الجلد . كانت حرارة الصغيرة النائمة على ركبتيها .

وغمرها انفعال لامتناهٍ . اكتشفت ، بغتة ، وجه الطفلة الما كانت رأته بعد : حفيدتها . إبنة إبنها . وإذ فتحت الطفلة السريعة العطب عينيها ، بعد أن أصابها النور القويّ ، وحرّكت فمها ، راحت ، جانّ ، تقبّلها بشدّة ، وهي تشيلها في يديها ، تغرقها قبلات

لكنّ روزالي ، سعيدة ومشاكسة ، أوقفتها : « هيّا ، هيّا سيّدة جانّ ، توقّفي . ستجعلينها تصرخ »

وأضافت ، تجيب ، ولا شكّ ، ذاتها : « تعرفين ؟ ليست الحياة ، أبداً ، أفضل أو أسوأ ممّا نظنّ »

المَلَف

موباسان وعصره

١٨٥٠ ـ ولادة غي دي موباسان ، الخامس من آب ، في قصر ميروميسنيل قريباً من دييب ، في فيكام ، وفاة بلزاك . في العام نفسه .

١٨٥٢ ـ نشر « روايات صياد » بالفرنسيّة لتورغنييف .

١٨٥٦ ـ ولادة شقيق غي ، هرڤي ، (مات ، بعدئذ ، مجنوناً .) وهكذا لم تنجُ العائلة من الانقسام والهجر ـ الأب أناني ، طائش ، ضعيف ، متهتك ومبذّر ؛ والأم مرهفة الشعور ، متسلّطة ، شغوفة بالأدب . بعد انفصالهما ، انزوت الأم مع ولديها في ڤيرغي في إتريتا .

١٨٥٧ ـ صدور كتابي « أزاهر الشر » و« مدام بوڤاري » ـ الحكم الأمبراطوري يقيم دعوى ضد فلوبير ثم ـ بودلير لإخلالهما بالآداب .

١٨٦٢ ـ صدور كتاب « الأب والابن » لتورغنييف ـ استحداث لفظة « العدمية » .

١٨٦٣ ـ غي يتخطّى مرحلة الطفولة الحرّة المتشرّدة وينخرط في مؤسّسة إيفيتو الكنسيّة . صدور كتابي « دومينيك » لفرومنتين و « حياة يسوع » لأرنيست رينان . كمبوديا تصبح محمية فرنسيّة ـ حرب المكسيك ـ المعارضة تحرز تقدّماً ضد نابوليون الثالث في الانتخابات النيابية .

١٨٦٨ ـ غي يدرس البيان والبلاغة بالمعهد الأمبراطوري في

روّان ، ويراسل الشاعر لويس بوييه ، الكان له الفضل في تعريف الفتى موپاسّان إلى غوستاف فلوبير صديقه الحميم وفي سيره على خطى فلوبير الأدبية ـ ألفونس دوديه ينشر « المجهول الصغير » .

١٨٦٩ ـ ينتسب موپاسان إلى كلية الحقوق في باريس . فلوبير ينشر « التربية العاطفية » ، ودوديه « رسائل من طاحونتي » ، والأخوان غونكور « السيّدة جيرفيزي » .

١٨٧٠ ـ ٧١ ـ في الحربِ الفرنسية الألمانية ، انخرط موپاسان في الفيصل ٧٠ ، وشغل منصباً هاماً هو المعتمديّة العسكريّة في روّان . ثم شهد هزيمة الجيش ولم يسرّح من الخدمة العسكريّة إلاّ في تشرين الثاني عام ١٨٧١ ـ سقوط الأمبراطوريّة ـ پول ڤرلين ينشر « الأغنية العذبة » وهـ. تان ينشر « الذكاء » ـ موت ديكنز .

١٨٧١ ـ ٧٢ ـ موپاسان يشغل منصباً متواضعاً في وزارة البحريّة ، ويعوّض عن ذلك بممارسة الرياضة ، وبخاصة ركوب القوارب في نهر السين : « طوال عشر سنوات ، كانت هوايتي الكبيرة والوحيدة المشوقة ارتياد نهر السين » . ـ أعمال أدبية بإشراف فلوبير .

١٨٧٣ ـ تشكيل حكومة ماك ماهون المسمّاة حكومة النظام الأخلاقي . موپاسان يتهجّم على « حماقة ذلك الغبيّ الصارخة » . ـ ألفونس دوديه ينشر كتابه « حكايات الاثنين » .

١٨٧٥ ـ بداية حياته الأدبية بنشر « اليد المخدّشة » في « تقويم اللورين » الصادر في بونتا موسّون . ثم ينشر بعض القصائد ويعدّ مسرحيّة « كونتيسّة الرون » ؛ ويكوّن صدقات أدبيّة فيتعرّف إلى زولا ودوديه وادمون غونكور وتورغينييف على يد فلوبير، كما يتعرّف إلى مالآرميه وڤيليه دي ليل أدام بواسطة كاتول منديس ؛ ويتردّد إلى منزل الأميرة

ماتيلد . ثم صار عضواً في ندوة ميدان التي كان يرئسها زولا - ينشر زولا كتاب « غلطة القس موري » .

١٨٧٦ - أوّل وليمة تضم فلوبير وزولا ودوديه في مقهى ريش - تشكيل ندوة « أمسيات ميدان » .

١٨٧٧ - موپاسّان يشكو من اضطرابات في صحّته ويتعالج بمياه لويش المعدنيّة . فلوبير ينشر « ثلاث حكايات » - غونكور ينشر « الفتاة إليزا » - موپاسان يضع تصميماً لكتاب « سيرة حياة » .

١٨٧٨ - ١٨ كانون الأوّل ، قدم استقالته من وزارة البحريّة ، ثم يدخل التعليم الرسميّ بفضل مساعدة فلوبير ، إلّا أنه أصبح يحتقر هذه المهنة ويأمل التخلّص منها يوماً .

١٨٧٩ - بداية نشاطه المسرحي بتقديم « تاريخ الزمن الغابر » - ماك ماهون يستقيل من الحكم - زولا ينشر « نانا » .

١٨٨٠ - في ١٦ نيسان ، بداية « أمسيات ميدان » ، موپاسان ينشر « كرة الشحم » فيلاقي إعجاب فلوبير ، ويحقّق نجاحاً بارزاً . وفي ٢٥ نيسان يصدر ديواناً شعرياً . - في ٨ نوّار ، يموت فلوبير مصعوقاً بجلطة دماغيّة ، فيحزن عليه موپاسّان كثيراً ، ويعتزل ، أخيراً ، الوظيفة الادارية التي كان يحتقرها ، كما ذكرنا . ويسافر ، في أيلول ، إلى كورسيكا - إحياء أولى ندوات « الثلاثاء » عند مالاّ رميه - دوستويفسكي ينشر « الاخوة كارا مازوف » - تكريس الرابع عشر من تمّوز عيداً وطنيًّا - صدور قانون العفو العام وإطلاق سراح أنصار الثورة - صدور مراسيم نفي اليسوعيّين .

١٨٨١ - انطلاقة موپاسان الكبيرة إذ صار محرّراً في « الغولوا » و « جيل بلاس » و « الفيغارو » و « صدى باريس » - في نوّار ، ينشر

مجموعة قصصية هي « آل تيلييه » ، ثم يسافر إلى إفريقيا الشمالية (تونس والجزائر) - أنا تول فرانس ينشر « جريمة سيلڤستر بونار » . - پول ڤرلين ينشر « حكمة » - إيبسن ينشر « العائدون » - رينوار يرسم لوحته « غداء البحّارة » - ومانيه « حانة العشّاق » .

١٨٨٢ - نشر مجموعة قصصية جديدة : « الآنسة فيفي » - رحلة الصيف إلى بريطانيا - هنري بيك ينشر « الغربان » .

١٨٨٣ - أولى رواياته « سيرة حياة » ، ينشرها أوّلاً بشكل مسلسل يومي في جريدة « جيل بلاس » من ٢٧ شباط حتى ٦ نيسان . ثم ينشر في حزيران « أقاصيص البيكاس » . ثم بنى فيلا « لاغييات » على طريق كريكتو بالقرب من إتريتا - وفي هذه السنة مات تورغنييف ومانيه وڤاغنر - ينشر رينان « ذكريات الطفولة والشباب » - نيتشيه ينشر « هكذا تكلم زرادشت » - ڤيلييه دي ليل آدام ينشر « حكايات العنف » .

١٨٨٤ - نشاط أدبي كبير : في كانون الثاني ، ينشر قصة أسفاره : « إلى الشمس » - في نيسان ، مجموعة قصصيّة أخرى : « في ضوء القمر » . . في تموز ، مجموعة ثالثة هي « ميس هارييه » ، ثم مجموعة رابعة هي « الأخوات روندولي » . وقدّم لرسائل فلوبير إلى جورج صاند بدراسة عن فلوبير - ثم بدأ يعاني من اضطرابات عصبيّة (صداع ، شدّة التهيّج ، قلق.) - ينشر ڤرلين « الماضي القريب والبعيد » - وينشر دوديه « سافو » - ج - ك هويسمان ينشر « بالمقلوب » إيبس ينشر « البطة البرية » وماسينيه : « مانون » .

١٨٨٥ - ثلاث مجموعات قصصيّة : « ايڤيت » ، « أقاصيص النهار والليل » ، « توان » - في نوّار ، يبدأ بنشر مسلسل يومي في جريدة « جيل بلاس » تحت عنوان « الصديق الطيّب » ، من ٦ نيسان حتى ٣٠

نوّار ـ موياسان يغادر منزله في شارع ديلون ليسكن في شارع مون شانين المعروف اليوم باسم شارع جاك بينغن في سهل مونسو ـ في الربيع ، سافر إلى إيطاليا وصقلية ؛ وفي الصيف كان يستشفي في شاتيل غيّون ـ زولا : « جرمينال » ـ جول لافورغ : « شكاوات » ـ بول بورجيه : « اللغز القاسي » ـ پاستور يكتشف اللقاح ضد الكلب ـ وفاة جول فالليس وفيكتور هوغو .

١٨٨٦ ـ عود إلى الأقصوصة : « مسيو پاران » و « روكّه الصغيرة » ـ تليهما إقامة قصيرة في إنكلترا ، ثم يسافر على مركب شراعي اسمه « الصديق الطيّب » ، ويعيش حياة مضطربة مرهقة وقلقة ـ پيار لوتي :« صيّاد إيسلاندا » ـ ريمبو : « وميض الإلهام » ـ دريمون : « فرنسا اليهوديّة » ـ موريس : « مبادىء الرمزيّة » ـ نيتشيه : « أبعد من الخير والشرّ . » ا . دي ڤوغييه : « القصة الروسيّة » ـ تقديم آخر معرض للفن الانطباعي ـ سورات يقدم : « الصفحة الكبيرة » .

١٨٧٧ ـ ينشر رواية « مون ـ اوريول » بشكل مسلسل في جريدة « جيل بلاس » ، من ٢٣ كانون الأول ١٨٨٦ حتى ٦ شباط ١٨٨٧ ـ ثم ينشر مجموعة قصصيّة في نوّار ، هي « الهورلا » ويسافر إلى الجزائر في تشرين الأوّل . زولا ينشر : « الأرض » ـ عصبة الخمسة تعلن مبادئها المنافية للمذهب الطبيعي ـ مالّارميه ينشر « قصائد » ـ تأسيس مسرح أنطوان الحر ـ ستريندبرغ ينشر « الأب » .

١٨٨٨ ـ رواية أخرى : « پيار وجان » ، تنشر بشكل مسلسل في « المجلة الجديدة » من ١ كانون الأوّل ١٨٨٧ حتى ١ كانون الثاني ١٨٨٨ ؛ وقدّم لهذا المسلسل بوضع « دراسة حول الرواية » ـ مذكّرات مسافر سمّاه : « على الماء ». ـ ثم بمجموعة قصصيّة أخرى : « مزهريّة

السيِّد هيسّون » ـ يسافر إلى تونس في شتاء ٨٨ ـ ٨٩ ـ تدهور حالته الصحيّة ـ ڤان غوغ يرسم دوّار الشمس ، بارّيس : « برعاية البرابرة » .

١٨٨٩ ـ أقاصيص جديدة : « اليد اليسرى » و « قويّ كالموت » ـ هرڤي ، شقيقه يحتضر بعد إصابته بالجنون ـ يقوم برحلة بحريّة إلى إيطاليا على ظهر « بيل آمي ٢ » ، ويصاب بآلام لا تطاق في رأسه وعينيه ـ زولا ينجز « الحيوان البشري » ـ بارّيس : « رجل حرّ » ـ كلوديل : « الرأس الذهبي » ـ بورجيه : « التلميذ » ـ ماترلينك : « الأميرة مالين » ـ دانّوسيو : « اللذة » ـ برغسون : « محاولة في معطيات الوجدان البديهيّة » ـ معرض باريس العالمي وبرج إيڤل .

١٨٩٠ ـ في أدب الرحلات : « حياة التشرّد » ـ ثم آخر مجموعة قصصيّة هي : « الجمال غير المجديّ » وآخر رواية : « قلبنا » ، ينشرها تباعاً في « مجلة العالمين » من نوّار حتى حزيران ـ ثم آخر مسرحيّاته : « ميزوت » ـ ثم ينقل سكنه إلى شارع بوكّادور في حيّ الشانزيليزيه ـ محاولة استشفاء في « إكس لي بان » ، « بلومبيار » و « جيراردمير » ـ ثم ينصرف إلى الاستجمام والراحة في كانّ والجزائر ـ پول فور يؤسّس مسرح الفن ـ رينان ينشر « مستقبل العلم » . وليم جيمس : « مبادىء في علم النفس » ـ وفاة ڤان غوغ .

١٨٩١ ـ استشفاء في ديڤون وشان ي يان ، ثم عودة على الكتابة بادئاً ، « غربة الروح » ثم التبشير الملائكي ـ زولا ينشر : « الدراهم » ـ جيد ينشر : « دفاتر أندريه والتر » ـ وبارّيس : « بستان بيرينيس » .

١٨٩٢ ـ أوّل كانون الأوّل ، محاولة انتحار ـ وفي السادس من الشهر عينه ، أصيب بالجنون وأدخل عيادة الدكتور بلانش في پاسي . . . پيار لوتي ينشر « شبح من الشرق » ـ أنا تول فرانس : « علبة عرق

اللؤلؤ » ـ كلوديل : « فتاة فيولان » .

١٨٩٣ ـ موباسّان يموت في السادس من تمّوز ، عن ٤٣ سنة ، ويدفن في مقبرة موباناس .

١٩٥٥ ـ لويس داكين ، ينتج ، بالاشتراك مع جوانّيس هيسترز ، الفيلم الفرنسي ـ النمساوي : « الصديق الطيِّب » .

هوامش حول « سيرة حياة »

نُشرت « سيرة حياة » مسلسلة في « جيل بلاس » بين ٢٥ شباط و ٦ نيسان سنة١٨٨٣ ، وسريعاً ما ظهرت لدى الناشر ڤيكتور هافار الكان موپاسان يثق به. وإن نشر منتخبات من مراسلات موپاسان بواسطه رينيه ديمسنيل في منشورات مكتبة فرنسا للآثار الكاملة (١٩٣٨) ، ثم بواسطة أرتين أرتينيان وأدوار مينيال ، وهذه التيّ لمخطوط مهمّ بواسطة لويس برتوني بمجلة العالَمين (١٥ تشرين الأوّل ١٩٢٠) ، واكتشاف مخطوطات أخرى مطابقة لفصول اقتطفت من الكتاب ، كذلك دراسة أندريه ڤيال الممتازة (قصة « سيرة حياة » ـ الآداب الجميلة ـ ١٩٥٤) ، تساعد كلّها ، في إعادة تركيب قصة الرواية بطريقة تكاد تكون كاملة .

هذه القصة ، طويلة هي ، ويبدو أن موپاسان شقيّ كثيراً في روايته الأولى . كتب ، في ١٠ كانون الأول ، ١٨٧٧ إلى فلوبير : « أنهي إعادة كتابة مسرحيتي حوالى ١٥ كانون الثاني . . . أعددتُ ، أيضاً ، تصميم رواية أبدأها بعد إنتهائي من المسرحيّة » . (ريمه ديمسنيل صفحة ٢٣٤) ونعرف أن موپاسان أتقن مهنته بالقرب من فلوبير ، وكوّن آراءه ، وبقيت ثابتة ، ملائمة ، بدليل أنه كتب إلى أمّه ، في ٢١ كانون الثاني ١٨٧٨ · « فلوبير . . . بدا كثير الحماس لمشروع الرواية الذي قرأته عليه ». قال لي : « آه ! رائع ، هذه رواية حقيقية ، فكرة واقعيّة » . قبل أن انكب عليها نهائياً ، سأعمل ، بعد ، في التصميم ، شهراً أو ستة

أسابيع » . (أرتينيان ، صفحة ٣٦) . وفي رسالة جديدة إلى أمّه ، في ١٥ شباط ١٨٧٨ ، يقول : « أعمل ، بحزم ، في روايتي ، وآمل أن أنتهي منها قبل الصيف . . . وعلى أبعد تقدير ، أكيداً ، أنهيها قبل رأس السنة المقبلة . وقد أنهيها قبل ذلك الوقت . » (أرتينيان صفحة ٣٩) . ثم ، في رسالة أخرى إلى أمّه ، في ٢١ أذار ١٨٧٨ : « توقفت الآن عن روايتي لأنهي « ڤينوس الريفيّة » . (ديمنسيل صفحة ٢٣٦) . ويدور ، بعد ، حديث عن الرواية في رسالتي نيسان ١٨٧٨ موجهتين الواحدة إلى أمّه والأخرى إلى روبير بينشون . وبعد رسالة أخيرة إلى أمه ، أثناء الصيف ، (« منكبّ ، أنا ، الآن ، على روايتي » البير لومبروزو - ذكريات عن موپاسان ، روما ، بوكّا ، ١٩٠٥ صفحة ١١٥) ، ما عدنا سمعنا حديثاً عن المشروع في مراسلاته ، وهي جُمعت ، فعلاً ، وطُبعت مبتورة .

هذه الرواية ، وهي شَغَلت موپاسان كثيراً في ١٨٧٨ ، هل هي نقطة انطلاق « سيرة حياة » ؟ لدوار مينيال يظنّ أن لا ، وأن الحديث كان عن مشروع مراهقي رفضه موپاسان في ما بعد ، بعد أن غيّر أسلوبه وتخطّى مراهقته الأدبيّة : كيف استطاع رجل واحد ، أن يضع في مشغل واحد ، وفي الوقت نفسه ، أعمالاً مختلفة الموضوع ، والنبرة ، والهدف الأخلاقي بقدر « ڤينوس الريفيّة » و « سيرة حياة » ؟ الحجة لا تنقص ، وأندريه ڤيال عمل على البرهان أن رواية ١٨٧٨ لا يمكن أن تكون إلاّ سيرة حياة ، إذا ما تفحّصنا المراسلات جيّداً ، ومخطوطات مختلفة وُجدت منذ النشر ، بواسطة لويس برتو في مجلّة العالَمين ، للمخطوط الأهمّ ، الكان موپاسان يدعوه « المخطوط القديم » ، ويتوافق مع الأربعة الفصول الأولى من الأثر النهائي . وبالإجمال نوجّه إلى كتاب أندريه ڤيال (قصة

خلق « سيرة حياة ») ونحن نلخّص خلاصاته : بدأ موپاسان الرواية في ربيع ١٨٧٨ ، الفصون الأولى ، كُتبت برشاقة ، إلى أن أتى صيف ١٨٧٨ بعجز الكاتب عن العمل ، فكتب إلى أمّه : « إنه لأمر منهك تماماً ؛ وبخاصة وضع كل أمر في مكانه ، وهكذا التحوّلات » . (لومبروزو صفحة ١١٥) . في الخريف ، أكبّ موپاسان ، مجدّداً ، على العمل ، يكتب الفصل السابع « يتصوّر ويستهلك الوحدة التقنيّة لروايته » (ڤيال) ، ثم يتركها ، تصميماً ، عند عودة الزوجين الشابين إلى غيضة الحور بعد رحلة زواجهما . في الواقع ، هي القسم الأكثر دقّة في القصة ، حيث لا يجري شيء ، ويُلمَح الوقوع في اللاشيء ، حيث تلاحظ ، جانّ ، أنها أصبحت « ليس لها ما تعمله ، لا شيء أبداً » ، وأنّ زوجها فظّ ، وأن ليس الزواج إلّا « ثقباً بلا حدود » وقعت فيه : لربما فهم موپاسان ، هنا ، أن موضوعه يقوده إلى كتابة بوڤاري أخرى ، وأن عليه أن يكون فلوبير أو لا شيء و « في نهاية ١٨٧٨ ، بدأ رقاد لسيرة حياة استمرّ عامين » (فيال ، صفحة ١٩) وأرغم موپاسّان على أعمال مضجرة في وزارة المعارف ، فكتب في ١٣ كانون الثاني ١٨٧٩ إلى فلوبير : « إني أنفصل أكثر فأكثر عن روايتي المسكينة ، وأخشى أن يكون انقطع الحبل السرّي » (ديمنسيل صفحة ٢٦٠) ، وبدون أن يريد إقحام اعتبارات سهلة على موت الأب ، ما كان مستحيلاً ، في نوّار ١٨٨٠ ، عند موت فلوبير ، أن يكون السبب ، تقريباً ، يعطيه الدافع لمعاودة العمل ، بعد رحلته ، الصيف ذاته ، إلى كورسيكا ، (ومنها يستوحي رحلة زواج جانّ وجوليان) . في الربيع الذي تلا ، بدا تماماً ، أنه استعاد ، جاداً ، مسيرة الرواية ، إذ نشر في ٧ نوّار ١٨٨١ في « الغولوا » أقصوصة « ذات مساء ربيعيّ » نجد حكايتها في الفصل الرابع من سيرة

حياة . وأقاصيص أخرى منها القصة الكورسيكيّة في كانون الأوّل ١٨٨١ ، تسمح لنا بإعادة تسلسل أحداث المؤلف ، الذي « انتهت مسودّته ، حسب ڤيال (صفحة ٢٤) ، على الأكثر ، في نوّار ١٨٨٢ » . نستشهد أيضاً بـ ڤيال : « من خريف ١٨٧٧ ، حين نلمح أوّل اختلاج للرواية ، حتى نيسان ١٨٨٣ ، حين ظهرت في واجهات المكتبات استبقى موپاسان روايته حوالى ستّ سنوات » . وهكذا نرى أن الصورة التقليديّة التي يطبّقونها على موپاسان ككاتب ينتج مؤلفاته « كتفّاحة تعطي ثمارها » يجب أن يعاد النظر فيها .

المخطوطات المحفوظة لا تتعلّق إلّا بفصول الرواية الأولى . وهي لا تسمح بمتابعة عمل الكاتب عن قرب ، في الوقت الكان فيه يتعلّم مهنة القصّاص والتي امتلكها لاحقاً ، أفضل من أيّ آخر . هنا أيضاً نشير إلى دراسة أندريه ڤيال . لا شيء غير منتظر ، مع ذلك ؛ يضغط موپاسان ويسرّع القصّة ، يلغي أو يشذّب الحلقات أو المشاهد التي يمكن أن تتشابه (وليمة عماد المركب « جانّ » ، ووليمة الزواج ، الكلب « مسّاكر » ، والأعمى الشابّ) ، يقسّي ملامح بعض شخصيّاته (خاصة جوليان) ، يحذف بعض وجوه ثانويّة : خالتا جانّ وقريبتاها ، تتركن المكان للخالة ليزون ، الفعّالة في امّحائها ، أو هنري ، أخ جانّ ، القاسية خشونته ، كان جعل جانّ ، بالمقابل ، أقلّ سماجة ، وكان يمكن أن يناقض ملامح البراءة ، الساذجة إلى حدّ ، لكن المحبّبة ، التي تتصل بكلّ عائلة لويرتوي دي ڤو . إنّه عمل جميل ، « وضع مناسب في المكان المناسب » ، منطقي ، مختَصَر ، بدون مجاملة ، « بدون حِيَل ، ولا ترتيبات مأساويّة وبارعة ، وبدون كبير اهتمام بالأسلوب ، بها يختلف عن الشاعرية الفلوبيريّة » ، يقول رينيه ديمنسيل (غي دي موپاسّان صفحة ١٨٨) ،

ولو في الرواية بعض ملامح غنائية بسيطة ، تطلّبها ، ولا شكّ ، المكان المهمّ الذي جعله للديكور ولاستحضار الطبيعة . لكن سيرة حياة تظهر لنا ، الآن ، موپاسّان الأفضل ، الحقيقيّ ، وليس صاحب « قويّ كما الموت » ، وأقاصيص اجتماعية ، هو الذي كتب منذ ١٨٧٨ إلى أبيه : « لا أتمنّى إلاّ أمراً : ألاّ أكون صاحب ذوق » (ديمنسيل صفحة ٢٣٧) ، وهو ، بعد سنوات عشر ، في مقدّمة « پيار وجانّ » يسوّي وضعهما « كهاويي تعابير نادرة » ، أي على طريقة غونكور ، وكمعجم مختصر غريب ، معقّد ، متعدّد وصيني يفرضونه اليوم باسم الكتابة الفنيّة . يعرّفونه اليوم ، بكبير تواضع . كـ « عامل حيّ الضمير ، ثابت » ؛ هكذا بدا من خلال قصة تكوين « سيرة حياة » .

إنّ اختيار النص يثير مسائل حسّاسة . الأمر الأسهل ، مبدئياً ، يكون في العودة إلى النص الأصلي (١٨٨٣) وهذا ما فعله ، مثلاً ، المسؤول عن طبعة كونار ١٩٠٨ : تظهر هذه ، مع ذلك ، قليل الاعتناء بها (هي نَسْخُ لجريدة جيل بلاس بكلّ بساطة) ، تضمّ غرائب في علامات الوقف ، وأخطاء مطبعيّة واضحة وكثيرة (هكذا قصر الكونت دي فورڤيل ، في الفصل التاسع ، موصوف على أنّه « قُصَير كونت » في حين لا يمكن أن يكون إلاّ « قصير حكاية ») ، وبخاصة ، عندنا شعور بأن موپاسّان لم يعتن بتصحيح المسودّات الطباعيّة ، بسبب كون عينيه كانتا متعبتين في تلك الفترة . فقد كتب إلى ڤيكتور هاڤار ، في شباط ١٨٨٣ « بدأت في تصحيح مسودّات سيرة حياة ، لكني لا أستطيع الإسراع في هذا ، فإنّ عينيّ متعبتان تماماً » . وفي بداية نيسان ١٨٨٣ ، كتب إلى الناشرين روڤاير وپلون ، أثناء تحضيرهما للطباعة ، « أقاصيص البيكاس » ، « لا أستطيع أن أعيد إليكما المسودّات مع عودة البريد . أنا

مضطرّ لأن أعطيها لصديق يقرأها لكون عينيّ مريضتان » . (ديمنسيل : المراسلات) .

إذا صدّقنا الفهارس (فهرس المكتبة الوطنيّة بخاصة) ، والبيبليوغرافيا ، فإن الطبعة الثانية هي التي ظهرت عند أولّندورف سنة ١٩٠١ ، إذن ، بعد موت المؤلف ، في سلسلة الآثار الكاملة . هذه الطبعة أمينة إلى حدٍّ (بالرغم من أن الاهداء إلى السيّدة برانّ حُذِف) تضمّ الكثير المتغيّر من علامات الوقف ، ولا ندري لمن نردّ ذلك . ظننّا أنّه يجب أن تكون طبعة انتقالية ، كان أولّندورف نشرها في ١٩٠١ ، وإن إدوار مينيال (حياة غي دي موپاسّان وآثاره ـ مركور دي فرانس ـ ١٩٠٦ صفحة ١٣٢) ، يذكر ، فعلاً ، طبعة ظهرت سنة ١٨٩٣ ، باعتناء أولّندورف ، طبعة منقّحة ، يحدّد ، ومزيّنة بلوحة مع توقيع الكاتب . ألبير لومبروزو يشير أيضاً ، إلى هذه الطبعة عند أولّندورف عام ١٨٩٣ في الصفحتين ٢٣٢ و ٢٧٠ من ذكرياته عن موپاسّان (روما ـ بوكّا إخوان ١٩٠٥) .

إلاّ أنّ هذه الطبعة لا ذكر لها خارج مينيال ولومبروزو ، ولا تظهر ولا في أيّة مكتبة . وجدنا نسخة منها بفضل السيّد ماكس ـ ف ديلاتّ ، صاحب مكتبة معروف في شارع اليومب .

لكنّ هذا الاكتشاف ، وكثيراً ما انتظرناه ، لم يفعل إلاّ زيادة ارتباكنا : الأمر يتعلّق بطبعة متقنة وتبدو وسيطة بين طبعة ١٨٨٣ وطبعة ١٩٠١ . تصحِّح ، في بعض نقاطها ، الطبعة الأصليّة ، لكنها لا تتضمّن بعض تغييرات نراها في طبعة ١٩٠١ ، التي يجب الاقتناع تماماً بأن تداخلات حصلت فيها ، بسيطة ، ليست من وضع موپاسّان . حتى ولو كانت ، في وضعها ، تُجَمِّل النص . لا يبقى إذن ، إلاّ طبعة

١٨٩٣ ، فهي التي راجعها المؤلّف : قطع اتصاله بهاڤار ، وسلّم مجموعة مؤلّفاته إلى أولندورف ، واستطاع أن يعمل ، حوالى آخر ١٨٩١ ، قبل أن يُجَنّ ، في طبعاتها التالية ، في بعض منها ، أقلّه ، إذ إنّ سيرة حياة هو الجزء الوحيد ، عند أولّندورف ، مع الآنسة فيفي (طبعة ثانية أيضاً سنة ١٨٩٣) الذي يحمل إشارة طبعة منقّحة .

تبنّينا ، إذن ، طبعة ١٨٩٣ . لم يكن قصدنا تحقيق طبعة مبنيّة على الأصول ، فقط ، أشرنا إلى بعض الفروقات المهمّة في طبعتي ١٨٨٣ و ١٩٠١ ، وصحّحنا بعض الأخطاء المطبعيّة الموجودة فيها . وبالنسبة لعلامات الوقف ، فإن بيان الفروقات كان ليقودنا بعيداً : فتمسّكنا بطبعة ١٨٩٣ ، لأنها تضمّ علامات وقف موپاسّان ، وهي كعلامات وقف كتّاب كثيرين في زمنه ، فيها غرائب لا نفهمها اليوم .

كلمة عن استقبال الرواية : جيّد لو صدّقنا منتخبات الصحافة التي جمعها رينيه ديمنسيل في طبعته عن مكتبة فرنسا . فَلْنُشر ، مع ذلك ، إلى أنّ النقّاد ، وهم معادون إجمالاً للمذهب الطبيعي ولتهكّم كاتب كرة الشحم ، هنأوه بخاصة لكونه سَكَبَ كمية لا بأس بها من المياه في نبيذه ، هكذا برونتيير في مقال أسماه « الطبيعيون الصغار » (مجلّة العالمين ـ أوّل آب ١٨٨٤) ، ومكسيم غوشيه (المجلة الزرقاء ـ ٢١ نيسان ١٨٨٣) ، الذي سُرّ بـ « الحقيقة المتواضعة » : « كانت الحقيقة ، أقلّ تواضعاً ، أليس كذلك ، في آل تيلييه ؟ ترون بأن الواقعية ـ السيّد موپاسّان ليس إلّا نصف واقعيّ ـ تنتهي بترك أحياء البؤساء والقاذورات . » موپاسّان هو أيضاً ، عنيف إلى حدّ ، لكنه يُسرّ النساء اللواتي « يظننّ بأنهنّ كنّ ، تقريباً ، جانّ ، ويجدن انفعالاتهن الخاصة ، ويرقّ قلبهنّ . » (بول ألكسيس ـ الريڤاي ـ ١٥ نيسان ١٨٨٣) ، وهو له « مفاصل رياضي

قاسية » ، وهذا ثناء نادراً ما يُعطى « لتلامذة زولا » ، وكتب پول بورجيه في السنة التالية أنّ موپاسّان ترجم « تطلّعات النشىء الجديد » ، إنما بطريقة مطابقة لـ « التقليد الفرنسي القديم » (جورنال دي ديبا ـ ٢١ نوّار ١٨٨٤) . وبالاجمال ، الكلّ كان مسروراً ، إلاّ وزير الداخلية الذي منع ، لبعض الوقت ، بيع « سيرة حياة » في المحطّات ، وهذا لم يمنع من أن تبيع الرواية اثنتين وعشرين ألف نسخة في ثمانية أشهر .

عويدات للنشر والطباعة ١١١٠/٢٠٠٨

GUY DE MAUPASSANT

UNE VIE

Traduction arabe

Elie M. Khalil

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth-Liban

سيرة حياة

...جاء الربيع محيياً حبّهما، رامياً كلاً منهما في ذراعي الآخر، مرة هنا، مرة هناك، تحت كل ملجأ، حيث تقودهما نزهاتهما.

وإذا كانت أوراق الأشجار غير كثيفة بعد، والعشب طريًا، ولا يمكنهما، كما في الصيف، الاحتماء بين شجيرات الغابات، صارا يذهبان، أكثر الأحيان، إلى كوخ راع نقّال مهجور منذ الخريف على قمّة شاطئ فوكوت قريباً من إيبور، هناك يختفيان، في عناقاتهما، عن المراقبة.

وحيداً، يقوم هذا الكوخ، عالياً على دواليبه، على بعد خمسمائة متر من الشاطئ الصخري، تماماً حيث يبدأ انحدار الوادي القاسي. لا يفاجآن هنا، هما يريان السهل كلّه. ويبقى الحصانان مربوطان ينتظران أن ينهيا لقاءهما...

علي مولا

ISBN 978-9953-28-104-9

9 789953 281049

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان